

في

اميركة المتوسطة والجنوبية

تاليف

الاب هنري لامنس اليسوعي

نقلها الى العربية

رشيد الخوري الشرتوني

نشرت في اعداد جريدة البشير ١٨٩٣–١٨٩٤

بيروت

المطبعة الكاثوليكية

١٨٩٤

2271
.5715
.3.77

مقدمة

ان ابصار الالوف من اهـالي هذه الديار متوجهة في الوقت الحاضر الى قارة اميركة لانهـا ضمّت لكل احد منهم بالتقريب أبًا او أمًّا او أخًا او أختًا او نسيبًا ومن ثم نشأ فيهم حب الوقوف على احوال هذه الجهة السحيقة والاطلاع على شؤونها واخبارها

ولما لم يكن في العربية كتاب يفصح المقال عن ناحيتَيها المتوسطة والجنوبية رغبنا ان نسدّ هذا الخلل وننفع لفيف مواطنينا الكرام بتوفير معارفهم الجغرافية

ومـا خلا هذه الغاية العلمية قصدنا غاية أخرى ايضًا عملية وذلك ان الاهالي يسافرون في الاعم الاغلب الى هذه البلدان النائيـة وهم جاهلون الى اين يذهبون ومتيقنون انها حالما يصلون اليها يحلّون منها في جنة ارضية ويفوزون بالسعادة والنعيم فاستفزّنا حب مصلحتهم والحرص على فائدتهم ان نعرّفهم بحقيقة حالها على ما هي دون زيادة ولا نقصان . فبسطنا الكلام بسطـًا شافيًا عما فيها من اسباب المعاش المختلفة مع درجة تربتها من الخصب والريف غير مخفين عليهم ما يمزّق احشاءها من الثورات المستمرة ولا كاتمين الامراض الخطرة المستوبئة في جوانبها ولا المحن والبلايا الكثيرة التي اعدّتها لقاصديها من الغرباء

ومن ثم يجد محب المهاجرة في كتابنا ما لو احسنَ التأمل فيه صانه من ان يتورّط في ردغة هوَسه ويُخلق ديباجة وجهه في بلاد الغربة . وان ابى الّا الاضرار وركوب الاخطار عرف من مطالعة « الرحلة السورية » اي الجهات من اميركة المتوسطة والجنوبية يستطيع ان يلاقي فيها حظّ النجاح وايّها اوفق واضمن سواء كان من جهة هوائها او اخلاق سكانها او ثبات حكومتها

وقدَ سلكنا في هذا الكتاب مسلكًا جغرافيًّا والحقنا بهِ كل ما يعود اليه من الفروع مثل الكلام على الديانات والتقاويم الاحصائية والزراعة والصناعة والتجارة وعدد السكان وامور الادارة والحالة الصحية الخ واتمامًا للفائدة اثبتنا عن اكثر البلاد التي تكلمنا عنها مجمل تواريخها حتى يكون للقارىء فيها تصور صائب

وبغية ان يظفر عملنا باجل وقع جعلناه بهيئة رسائل موجهة من سوري متجول الى صديق لهُ وقد نشرناه في ذيل البشير (لسنة ١٨٩٣ — ١٨٩٤) مدرجين فيه بعض حوادث واخبار ليس من شأنها التسلية وتنزيه الخواطر فقط ولكنها ايضًا تكفل باطلاع القارىء على حقيقة احوال البلاد التي جرت فيها

وهذا هو الشيء الوحيد الذي اتينا بهِ من عندنا . واما جميع ما ذكرناه من الامور التاريخية والجغرافية فقد عوّلنا فيه على احدث التآليف واشهرها في هذا المعنى وهي

١ كتاب الجغرافية العمومية الجديدة للعالم اليشع ريكلو في المجلدين السابع عشر والثامن عشر وهما مطبوعان في باريس سنة ١٨٩٣

٢ دورة العالم · وهي جريدة جديدة شأنها الاخبار عن الاسفار

٣ الصحيفة الجغرافية

٤ الرسالات الكاثوليكية

٥ الدنيا المعجبة مع كثير غيرها من المجلات والمجاميع الخصوصية جغرافية كانت او تاريخية

فعسى ان يظفر هذا العمل بالغرض الذي قصده المؤلف وينفع مطالعيه ويزيدهم رغبة في الدروس الجغرافية والتاريخية

---

1. *Nouvelle Géographie Universelle* par Elisée Reclus, T. XVII et XVIII. Paris, Hachette, 1893.

2° *Le Tour du monde.* Nouveau journal des voyages publié sous la direction de M. Edouard Charton.

3° *Gazette géographique ;* directeur Edouard Marbeau.

4° *Missions catholiques.* Lyon.

5° *Univers pittoresque.* Paris, Firmin Didot.

الرسالة الاولى
في
جزيرة كوبا

يا اعزّ الاصدقاء

اخبرك اني زايلت شيكاغو ومعرضها من نحو ثلثة اسابيع ولما كان الوقت متسعاً لي والدراهم موفورة احببت قبل عودتي الى الوطن العزيز ان اروّح النفس برؤية اخص المدائن في اميركة الجنوبية التي اجتمع اليها الوف من اهل البلاد في طلب الرزق . وبحسب عادتي لا اتأخر عن موافاتك بوصف ما ازور من المدن مع التصريح بما فيها من المحاسن والمعايب على قدر ما يبدو لخاطر الكليل لكي تكون على بينة من احوال هذه النواحي وتتمكن من الجواب على ما تُسال في شأنها

لما انتهيت الى نيويرك وجدت سفينة مسافرة الى كوبا فركبتها وكان بصحبتي اميركيٌّ من الولايات المتحدة يدير محلاً تجارياً في مدينة « هاڤانا » قاعدة الجزيرة فافضتُ معهُ في الحديث عن الناحية التي كنا نقصدها واخذت عنهُ اكثر ما ساقص عليك من احوالها

اما سفرنا فلم يقع فيهِ شيء يذكر فاخبرك عنهُ غير انهُ لما بلغت بنا السفينة خليج المكسيك القى الملاحون دلوًا في البحر ونشلوا ماء فكانت حرارتهُ في الدرجة العاشرة بمقياس سنتيغراد وما مضى خمس عشرة دقيقة حتى القوا بالدلو مرة أخرى فاذا الحرارة بالغة درجة الاربعين فتعجبت من ذلك واستخبرت عن السبب فقيل لي اننا دخلنا في مجرى الخليج الذي تأتيهِ المياه الحارّة من سواحل المكسيك وتجوز في المحيط كله

وعندما انبثق الصباح بدت لنا طلعة هاڤانا ودخلنا في القناة التي تؤدي الى مرفئها الكبير. فلما برز قرن الغزالة أطلقت المدافع من الحصون المشرفة على القناة مبشرة ببزوغ انوار الشمس ثم نفخ بالابواق ومرّت بنا السفينة تحت المدافع الفاغرة الافواه

وكانت الشمس قد ارسلت اوائل انوارها على البلدة فتبدت في ثوب بهيج يروق عيون الناظرين

واصدقك الحديث اني حالما وصلت الى هافانا انبهرت عيناي من محاسن مشهدها فقد رأيت نابولي وزرت قرن الذهب ولم اجد فيهما مزيّة عليها . ولما دخلنا المرفا زاد دهشي من وفرة المراكب فرأيت السواري متدانية كاشجار الغاب الكثيف وصدور السفن متجهة الى المساكن كاتجاه الجياد الى المعالف ثم وقعت عيني على الرايات المختلفة فابصرت بينها الراية الحمراء والصفراء لإسبانية وراية القديس جرجس لانكلترة والراية المثلثة الالوان لفرنسة ثم الراية المنجمة للممالك المتحدة مع راية البرازيل وسائر الجمهوريات الاميركية

وكانت السفينة تسير بنا الهوينا في بهرة الزحام حتى القت مرساتها في مضيق « رغلا » طرف المرفا . وحينئذٍ رقي الى السفينة مأمور الحكومة واخذ يفحص الاجوزة وتذاكر السفر حتى اذا انتهى نزلت الى الرصيف بعد ان جزت محل الجمرك بسرعة شاكرًا حسن معاملة المأمورين الاسبانيين

وسأعود الى وصف المرفإ والمدينة ان شاء الله بعد ان اكون قد صرفت فيها مدة . والان اجتزئ باخبارك عن الجزيرة بوجه الاجمال وعن سكانها ومحاصيلها وبالجملة عما يفرقها من سائر البلاد الاميركية لان رفيق سفرتي اتاني بمعلومات مفيدة عن هذه الامور

كوبا هي اول ارض كبيرة كشفها كريستوف كولومب في العالم الجديد ولما ان وصل اليها لم يكن يظن انها جزيرة بل قسم من اليابسة اما اسمها فهو مختزل من لفظة « كوباناكان » التي كان السكان الاصليون يطلقونها على الناحية المركزية في الجزيرة. وقد سعى البعض ولكن بدون ثمرة ان يبدلوا اسم هذه الجزيرة فسموها اولاً « القديس كريستوف » اكرامًا لكريستوف كولومب ثم « جوانا » اكرامًا لابنة الملك فردينان التي اكتشفت الجزيرة في ايامه ثم « فردينان » ثم « القديس يعقوب » وارضاء لذوق الاسبانيين الذين يحبون الالقاب الفخيمة تسمى في الاحتفالات والظروف الخارقة العادة

« كوبا المستمرة على الامانة » وان كانت لم تستأهل هذا اللقب كل الاحيان

اما شكلها فقد اكد لي رفيق سفرتي انهُ على هيئة لسان الطائر وكيفما كان الامر من صحة هذا التشبيه فان كوبا هي اكبر الجزائر الاميركية المعروفة بجزائر الانتيل وفيها كثير من الجبال واعلاها يختلف تقدير ارتفاعه بين الفين ومئة والفين وستمائة متر فيكون ارتفاعه على قول البعض كارتفاع جبل الكنيسة في لبنان وعلى قول البعض الآخر كارتفاع جبل صنين . ولكن هذا التقدير على ما روى لي رفيق رحلتي غير مصيب لانهُ قال انهُ رقي الجبل المذكور وقاسهُ قياساً مدققاً . فلم اعترضهُ فيما قال اذ لم يكن لي من سبب يحمل على عدم موافقته فضلاً عن ان المسئلة المختلف فيها لا نصيب لها من الاهمية

والظاهر ان جميع جبال الجزيرة جوفاء وقيل ايضاً ان الجزيرة برمتها اشبه بالبناء المعقود تسيل من تحته الانهار والجداول وفيها كثير من المغاور على مثال مغارة نهر الكلب بقرب بيروت وقد ولج بعضهم في داخلها بواسطة القوارب كما فعل رجال الشركة الانكليزية لما باشروا مشروع جرّ المياه من نهر الكلب الى بيروت وساروا فيها عدة اميال ولم يدركوا طرفها . وفي كثير من اماكن الجزيرة سواقٍ تغور في التربة ثم تنبع عيونًا غزارًا في جهات أُخرى . أما المغاور التي يكثر التردد اليها فواقعة في مكان يُقال لهُ « جبل لبنان » (١) وقد اخذت الدهشة مني مآخذها لما مرَّ بسمعي هذا الاسم الحلو وانا على مسافة اكثر من ٣ آلاف ساعة عن الاوطان العزيزة وقد بالغت في الاستقصاء من زميلي لعلي اعرف اصل هذه التسمية فلم يتمكن من افادتي بما اروم

ومن حيث ان مركز الجزيرة كثير الجبال لم تكن مسافة الانهار فيهِ طويلة ومع ذلك فليست كلها على مثال نهر الكلب في بلادنا فان منها نهرًا يُقال لهُ « كوتو » لا يقل طول مجراه عن مسافة مجرى العاصي وكثير من المراكب الشراعية المتوسطة الكبر تسير فيهِ بغير عناء

(١) وهو بالاسبانية monte Libano (راجع التاليف الكبير لاليشع ريكلو في الجغرافية العمومية المجلد ١٧ الصفحة ٦٦٠)

ولما كانت كوبا واقعة برمتها في منطقة الانقلاب كان هواؤها حارًا وشهر تموز فيها اكثر الشهور وغرًا ولا يتجاوز فيه الترمومتر الدرجة الثلاثين بمقياس سنتيغراد لكنه في مقابلة ذلك لا ينزل في شهر كانون الاول الذي هو اكثر الشهور بردًا الى ما تحت الدرجة الثالثة والعشرين فوق الصفر اي ان الحالة الجوية لا تلبث متشابهة وهي شديدة الموافقة فيما اظن للمصدورين. وفي بعض اماكنها يرتفع الترمومتر الى الدرجة الرابعة والثلاثين كما انهُ في اعلى جبالها يهبط احيانًا الى الصفر غير ان هذه امور استثنائية لا يمكن التعويل عليها عند الكلام على هواء البلاد بوجه اجمالي ومع ذلك فحقيقة القول ان حرّ هذه البلاد شديد حتى ان العرق يتصبب مني في آخر ايلول بما لم اعهده قط في بيروت في آبها المحرق

اما الامطار فانها تسقط سنويًا في شهري حزيران وتموز وتكون غزيرة الا انها اقل من امطار سورية ولما كان الاهالي قد قطعوا بعض الغابات عندهم نتج عن ذلك نقصان مهم في الامطار فذكرني هذا ان استاذنا في المدرسة كان يثبت لنا نفس الامر عن سورية لان لبنان في القديم كان مكتسيًا بالغابات الكثيفة فلم يكن يطول فيهِ القيظ كطولهِ في ايامنا الحاضرة وكان يقع فيهِ اوان الصيف مطرات غير يسيرة تلطف حالة الجوّ وتحيي موات الارض فما ضرّ اللبنانيين اليوم لو عادوا الى غرس الغابات وعدم التعرض لها بالقطع

اما الرطوبة في الجزيرة فكثيرة ولا تحسب رطوبة الاسكندرية في مقابلتها شيئًا مذكورًا لان متوسطها في كوبا لا يقل عن ٨٠ في المئة مع انّ متوسط رطوبة بيروت لا يتجاوز ٦٥ في المئة. والزوابع كثيرة الوقوع في كوبا وتشتد كثيرًا حتى انها تقتلع البيوت وتدك الحصون وتحمل المراكب الى البرّ وتجرّ الصخور العظيمة الى الحقول. ففي عاشر تشرين الاول سنة ١٧٨٦ لما ان اوشك الاسطولان الانكليزي والفرنسي ان يشعلا نيران القتال في بحر الانتيل فاجأهما اعصار هائل غرّق بعض سفنهما حتى اصبحا ولا همّ لهما الا التعاون على النجاة. وفي سنة ١٨٤٦ هدم الاعصار الفي بيت من هافانا واوهن

اكثر من ٥ آلاف واغرق ٢٣٥ سفينـة في المرفا وعطل ٤٨ هذا ما عدا الناس الذين ماتوا ولم يعرف عددهم

وقد وقفت عند هذا الحد من هذه الرسالة لاتجول في ضواحي هافانا وعلى كل حال لا اجد مندوحة من اخبارك باني قد اندهلت من جمال هاته البلاد وثروتها النباتية وتنوع محصولاتها فالان فهمت لاي سبب سماها الاسبان « درّة جزائر الانتيل »

ويؤكدون ان كوبا جامعة لكل اصناف الانبتة والاشجار الموجودة في سائر جزر الانتيل وبقية الجهات الواقعة تجاهها في اليابسة الاميركية وفيها ايضاً من جميع الاشجار التي تنبت في سواحل المكسيك وتكون مجللة باوراق جميلة ومزيّنة بازهار رائعة تفوح بالعبير الزكي. وفيها كذلك من النخل اكثر من ٣٠ صنفاً ومن الاخشاب اكثر الاجناس الثمينة كخشب الكابلي المعروف بالاكاجو والابنوس والارز والخشب الحديدي

وقد بحت مرةً بتعجبي من وفرة الغابات لاحد معارفي من الاهالي الذي يحسن التكلم بالانكليزية فاجابني « ترى ماذا كنت تقول لو رأيت جزيرتنا من ٥٠ سنة قبل ان أُخذ في قطع الغابات منها فان هذه السهول التي تراها اليوم مغطاة بالادغال كانت من قبل ملأى بالاشجار العظيمة »

وليس في كوبا حيوانات خصوصية لجميع الحيوانات التي فيها الان أُتي بها من الخارج وكانت كلابها داجنة من قبل فصارت الان بريّة حتى ان الرعاة في بعض المواضع يخشون منها كثيرًا على قطعانهم ولما دخل الاسبانيون الجزيرة وجدوا صنفاً من الكلاب لا ينبح وكان السكان الاصليون يسمّنونهُ ويعتبرون لحمه من افخر الاطعمة غير ان هذا الصنف باد جميعه ولا يعرف عنهُ شيء الا من التاريخ

اما الحيات فليست قليلة ولكنها غير سامة ويزعم الاهالي ان الانواع السامة التي أُدخلت اليها لا تلبث ان تفقد سمها مع تراخي الزمان . وقيل لي ان لدغة العقرب لا تحدث الا التهاباً يسيرًا كالتهاب لدغة البرغشة عندنا غير اني لم البث قليل اليقين من هذه الحيثية

ومن الامور التي اورثتني غاية التعجب لدى تجوالي بمدينة هافانا وضواحيها وفرة اختلاط السكان فاني رأيت من الاسود الفاحم حتى الابيض الناصع وقد عجبتُ على الخصوص من كثرة الصينيين الذين يُعرفون من وجوههم وجدائل شعورهم وجعلت اسأل عن الاسباب التي حملتهم على الانتقال الى هذه البلاد البعيدة جدًّا عن اوطانهم. ودونك ما توصلت لمعرفته عن مجيء هولاء الاغراب للجزيرة:

حالما وصل الاسبان الاولون الى كوبا كانت هذه الجزيرة مأهولة بقوم من الهنود ذوي الجلد الاحمر على شبه سائر اميركة غير ان هولاء السكان انقرضوا سريعاً فأُقيم مكانهم عبيد جيء بهم من افريقية وكانوا يباعون كالارقاء ثم تكاثروا جدًّا حتى انهم في اواخر القرن الماضي تغلبوا على البيض. واخيرًا في سنة ١٨٨٠ صدر الحكم بالغاء الاسترقاق تدريجًا

ولا بد من الاقرار مع ذلك بان العبيد في كوبا كانت معاملتهم اقل خشونة من مثلها في سائر الجهات. فلاجل الاستعاضة عن الارقاء الذين تحرروا طلب كبار الملاّكين في الجزيرة من بعض التجار في ماكاو وكنتون بالصين ان يهيئوا لهم متقيدين صينيين يكونون بمنزلة ارقاء وقتيين يحرّرونهم بعد نجاز المدة المتفق عليها لاجل الشغل

ومذ ذاك اخذ التجار يرسلون من هم على هذه الشاكلة فتارة يخطفونهم قهرًا وطورًا يغرّونهم بالمواعيد الكاذبة فكان يموت منهم في الطريق ١٢ في المئة ومع ذلك ما جاءت سنة ١٨٧٧ حتى صار في كوبا ٤٤ الف صيني ومن عشر سنين كانوا قد بلغوا سبعين الفاً ومعيشتهم من اقذر واشظف ما يكون فيتفق اثنا عشر منهم او اكثر ويستأجرون غرفة واحدة في جوار هافانا بثلاثين فرنكاً في الشهر ويرقدون فيها جميعاً على الحصر. اما طعامهم فمقصور على الارز المسلوق يضعونه في صحفة كبيرة ويتناولونه بعصي مخصوصة يصنعونها لذلك فيصيب الواحد منهم يومياً زنة ليبرتين من الارز بقيمة ٣٠ سنتيماً . ولباسهم يتألف من سروال ضيق وقميص سوداء قصيرة من الكتان ويتكلفون على كل ذلك ١٨ فرنكاً في السنة بنسبة ٥ سنتيات كل يوم ومن ثم تكون

نفقة العامل الصيني في يومه من اجرة بيت وكسوة وطعام ٤٥ سنتيماً

ومع كوني اعرف مواطني حق المعرفة ولا اجهل صفتي القناعة والاقتصاد اللتين يمتاز بهما اللبنانيون لم اجد منهم من يقدر ان يكتفي بنفقة ٤٥ سنتيماً في يومهِ

ثم ان الصينيين نظرًا لوفرة عددهم في كوبا وكدحهم ولاسيا لحذاقتهم يزاحمون السوريين في الاشغال مزاحمة كلية ويضيقون عليهم سبل المكاسب لان كثيرين منهم يتعاطون البيع في الحوانيت الصغيرة وهكذا يتصدون رأساً لمعارضة السوريين المذكورين الذين اتخذوا هذه المهنة بعينها

اما توطن البيض في كوبا بوجه نهائي وتعودهم هواءها مع وقوعها في منطقة الانقلاب فهو من الامور النادرة غير اننا اذا نظرنا الى حقيقة الامر لم نرَ ما يبعث على التعجب لان اكثرية البيض هناك مؤلفة من الاسبانيين. والحال ان الاسبانيين هم من سكان الجهات الجنوبية وقد كثر الاختلاط قديماً بينهم وبين العرب والمغاربة وهذا يبين سبب تعوّدهم بسهولة هواء كوبا حالة كون الانكليز قلما يتعوّدون هواء سائر جزائر الانتيل التي تخصهم لكونهم من سكان البلاد الشمالية ولاسيا لانهم يريدون المحافظة في هذه البلدان الحارّة على ما كان لهم من العادات في ناحية الشمال. ومع هذا فان الجلالقة الذين يسكنون في شمالي اسبانية في جبال قارسة البرد استوطنوا كوبا في هذه المدات الاخيرة وألفوا هواءها كما لو كانوا من اهلها الاصليين

اما عساكر البرّ والبحر في كوبا فكلهم من الاسبانيين الذين يقومون ايضاً بجميع الوظائف العمومية كالعدلية والادارة والبرُد وما شاكلها وفيهم كثيرون يتعاطون الصيرفة والتجارة . وفي كوبا ايضاً عدد غير يسير من اهل الولايات المتحدة يقيمون على الخصوص في المدن التجارية وهم يتميزون بهيئتهم وبرودة طباعهم عن الكوبيين الشديدي الحدة. ومن زمن طويل حاولت الولايات المتحدة ان تضم كوبا اليها وكانت تتوسل الى ذلك بتهييج القلاقل والقاء الفتن لكنها لما رأت انها لا تنال أرباً عمدت الى وسيلة التجارة حتى صار معظمها اليوم بين ايدي المتحدين الذين يأخذون من الصادرات نحو ٩٠ في المئة ومن

الواردات نحو ٢٠ فضلًا عن انهم يملكون جميع البواخر التي تسافر بين موانيهم والجزيرة المذكورة

وقولنا ان البيض تعوَّدوا هواء كوبا وألفوا الاقامة فيها لا نريد بذلك انهم صاروا بمأمن من آفاتها الوبيلة وادوائها الوخيمة التي نخص منها بالذكر اولاً الحمى الصفراء وهي علة موبئة ظهرت من نحو قرن لما أُخذ في قطع الغابات واكثر ما تصيب اهل الشمال والسكندينافيين والارلنديين والايكوسيين ولاسيما ذوي اللون الاشقر هذا مع قطع النظر عن الحميات المتقطعة والحادة الكثيرة الحدوث. ثانياً الذرَب اي الدوسنطارية ومن الغريب ان هتين العلتين تصيبان البيض فقط وتتهيبان السود والصينيين الذين كثيرًا ما يفتك بهم الهواء الاصفر فتكًا ذريعًا. ثالثًا داء يسمونهُ داء معامل السكر لانهُ يصيب عادةً الفعلة المستخدمين في المعامل المذكورة

وكل هذه الادواء مخيفة جدًّا تفتك بعدد كثير من الناس في وقت قليل . وقد روي لي عنها اخبار كثيرة حملتني ان لا أُطيل الاقامة في هذه البلاد

من ذلك ان اسبانية ارسلت سنة ١٨٦٨ مئة وخمسة واربعين الف عسكري لتذليل الثورة التي استفحل امرها في تلك السنة فمات منهم بهذه الامراض نحو مئة الف وحتى الان يتبين من سجلات الحكومة انهُ يموت بالحمى الصفراء ٢٥ في المئة من العساكر في السنين الاولى من استيطانهم

واكثر ما تصيب هذه الامراض سكان المدن لاسيما ما كان واقعاً منها على ضفة نهر. اما الهواء في داخلية البلاد ولاسيا في الجبال فانهُ اجود. ثم ان السنة باعتبار موافقة الصحة تنقسم الى ثلثة اقسام لان المدن في اربعة اشهر الشتاء تكون ملائمة وفي اربعة اشهر الصيف غير ملائمة وفي سائر السنة متوسطة بين الامرين . ومن حيث ان الحمى الصفراء هي كثيرة الخطر ومنتشرة بوجه الخصوص في جميع جهات اميركة الجنوبية تقريبًا احببت ان اوسع لك الكلام عليها بمقتضى ما سمعتهُ لكن بما اني لم ادرس الطب أُورد لك الاشياء كما اتصورها وبنفس الترتيب الذي يحضر في ذهني فاقول:

ان جراثيم هذه العلة تعيش زماناً طويلاً وتنتقل عدواها بسهولة الى الاماكن المجاورة بواسطة الامتعة والبضائع. اما اجسام المرضى فالظاهر انها لا تصلح لحملها كما قد سمعت من احد اطباء العسكرية في هافانا وهو ممن طالت خبرته في احوال الداء وعرف تقلباته وسيره

والجراثيم المذكورة تنتشر كلما لاقت مقاماً موافقاً فتنمو ضمن مركز محدود مثل غرفة او بيت ولا يتسع نطاق مركزها الا بتباطوء ويمتد دائماً الى البيوت التي هي اكثر قرباً منهُ لا غير وهكذا تستمرّ في بعض الاحيان اشهراً كاملة منحصرة في حي من المدينة على حين تكون سائر الاحياء خالية منها لكنه اذا زار ذلك الحي احد لا يلبث ان تسري اليهِ العدوى بمجرد الزيارة لا بملامسة المريض

وقد روي لي ان بيتاً مات فيهِ مصاب بالحمى الصفراء فترك مهجوراً ستة اشهر وفي نهايتها دخله احد الغرباء فنشب فيهِ الداء. وهذا يثبت ايضاً ان الجراثيم لا تعيش على جسم المريض. ولو ان كوبا كانت من البلدان التي يقرس بردها فيحصل فيها الجليد لكان العود الى البيوت المهجورة ميسوراً لا خطر فيهِ لان الجراثيم تكون قد ماتت بواسطة الجليد ولكنه لسوء الطالع لا يحدث فيها شيء من ذلك حتى ولا في جبالها العالية

والظاهر انهُ لا محل للخوف من العلة طالما كان الانسان بعيداً عن مركزها ولكن مجرد زيارة للمحل المنتشرة فيهِ ولو لم تستمرّ الا بضع دقائق تكفي لسريان عدواها اليهِ واذا نقل المصابون بها الى محل آخر فلك ان تقترب اليهم من غير ان تخشى باساً لان اجسامهم لا تحمل جراثيم المرض

وقصارى القول ان هذه العلة شديدة الفتك فاذا أُصيب مئة بها يموت من ٨٠ الى ٩٠ اي انهُ لا تتيسر النجاة منها الا ما ندر ولاسيما اذا استمرّ المريض في محل انتشار عدواها. و احسن الوسائل للوقاية منها هي المبادرة الى هجران البيت او الحي الحاصلة فيهِ الاصابة فان تمَّ ذلك لا يلبث الوباء ان ينطفئ لكن لا تجوز العودة الى المحل المهجور لان الجراثيم تستمرّ حية فيهِ زمناً طويلاً كما تقدم القول. ومما مرَّ تعرف ان الحاجر

الصحية لا تجدي نفعًا لقمع الداء المذكور ولكن غاية ما يجب هو الاعتناء بتطهير الامتعة والبضائع

فقد رأيت اذًا انهُ ليس من وردة تخلو من الاشواك . ولما كنت قد وصفت لك محاسن « درَّة الانتيل » لم اجد موافقًا ان ابقيك جاهلًا وجود هذه الامراض الخبيثة لئلا يفوتك شيء تهمّ معرفته. واختم رسالتي داعيًا لك بالهناء والسلامة سائلًا اياك ان تعتقد فيَّ دائمًا صديقًا مخلصًا



الرسالة الثانية

ها قد مضى على اقامتي في هاڤانا ثلثة اسابيع وقد جاء الاسبوع الاخير مصداقاً لما اخبرتك عنهُ في رسالتي السابقة وهو ان هواء كوبا يلائم المصدورين فان الفندق الذي انا نازل فيهِ قد غص بالمرضى المتواردين من المدن الكبيرة في اميركا لقضاء فصل الشتاء في هذه الجزيرة

وقد وعدتك في رسالتي السابقة ان اصف لك مدينة هاڤانا ولما كنت قد زرت جميع نواحيها وبحثت عن كل ما فيها البحث اللازم لم ارَ الان بدًّا من القيام بالوعد فاقول :

يبلغ سكان هاڤانا ٢٠٠ الف نسمة وهي واقعة في احسن مكان صالح للتجارة لان مرفأها جزيل الاتساع وفي غاية الامن واللسان المبنية عليهِ سهل التحصين والحقول الخصيبة المحدقة بها وافرة المحاصيل اما مركزها الجغرافي فانهُ ايضاً في غاية الموافقة لوقوعها في وسط العالم الجديد تجاه الممالك المتحدة وقبالة المكسيك ولاسيما لكونها محطاً للبواخر المختلفة ولهذا السبب صارت اعظم واهم المدن في جزائر الانتيل

ويُدخل الى مرفإها في قناة يبلغ اتساعها من ٣٠٠ الى ٣٥٠ مترًا على مثال البوسفور في الاستانة وعلى جانبي القناة قلاع وحصون مجهزة بالمدافع العظيمة. فان في الجهة اليمنى قلعة تسمى « پونتا » اي الراس وفي اليسرى قلعة تسمى « مورو » مبنية على صخرة عظيمة صاعدة من البحر والصخرة ليست عالية كثيرًا ولكنها مشرفة كل الاشراف على المياه. ويلي هذه القلعة استحكامات اخرى منيعة بمدافع قوية متعددة تحطم كل بارجة تدخل بقصد عدائي

وبعد ان تنتهي القناة تفضي الى حوض فسيح بل الى بحيرة وان شئت الى بحر داخلي يمكن ان ترسو فيهِ الف باخرة كبيرة بغاية السهولة. اما المدينة فانها ممتدة نحو الجهة اليسرى ولو انها كانت مثل بيروت ممتدة صُعدًا على شبه ما يسمونه بالامفيتياتر

لكانت اجمل وابهج في العيون. واما منازلها فاكثرها واطية ومطليــة بالوان لامعة بين اصفر واخضر ووردي وازرق وفي ساحاتها اغراس من النخل تزينها وفي احيائها المختلفة طرق طويلة تكتنفهــا اشجار ملتفة على الجانبين وفيها من المباني العمومية عدة كنــائس وقصور ومدرسة جامعة. وهم يدعون ان رفاة كولمبوس محفوظة في كنيستهم الكبرى وسكان « سان دومنغو » في جزيرة هايتي يدعون مثل هذه الدعوى ولا اعلم اي الفريقين احق بدعواه بل غاية ما اعرف ان جسم كولمبوس يستحيل ان يكون بموضعين في وقت واحد ولكن مع ما فيها من المنتزهات الجميلة والشوارع المغروسة جوانبها بالاشجار ترى كثيرًا من طرقها في غاية الضيق لا يمكن ان تمر بهــا عربتان مواجهةً وحيث قد جرى الان ذكر العربات احببت ان اخبرك عن النوع المستعمل منها في كوبا

صوّر لذهنك محوّرين طويلين ورقيقين وفي طرفهما دولابان كبيران وامامهما حصان وعلى الحصان عبد اسود في رجليهِ جزمة كبيرة ذات مهاميز طويلة فهذا هو النوع المستعمل عندهم من العربات التي يسمونها « الطائرة » (١) اشارة الى سرعتها ولا يركب فيها عادةً الا رجل واحد يتكي كانهُ راقد بدخان السيكار يتصــاعد دائمًا من فمهِ لان الكوبي الحقيقي لا يرى الا والسيكار لهُ قرين . وقد اتخذت مرةً واحدة من هذه العربات وسرت مسافة خمس كيلومترات في طريق تظللها الاشجار من الجانبين ولم ارَ رجلًا من دون ان يكون السيكار في فمهِ

وذهبت مرة أخرى باكرًا صباحًا الى مسافة اطول ولم يكن لي من قصد الا روءية المدينة ولكن اصحاب الفندق الذي كنت نازلاً فيهِ افهموني اني اذا اردت روءية المدينة ينبغي ان اخرج قبل الغروب بساعة والاهالي لا يخرجونَ اصلًا قبل هذه الساعة. بسبب شدة الحر. وفي الحقيقة انهُ متى قرب الغياب تزدحم الطرق « بالطائرات » وتنار المدينة بانوار الغــاز ويُشرع في قضاء الزيارات ومشترى الحــاجات لان الهواء يصفو اذ ذاك

(١) بالاسبانية volante

ويصطف رجال الموسيقى امام دار الحاكم وفي الساحة العمومية ويصدحون بالالحان المطربة تحت قباب النخل. ومتى اقبل الليل قام الحرس في زوايا الشوارع وبيد كل منهم عصاً طويلة وفانوس منير

ثم دخلت الى الفندق فلم اجد في حجراتهِ فُرشاً ولكن هنالك صنفٌ يسمونهُ «هاماك» وهو عبارة عن قطعة من النسيج او شبكة تُفرش تحت كلة (ناموسية) ويفضلون هذا النوع على الفرش المحشوة بالصوف تجنباً للحرّ وطلباً للبرودة. ولما ولجت احدى الغرف نبهني الخادم ان لا امشي على البلاط حافياً لسبب حشرة صغيرة تنفذ في اللحم وتبيض فيهِ وتحدث ألماً لا يطاق واذا تُركت زماناً طويلاً لزم لاخراجها عملية جراحية فضجرت من ذلك وتأففت لاني مع كوني غير كلف بمذهب الخوري كنيب كنت اود ان ارطب رجلي بعض الترطيب في هذه الايام الشديدة الحر ولهذا نهضت في الغد باكراً جدًّا لاتنعم بشيءٍ من الرطوبة

اما ساحل البحر فملوء من المغاور التي تدخل اليها المياه وتخرج من غير انقطاع ولم ارَ موضعاً احسن منها واوفق لاجل الاغتسال لان سقوفها تحمي المغتسل من حرارة الشمس والحواجز المقامة في مدخلها تمنع الكلاب البحرية الكثيرة العدد هناك من الولوج فيها من غير ان تحول دون الامواج المزبدة التي تسير مزمجرة في تلك الاروقة. وبسبب «مجرى الخليج» (١) تبلغ حرارة المياه درجة الاربعين بمقياس سنتيغراد ومتى ولج المغتسل هذه المغاور يرى السفن المختلفة تدخل المرفأ وتخرج منهُ وكنت اتوقع لدى خروجي ان ادفع مبلغاً من الدراهم فاخرجت من ثم محفظة النقود غير اني لما لم ارَ احداً طالبني بشيءٍ اعدتها الى جيبي وظننت اول الامر ان ذلك نتج عن سهو من المستخدمين ولكني علمت بعدئذٍ ان الحمامات البحرية منشأة من قبل الحكومة التي اتاحت للجميع دخولها مجاناً . وبعض هذه الحمامات مخصوص بالنساء وبعضها مفرز لذوي الالوان وهم الذين ليسوا ببيض بياضاً تاماً

(١) Gulf stream

ومن حيث ان الحر لم يزل خفيفاً عدت الى الفنـدق ماشياً وازددت تأكداً على ان الكوبيـين كلفون بالاسماء المطنطنـة لانهم يسمون كل حانوت لهم مهما كان صغيراً باسم مخصوص هذا يدعونهُ الشمس والاخر القمر وذاك يطلقون عليـهِ اسم بعض الازهار او الاثمار ويلحقونهُ بافخم الاوصاف التي يقصر عنهـا شعراء العرب في مغالياتهم وقـد تعلمت من هذا كيف اردّ من الان فصـاعداً اقوال الذين يقولون ان العرب لا يتكلمون الا عن الشمس والقمر فمالي الا ان ادلهم على هاتهِ البلاد ومن هذا ايضاً ان قلعة « مورو » المبنية فوق مدخل المرفإِ محصنة باثني عشر مدفعاً يسمى كل منها باسم احد الرسل الاثني عشر

ومررت في تجوالي ببعض احياء ضرب فيها الفقر اطنابهُ فـلا تتوهم اذاً ان كوبا مقصورة على القصور ومنازل الاغنياء فاني رايت سلسلة طويلة من الاكواخ الحقيرة بعضها مبني بالخشب وبعضها بالمدر يسكن فيها العبيد مع مواشيهم ودجاجهم ويربون معها اولادهم الذين يكسونهم عادةً ثياباً في اقصى درجة من البساطة وكثيراً ما تقتصد امهاتهم فيها اقتصـاداً مفرطاً. وهكذا احوال حياة الدنيـا تجد فيها القصور الرائعة قائمة بجانب الخرب والاطلال والكسى الفاخرة بجانب الحقيرة

ومع كل هذه المحاسن ترى هواء مدينة هافانا غير ملائم وكثيراً ما تنتشر فيهـا الاوبئة. غير ان الصحة العمومية فيها قد تحسنت بعض التحسن مذ جُلبت اليها ميـاه العيون من مسافة شاسعة على حد ما جرى لبيروت التي تهيبها الوباء دائماً من سنة ١٨٧٥ اي مذ جلبت اليهـا مياه نهر الكلب

اما مرفاها فان روائحه المنتنة تفوق جداً نتانة مرفإِ مرسيلية القديمة لانهم يطرحون فيـهِ جميع اوساخ المدينة. ومن ثم لما القت بنا الباخرة مرساتها عند وصولنـا سدّ جميع الركاب أنوفهم تحاشياً من الروائح الكريهة التي كانت تتصاعد من الاقذار

وتقدر تجارة هافانا بما يزيد على مئتي مليون والبواخر الكبـيرة التي تدخل وتخرج منهـا بنحو الفين ومئتي باخرة. وفي داخلية المدينة ايضاً حركة كبيرة فان فيها نحو ستة

آلاف عربة لا تنقطع عن الجولان بالركاب وثلاثة خطوط حديدية كبيرة تنقل البضائع الى جميع الجزيرة وتأتي منها بالمحصولات الزراعية

وضواحي العاصمة بهيجة للغاية وفيها كثير من القرى والمدن الصغيرة التي تشتمل على بيوت عديدة لقضاء فصل الصيف. وقصارى القول ان هاڤانا مدينة مستحسنة ما خلا زمن الحرّ واهلها قريبون من القلوب ومؤانسون للغريب. اما المتسلسلون فيهم من الجالية الاوربية القديمة فيسمونهم « كريول » وهو اسم عام عند الفرنج يطلقونهُ على البيض المولودين في المستعمرات وهم بوجه الاجمال اهل تراخٍ وخفة واعجاب ولكنهم جميلو الخلقة سُبط الاجسام اذكياء الافئدة . ومع كونهم من اصل اسباني لا يميلون الى الاسبانيين الذين يذهبون اليهم مجدداً ومن اجل هذا كانوا كثيراً ما يثورون عليهم . اما الان فقد خمدت نار الاحقاد بين الفريقين. ومع ما في هؤلاء « الكريول » من الخفة والطيش تراهم قد عدلوا عن افكارهم القديمة بخصوص استقلالهم لانهم رأوا ما تتنعم بهِ جزيرتهم من السعادة والطمأنينة في ظل حكومة اسبانية وقابلوه بما صارت اليهِ سائر الجمهوريات الاميركية الجنوبية التي كانت قبلاً جاليات اسبانية من الانحطاط والاحتلال

غير ان الحكومة لا تزال متحذرة منهم ولا تقبل منهم في الجيش الا عدداً قليلاً مع انهُ توجد كتيبة من العبيد ورأيت منهم قياماً حسناً بواجباتهم ولعل هؤلاء الكريول لا يرغبون التقيد في الجندية نظراً لما هو معروف من توانيهم واسترخائهم

اما الاسبانيون فهم اشد باساً من الكريول والشماليون منهم على الخصوص يتفرغون للتجارة. اما الجلالقة فهم شديدو الصبر على التعب حتى انهم ليقربون من الصينيين الذين يمتازون عنهم بقناعتهم العجيبة. وعليهِ فليكن السوريون الراغبون في المجيء الى هنا على حذر وانا لا اشير على احد منهم بالمهاجرة فقرشٌ يكتسبه الرجل في وطنه خير من ثلاثة يكتسبها في الغربة. ومع ذلك فان من صمم النية على اقتحام المشاق حتى صار لا يثنيه شيء عن المهاجرة فاظن ان الاوفق لهُ ان يقصد كوبا ولا اشير عليهِ اصلاً ان يسافر الى اميركا الشمالية حيث يلاقي السوريون كثيراً من المصاعب والمشاكل فاذاً ان كان

ممكناً له ان يعيش كالصينيين استطاع ان يستفيد بعض الاستفادة والا فليأتِ برأس مال كافٍ فان الانسان ينجح بالدراهم اينما حلّ وخاصة في اميركة

هذا ولما كنت قد اكتفيت من روٴية العاصمة واستوفيت لك الشرح عنها عزمت ان اتجول في داخل الجزيرة لاني طالما سمعت ان داخليتها هي مجتمع الغرائب فسافرت من ثم في الاسبوعين اللذين بقيا لي الى اخص مدنها لكي اقف على حالتها التجارية لاني اخذت الآن ان اعبر عن افكاري في اللغة الاسبانية وهي في الحقيقة ليست ببعيدة المنال ولاسيما على من يعرف الفرنسية والانكليزية فضلًا عن اني وجدت في جميع المدن التجارية تجارًا اميركيين كما سبقت الاشارة قد اتخذوا لهم اجمل المراكز

ولما كانت البواخر تسافر مساء كل يوم عند الساعة العاشرة الى «متانزاس» المدينة الثانية في الجزيرة وهي على شرقي هافانا ركبت احداها في جملة الركاب وما جاءت الساعة الثالثة صباحاً حتى وقفت بنا امام متانزاس المذكورة ومعنى اسمها «مذبحة» واسمها الكامل هو «سن كرلوس ا لكانار متانزاس» جريًا على عادة الكوبيين الذين يحبون التسميات الفخيمة كما تقدم القول

ومرفأ هذه المدينة يشبه مرفأ هافانا ويشتمل نظيره على خليج متسع قد حصن مدخله بقلعة لكن المرفأ قد اصبح الان مردوماً بما تجرّه الانهار اليهِ من التراب والحجارة ولهذا لا تستطيع المراكب ان تدخل اليهِ فتلقي مراسيها في العباب. اما سكان هذه المدينة فكانوا سنة ١٨٦٠ خمسة وعشرين الف نفس فبلغوا اليوم ٩٠ الفاً . واخص تجاراتهم السكر ودبسه وهو اهم محصولات الجزيرة ولهذا يقال في الامثال عندهم ان قصب السكر ملك البلاد وربع ما ينفق من السكر في العالم كله يأتي من كوبا ومتوسط قيمته ٢٥٠ مليون فرنك هذا ما عدا دبس السكر والعرق الممزوج بالسكر المحرق المعروف «بروم» وهناك من المعامل ما يخرج خمسة ملايين كيلو من السكر في السنة

ولما كنت قد تشوقت لزيارة احدها ركبت ذات صباح السكة الحديدية وكانت ذات عجلات متقنة يتولى ادارة بخارها عبد ضخم الجثة طويل القامة واذ كانت العجلات

مكشوفة الجوانب الاربعة امكنني ان اتنعم برؤية مناظر الطبيعة وتشتت عني سحابات الدخان المتصاعدة من افواه رفقائي وكلهم من كبار المدخنين . اما الجوّ فكان صافياً والحرارة معتدلة والهواء شفافاً وبعض قطع الغيوم سابحة في الفضاء الرائق والشمس ساطعة باشعتها فوق خمائل غطى نباتها وجه تلك البلاد

فمرّ بنا القطار في قفار ذات انبتة شائكة تشبه اشجارها الند واثمار كاثمار الصنوبر واذ ذاك استفهمت جاري الذي كان قد شرع في تدخين السيغار الثامن عن اسم ذلك النبات فاجابني انهُ هو « الاناناس »وعاد الى التدخين

وما مضي قليل من الزمن حتى تغير منظر البلاد ولم نعد نرى امامنا الا سهولاً فسيحة يضيع فيها البصر كلها مزروعة من قصب السكر. وكان يبين لنا كلما قطعنا مسافة بعض بيوت كبيرة في تلك السهول ذات مداخن عالية تقذف بالدخان الاسود فسألت عنها فقيل لي انها معامل السكر

وكنت اينما تطلعت في تلك السهول ارى فعلة يقطعون القصب وينضدونهُ اكداساً يضعونهـا فوق عجلات تجرها البقر واينما التفت يقع بصري على جماعات من العملة بين بيض وسود وصينيين كلهم دائبون في الشغل وعليهم وكلاء يستهمونهم ولا يتركون لهم دقيقة من الراحة. وبعد قليل خرجت من القطار وسرت الى احد المعامل لازوره

اما اصحاب هذه المعامل فانهم يسكنون العاصمة او المدن الكبيرة ويولون ادارة معاملهم جماعة من المهندسين يتخذونهم في الغالب من الاميركيين. وهولاء المهندسون يخرجون من الولايات المتحدة في ايام الخريف وبعد ان يتفقدوا آلات المعامل يستمرون على الدأب في الشغل من اربعة الى خمسة اشهر حتى اذا انقضت عادوا الى اوطانهم ونقدوا مرتباتهم الجزيلة

وكان رفيقي الاميركي الذي سافرت معه الى هافانا قد اعطاني رسالة وصاة لاحد هولاء المهندسين فاستقبلني بغاية المودة والمؤانسة واراني الارض التي ولي عليها وافهمني كل ما سألتهُ عنهُ وقد سرَّ بي جدًّا لانهُ وجد بي مؤنساً في وحشتهِ ومفرجاً في غمتـه

وكان قد تصرَّم عليهِ شهران في وحدة كاملة لا يرى من حوله الا فعلة مختلفي الالوان ولاسيا العبيد السود والصينيين. وبعد ان اتخذت لديه بعض الراحة دعاني لمشاركته في غذاء احضرته لهُ أمة سوداء بينما ان أمة اخرى كانت تشتغل بطرد الذباب الكثير

ولما كانت العزلة قد جعلت من المهندس المذكور محبًا لمكاشفتي بسرائره وبواطنه لم نلبث ان صرنا صديقين متخالصين . وقد قال لي ان امرّ اوقات الحياة لديه هو مدة الاربعة الاشهر التي يتقيد فيها بادارة معمل السكر لانهُ لا يقدر ان يغيب عن الخدمة حتى ولو نصف يوم لان الشغل مستمر وكثيرًا ما لا ينقطع في الليل ولهذا لا تطفأ مواقد البخار اصلًا واغلب الفعلة لا يتيسر لهم طول مدة العمل ان يرقدوا اكثر من اربع ساعات ولا تعطى لهم فرصة لتناول الطعام اكثر من ساعة ونصف ومتى جاء الليل يشتغلون في الحقول على انوار الكواكب تعجيلًا لجمع الغلة برمتها قبل مداهمة الشتاء

وقد اثبت لي المهندس المذكور انهُ مسرور جدًا من الفعلة الذين هم بادارته ولاسيا من الصينيين الذين مع كونهم ضعاف الاجسام وهيئات بعضهم اشبه بهيئات المحتضرين يشتغلون ازيد من العبيد الاشداء اما من حيث النفقة فانهم لا يكادون يبذلون ما يسد الرمق ويحفظ الحياة كما ذكرت لك في رسالتي الاولى ولكنهم بعد ان تنقضي سنو خدمتهم يعودون الى اوطانهم واكياسهم مملوءة. وقد فهمت ايضًا من صديقي المهندس ان الحكومة متى كثرت الاعمال تأذن للجنود ان يذهبوا لمعامل السكر ويشتغلوا فيها وبهذا ينتفع الملاكون ويربح هؤلاء ايضًا فضلًا عن انهُ منذ أُلغي الاسترقاق ازداد بسرعة عظيمة عدد المشتغلين من البيض في معامل السكر

وبمزيد الاسف انفصلت اخيرًا عن صديقي الحبيب الذي بالغ في التلطف بضيافتي وجال معي مدة ساعات في الارض التي ولي عليها موضحًا لي كل ما كنت استفهمتهُ. ولما ان عدت الى متانزاس صممت ان ارجع الى هافانا برًّا لا بحرًا فركبت القطار وكان يقف بنا كل مسافة يسيرة لكي ينقل احمالًا من قصب السكر او من دبسه وغير ذلك من الاثمار المختلفة . وكنت اينما التفت ارى زمرًا من العبيد تبدو عليهم علامات

السرور مما قُسم لهم . ثم مررنا امام معامل للسكر قائمة بوسط حقول في غاية الاتساع مزروعة من قصب السكر وما لبثنا ان افضينا الى ارض غامرة نبتت فيها اشجار من النارجيل والنخل والقهوة البرية. ولما ان انتصف النهار اخذت المناظر تتبدل وتتغير امام عيوننا فصرنا لا نرى الا قليلاً من حقول القصب السكري الى ان غابت عن ابصارنا تماماً وصرنا نشاهد الطرق ملأى بالبغال والخيل المحملة قفافاً من الاثمار

وبعد قليل تجلت لنا قلعة « البرنس » وحصن « اتورس » ثم البيوت من ورائها سواري السفن وكنا اذ ذاك قد وصلنا الى هاڤانا فحمدت الله على رجوعي اليها بالسلامة ومع اني لم اغب عنها الا ٣ ايام حسبت تلك المدة كانها ٣ اشهر لاني رأيت دنيا جديدة اي دنيا السكر . وفراراً من ان اجلب عليك السآمة والضجر اختم رسالتي هذه وبعد مدة ابعث اليك برسالة اخرى من « سنتياغو » وهي آخر مدينة ازورها في شرقي الجزيرة ومنها اسافر الى جمايكة في ارجح الظن

وكنت اتمنى لولوعي بالتدخين ان يسمح لي الوقت بان اشاهد مدينة « پينار دلريو » على مسافة من هاڤانا فقد قيل انها تخرج اطيب التبغ في العالم كله حتى ان السيكار الواحد منهُ يباع بخمسة فرنكات . وكنت اشتهي ايضاً ان اشاهد قلب الجزيرة و« مرفأ البرنس » اي الامير وهو اسم مدينة تدعى هكذا مع كونها مبنية في السهل على مسافة من البحر. ثم مرفأ « ناڤيتاس » البالغ اتساعه ١٤٨ كيلومترًا مربعاً. غير انني ساجتهد في اتخاذ التعليمات والافادات الصادقة عن كل ما لا استطيع ان اشاهده بعيني

الرسالة الثالثة

برحت هافانا من اربعة ايام منتقلاً الى الجهة الشرقية من الجزيرة ولما كنت غير قادر ان ازور جميع الاماكن المشهورة في هذه البلاد لم اشأ ان تفوتني مشاهدة «سنتياغو» ثالثة مدنها في الاهمية لاسيما وانها كانت في طريقي ومنها استطيع الشخوص الى جزيرة «جمايكة» او الى جزيرة «هايتي» حسب ملاءمة الظروف ووفقاً لما يمرّ بخاطري .

وعليهِ ركبتُ مساء يوم احدى البواخر الاسبانية العائدة الى اوربة بعد ان ارست في مياه سنتياغو والتفت من ظهر السفينة الى هافانا فرأيت منظرها عند دلوك الشمس ابهج واجمل منهُ في وقت البزوغ الذي وصفت لك محاسنهُ في رسالة سابقة ثم تطلعت الى الغرب فاذا كوكب النهار قد القى عليهِ صبغ الاحمرار وما لبثت ان تشنفت اذناي باصوات الكوسات والابواق عندما مرَّت بنا المنشأة امام حصني «پونتا وموررو» ولما ان غاصت الشمس في الماء أُنزل العلم الاسباني الخافق فوق الاسوار وأُتبع بطلقة مدفع زمجرت زمجرة مستطيلة امدّها ارتجاس الامواج واخذت جيوش القتام تكرّ رويداً والسفين يسير بنا سيراً حثيثاً في ليلة رق اديمها وراق نسيمها وسطعت نجومها غير اني لما كنت غير ذي المام بعلم الهيئة فبدلاً من ان اسهر لارعى حركات الكواكب عمدت الى سريري فرقدت

وعندما طلع علينا صبح الغد مررنا امام جزيرة تلقب بجزيرة الصنوبر وقد لمحت على روابيها كثيراً من المصايف الجميلة يقصدها الموسرون في ايام الحرّ من كوبا والولايات المتحدة ويقيمون بها مدة القيظ ترويحاً للابدان وانما يرغبون فيها لانهُ لا يوبأ فيها مرض ولا توخم علة بسبب الرياح التي تهب عليها دائماً وتستأصل منها كل العفونات ثم مررنا بين عدد لا يحصى من الجزر الصغيرة تلقب بالجنينات وهي في الحقيقة

جنائن متكوّنة من صخور تبرز من الامواج الزرقاء وتتكالل بباقات من اشجار مزهرة تضوع بالعرف الزكي وتحوم حولها اسراب من الطير في تغريد وتسبيح. ولروعة هذا المشهد صعد جميع الركاب الى ظهر السفينة ليكحلوا عيونهم برؤية محاسنهِ

وكان على السفينة ان تذهب بنا رأساً الى سنتياغو ولكن لان ربانها قبلَ قسماً من البضائع برسم « ثيانفويغوس » (١) اضطررنا للمرور بهذه المدينة فتذمر بعض الركاب الذين كانوا في اضطرار الى بلوغ وجهاتهم اما انا ففرحت لان ذلك يسر لي مشاهدة مكان معجب يستحق الوقوف عنده . ونحو الساعة العاشرة صباحاً القت بنا الباخرة مرساتها في مياه المدينة المذكورة فرأيت لها مرفأ اجمل واعظم من مرفإ هافانا تبلغ مساحتهُ ٦٥ كيلومترًا مربعاً وسألت الربان فاوضح لي ان في الجزيرة من المرافئ ما هو اوسع منهُ الا انهُ احسنها واوفرها ملاءمة لرسو البواخر ولهذا كانت تجارة هذا الثغر سائرة بقدم النجاح والازدياد يوماً بعد يوم فتبارك الله الذي خص جزيرة كوبا الجميلة بالمحاسن الكثيرة والمنافع الجزيلة. فبينما ان سائر الامم يبذلون المبالغ الطائلة والنفقات الوافرة لانشاء المواني والسدود ترى هنا عند كل خطوة مواني كثيرة منشأة بيد الطبيعة واي مواني. فعلى مسافة يسيرة من هذه البلدة مدينة تدعى « ترينيداد » اي الثالوث ليس لها اقل من اربعة مرافئ كل منها لا يقلّ عن مرفا هافانا جمالاً واتساعاً

ولما اقلعت بنا السفينة من ثيانفويغوس مخرت في العباب بدلاً من ان تساير الساحل فعجبت لذلك وكنت اود ان تسلك قريباً من البرّ لانعم العين برؤية المناظر الجميلة ولكني عرفت اخيرًا من احد الضباط ان جميع سواحل الجزيرة ممتلئة من الصخور والجلامد المستترة تحت المياه ومسير السفن بجذائها خطر جدًّا حتى ان الالف والثلاثمائة جزيرة الناتئة حول كوبا ما هي الا صخور متسعة منها ما يزداد كبرًا مع الايام ومنها تنبع فيهِ عيون ماء حلو حتى اصبح مستوفياً جميع الشرائط التي تمكن الانسان ان يعمره

(١) Cienfuegos

وصباح اليوم الثاني انتهينا الى سنتياغو قاعدة الجهة الشرقية وهي اوفرها عمرانًا وتجارة ومعنى سنتياغو في الاسبانية القديس يعقوب وحيث ان هذا القديس هو شفيع الاسبانيين اطلقوا اسمه عند دخولهم الى اميركة على كثير من الاماكن فلاجل التفرقة بينها وبين سائر المدن التي تسمى بهذا الاسم تدعى « سنتياغو كوبا » (١) واهاليها يقتصرون على تسميتها بكوبا فقط . وهي واقعة في قصا احد المرافئ الطبيعية التي مرّ ذكرها غير متصلة بالبحر الا بواسطة قناة ضيقة وطويلة عرضها نحو ٢٠٠ متر تتسع شيئًا بعد شيء حتى تنبسط الى حوض كبير يسع جميع بواخر كوبا معًا

وللمدينة حصون وقلاع منها عند مدخل القناة ومنها ابعد من ذلك وهي واقعة في طرف القناة ومبنية في صبب الجبل بهيئة مستديرة على ان منازلها الواطية الملوّنة بالاصباغ المختلفة ومنتزهاتها الجميلة وجنائنها الغناء والجبال الكثيرة المحدقة بها قد جعلتها من ابهج واسنى المدن في هذه البلاد العجيبة . لكنها لما كانت واقعة في غور من الارض قلما يتلاعب فيها الهواء فكان حرّها شديد الوطأة وهواؤها قليل الملاءمة للصحة ولذلك لم تكن لها بين مدائن الجزيرة الا المنزلة الثالثة . ومما يغض منها ايضًا هو انفصالها عن سائر الجزيرة بسلسلة من الجبال الشامخة وحرمانها من السكك الحديدية الطويلة المسافة فيا ليت شعري كم كانت تتغير تجارتها لو انها كانت متصلة بسكة حديدية مع سائر المدن الكبيرة كهافانا ومتانراس ومينا الامير

ومع هذا فان فيها شيئًا ليس في هافانا اريد به وجود ممثل لدولتنا العلية بلقب وكيل قنصل ومن ثم حالما وصلتها بادرت الى زيارته وفي نيتي عند عودتي من اميركة الى الوطن العزيز ان امرّ بالاستانة فان اسعدني البخت وتشرّفت بمقابلة احد وزراء الدولة العلية عرضت على مسامعه ان الرعايا العثمانيين قد تكاثروا في جزيرة كوبا وتوافر عددهم فصارت اقامة قنصل عثماني في هافانا للمحاماة عن صوالحهم في غاية الضرورة

وقد تعجبت لدى تجوّلي في شوارع سنتياغو من وجود عدة اسماء فرنسية على

(١) بالاسبانية Santiago de Cuba

امارات المخازن واذ لم ارَ الا عدداً قليلاً جداً من الفرنسيين في هاڤانا رغبت في ان اعلم سرّ ذلك وهو ان العبيد في هايتي ثاروا في اواخر القرن الماضي على مواليهم الفرنسيين وقتلوا منهم جمًّا اما الذين فازوا بالنجاة من ايديهم فقدموا سنتياغو اقرب المدن الى هايتي ووطنوا بها . غير ان هؤلاء المتسلسلين عن اولئك الفرنسيين الاقدمين لم يبق لهم من اجدادهم الاّ الاسم لا غير لانهم في باقي خصالهم قد صاروا كالاسبانيين

اما سكان سنتياغو فعددهم ٧٢ الفاً وبجوار مدينتهم مناجم من النحاس والحديد لا يقل العملة في بعضها يومياً عن الف ومئتي عامل .

واذ كنت قد اطلت الاقامة هنا عزمت هذا النهار ان اسافر الى جزيرة « جمايكة » لاني اذا تأخرت وجب عليّ ان انتظر اسبوعاً كاملاً الى ان تعود الباخرة التي تسافر مرة الى الجزيرة المذكورة في كل ثمانية ايام . غير اني قبل ذلك اقص عليك كل ما وصلت معرفتي اليهِ مدة اقامتي ٥ اسابيع عن حالة الجزيرة وتجارتها اجمالاً فاقول :

لا مراء ان كوبا فائزة باوفى نصيب من السعادة فانهُ مع ما حدث فيها من الفتوق وتفاقم الاضطراب في سالف الحين وبالرغم عما يظهر فيها من العلل الوبيلة والاوبئة الوخيمة يتوافر سكانها ويتكاثر عامروها بسرعة حتى اربوا الان ستة اضعاف على ما كانوا عليهِ في اواخر القرن الماضي وبلغوا مليونًا وستمائة الف نسمة وبمقتضى الاحصاء سيتضاعف عددهم هذا بعد مرور ٥٠ سنة . وقد زاد اقبال الناس عليها تنشيط الحكومة للمهاجرة واعطاؤها الاراضي الواسعة لكل من شاء فلاحةً وزراعةً ومع ذلك لم تزل ثلثة ارباعها بوراً غير مستخدمة لا للزراعة ولا لتربية الانعام . نعم ان اكثر هذه الاراضي ليس الا سباخاً ومستنقعات متكوّنة عما تجرفه الانهار التي لا تجد سبيلاً الى الانصباب في البحر غير ان اكثر الجهات قليلة السكان وشاهد ذلك ان قلب الجزيرة لا يبلغ متوسط السكان في كل كيلومتر منهُ الا اثنين فقط وهو عدد يسير جداً واستمرّ ذلك مدة من الزمن حتى عاد على الملاكين بالمنافع الجزيلة والمكاسب

حتى ان اوفر الاماكن عمرانًا مثل نواحي هافانا لا يزيد معدل السكان عن ٥١ في الكيلومتر المربع (١)

وقد اعلمتك في رسالتي الماضية ان اخص المزروعات في الجزيرة انما هو قصب السكر والان اخبرك ان حياتها تتوقف على هذا الصنف فاذا امحل ساق شرَّ الويلات على الاهالي ولهذا تراهم اليوم في قلق ما عليهِ مزيد لحصول داء في القصب اشبه بداء الفيلوكسيرا في الكرمة فعسى ان يتوفقوا لازالته قبل ان يتفاقم

وبعد قصب السكر في الاهمية يأتي التبغ الذي كشفهُ رفقاء كولمبوس لاول مرة في الجزيرة المذكورة فانهم عندما وصلوا اليها وتوغلوا في داخليتها رأوا السكان الاصليين يشعلون اوراقًا يابسة ملفوفة ويشربون دخانها فيخرج من افواههم وانوفهم وما كانت هذه الاوراق سوى اوراق التبغ الذي انتشر من كوبا في العالم كله. على ان هذا الصنف ليس لهُ في جميع اجزاء الدنيا من طيب الطعم مثلُ ما لهُ هنا نعم ان كثيرًا من البلدان تربي محاصيلها التبغية على محاصيل كوبا ولكنها جميعها ابعد من ان تعادله بالكيفية. وقد أريت في هافانا فريقًا غير قليل من السكان يشتغلون في تهيئة التبغ ولف السيكار

وبعد قصب السكر والتبغ تأتي القهوة وكانت من ستين سنة اهم حاصلات البلاد فكان للحقول منظر مختلف جدًّا عن منظرها الحاضر لانهُ لما كان نمو القهوة متوقفًا على الظل كان الاهالي يكثرون من غرس الاشجار التي كانوا يختارون منها المثمرة او ذات الخشب الثمين وتحت افياء تلك الاشجار كانت تنمي القهوة وهي غرس دائم الاخضرار والازهار يعطي غلته مرتين في السنة فمتى حان وقتها كانوا يفتحون المعابر المتسعة لمرور العربات فيجمعون الحب ويجنون سائر الاثمار ولم يكونوا ليفتقروا الى التجار ولا الى آلات متقنة بل كان يكفيهم ان يعرفوا الزراعة والفلاحة وفوق ذلك كانت حقول البن شبيهة بالجنائن الفسيحة تطيب فيها الاقامة ويحلو السكن ولهذا كان الملاكون يؤثرون المقام فيها ويتولون بنفوسهم تدبير اراضيهم

(١) راجع الجداول في آخر هذه الرسالة

الوفيرة ولكن ما لبثت البرازيل وجزائر الانتيل التي هي اكثر اتجاهاً الى الجنوب ان شددت عليهم المزاحمة بهذا السبيل لكون اراضيها اوفر موافقة لزراعة البن . ثم جاءهم الاعصار في سنتي ١٨٤٣ و١٨٤٥ واجتعف عددًا وافرًا من بُنهم فعدلوا عن زراعته واقبلوا على زراعة قصب السكر غير ان القصب لما كان الظل لا يوافقهُ اقتضى الامر ان يقتلعوا الاشجار الباسقة ويستأصلوا الحدائق الرائقة ويعملوا السكة في كل مكان حتى تعرَّت البلاد واصبحت وليس في اراضيها الا قصب السكر ومن ثم شيدت المعامل في الحقول لاجل صنع السكر وآل ذلك الى قبح مناظرها. ولما كان الملاكون يفتقرون لادارة تلك المعامل الى مهندسين وميكانيكيين تراهم يقيمون في هافانا ويسلمون اعمالهم الى قوم اغراب

وما عدا السكر والتبغ والبن تخرج الجزيرة ايضاً كمية من اللوز الهندي الذي تصنع منهُ الشوكولاتا وشيئاً من القطن والبرتقال وغيره من الاثمار. اما الاقوات فليس فيها شيء منها فتضطرّ الى استجلاب الارز والقمح والطحين واللحم وسائر ضروريات المعيشة من البلاد الاجنبية

ولم ارَ في كوبا الا قليلًا من الاغنام ولها وَبَر بدلاً من الصوف واجسامها شاحبة ضئيلة. وقد ادهشني ما رأيتهُ في جوار سنتياغو حيث لا يقتصرون على استخدام الثيران لنقل الاحمال كالدواب ولكنهم يتخذونها ايضاً للركوب . اما الحمير فيها فنادرة بخلاف الخيل فانها كثيرة صغيرة الجثة وكانت قديمًا اوفر جدًّا وبعضها بريًّا يألف القفار في النواحي الخالية من الجزيرة . ولذلك قلما كان يسافر احد ماشياً. وقد حاول سكان كوبا ان يُدخلوا اليها نوعاً من جمل جزائر «كناري» (١) ولكنه لم يستطع المعيشة نظرًا

(١) وهي عند العرب الجزائر الخالدات او جزائر السعادة قال ياقوت :

« كانت عامرة في اقصى المغرب في البحر المحيط . قال ابو الريحان البيروني : جزائر السعادة وهي الجزائر الخالدات هي ست جزائر واغلة في البحر المحيط قريباً من مئتي

الى حشرة صغيرة تنفذ تحت جلده وتؤلمه وقد تقدم لي الكلام عنها

وقصارى القول ان الزراعة في هذه الجزيرة مهملة كل الاهمال لان الاهالي لا يشتغلون الا بقصب السكر والتبغ وعلى ذلك لا ترى فيها من الصناعات الا صناعتين اي عمل السكر ولف السيكارات. ومن ثم كان الكوبيون مضطرين ان يستجلبوا من البلاد الاجنبية كثيرًا من الاشياء. وللولايات المتحدة المقام الاول في التجارة مع هذه الناحية لان قيمة ما تصدره منها وتورده اليها سنويًا لا تقل عن ٣٢٠ مليون فرنك وبعد الولايات المتحدة تأتي اسبانية ثم انكلترة وبعدهما فرنسة ولكن بمنزلة زهيدة جدًا لانهُ من ١٠٧٠ باخرة دخلت مرفأ هافانا في السنة الماضية لم يوجد الا ٢٩باخرة فرنسية

والسكك الحديدية هي خصوصًا في الجهة الغربيـة وطولها جميعًا ١٥٢٩ كيلومترًا اعني ٣ اضعاف الخط الحديدي من دمشق الى بيره جك مع زيادة قليلة . والاسلاك التلغرافية كثيرة هذا فضلًا عن الاسلاك الممدودة في البحر التي تصل الجزيرة مع سائر الدنيا

والمعارف سائرة في سبيل التقدم والنجاح والحكومة الاسبانية تجبر الصغار على ملازمة المدارس من سن السادسة الى التاسعة غير اني لا استحسن التعليم الالزامي لانهُ يغض من حرّية الوالدين وأرى ان احسن الاشيـاء في بلاد هو توفير عدد المدارس وتنصيب المعلمين المقتدرين لكي يتسهل لكل احد ان يتعلم بسهولة مع ترك الحرّية المطلقة للاباء . ومع ذلك يظهر لي ان هذا النظام المرعي في كوبا هو جيد لان الولد

فرسخ وهي ببلاد المغرب يبتدئ بعض المنجمين في طول البلدان منها . قال ابو عبيد البكري بازاء طنجة الجزائر المسماة فرطناتش (fortunatus) اي السعيدة سميت بذلك لان شَعْراءها وغيضاها كلها اصناف الفواكه الطيبة العجيبة من غير غراسة ولا عمارة وان ارضها تحمل الزرع مكان العشب واصنـاف الرياحين العطرة بدل الشوك وهي بغربي بلاد البربر مفترقة متقاربة في البحر المذكور»

لا يستطيع في سن التاسعة · اقل عمل ينفع بهِ والديه وعليهِ يحسن بهِ ان يلازم المدرسة بدلاً من ان يطوف بالازقة والشوارع

واذ كنت حتى الان لم اخبرك شيئاً عن هيئة الحكومة في هاته الجزيرة اقول: يتولى هذه الجزيرة باسم الدولة الاسبانية والٍ عام يقيم في هاڤانا ويدير شؤون العساكر البرّية والبحرية. ويحق للجزيرة ان تختار ستة عشر عضواً لمجلس الملا في مجريط (١) عاصمة اسبانية يختارهم كل ساكن يؤدي في السنة ١٢٥ فرنكاً فما فوق للحكومة من ضرائب املاكه على شرط ان يكون خرج من ربقة الاسترقاق اقله من عهد عشر سنوات. ولكوبا في مجلس النواب نائب عن كل اربعين الفاً. وعسكرها مؤلف من ١٩ الفاً في زمن السلم ولها أسيطيل مخصوص بها. ولا حاجة الى اعلامك بان سكانها جميعاً كاثوليك اقحاء فقد كفى معرفتك انهم من اصل اسباني وليس فيها من شيعة البروتستان الا قوم قلائل من الاغراب الاميركيين وبعض الانكليز الذين هم قليلون جداً. اما الصينيون المقيمون هنا فاصل ديانتهم الوثنية غير انهم في الحقيقة ليسوا على ديانة معروفة وهم من قبيح الآداب والخلاعة والفحش بمكان مكين

وانهي لك هذه الرسالة اقتضاباً لاني في ثلاث ساعات أبحر على باخرة انكليزية صغيرة تسافر من كوبا الى جمايكة. وقبل ذلك لا مندوحة لي الا ان استدعي طبيباً ليعالج خرّاجاً في رجلي. وانا مخبرك كيف أصبت بهذا الخرّاج وماذا كان السبب لهُ:

اسلفت لك الخبر عن الحشرة التي تنفذ في الرجل تحت الجلد ويسمونها هنا « شيش » او « شيك » لفظة اسبانية (٢) معناها الصغير وهي كثيرة الوجود في جميع اميركة الجنوبية وفي افريقية الشرقية ايضاً وجثتها اصغر من جثة البرغوث في بلادنا ولكنْ

---

(١) هذا هو اسم هذه المدينة الشهيرة عند العرب اما لفظ مدريد فلا وجود لهُ عند جغرافيي العرب كالادريسيّ وشمس الدين الدمشقي

(٢) اي chico

لها خرطوماً اطول واقوى وانشاها اشد ايذاء تدخل عادةً تحت جلد العقب وتحت اظافر الرجل وتبيض هناك فيتضخم مكانها بقدر الحمصة الصغيرة وتلحق العبيد خاصة وتحدث لهم اكثر الاحيان اعراضاً ثقيلة كالقروح والغنغرينا التي تنتشر بسهولة ان لم تحصل المبادرة الى استخراج الحشرة ومداواة الدمامل المتسببة عن لسعاتها السامة. ولست اعلم كيف اتصلت اليَّ هذه الحشرة لاني تحاشيت جهد الاستطاعة ان امشي حافياً بعد ان نبهني الى ذلك صاحب الفندق الذي نزلت عنده في هافانا . ومن حيث اني بادرت الى اخراجها سريعاً ارجو ان لا يترتب عليها شيء يذكر وقد علمت انهُ اذا ترك البيض ينقف تحت الجلد كان ذلك خطرًا عظيماً. والحشرة المذكورة تأتي من البرازيل حيث تعد بالملايين



نذكر هنا عدة جداول تتمة للافادات الجغرافية والتقويمية المتعلقة بجزيرة كوبا

اخصّ مدن كوبا وعدد سكانها في سنة ١٨٧٧

	القاطعة الغربية		
هاڤانا		١٩٨٬٧٣٥	ساكن
رغلا	(من ارباض هاڤانا)	١١٬٢٨٠	〃
متانزاس		٨٧٬٧٦٠	〃
پينار دلريو	(Pinar del Rio)	٢١٬٧٧٠	〃
كولون		٢٠٬٤٠٠	〃
كردناس		١٧٬٥٥٠	〃
	القاطعة المتوسطة		
مينا الامير	(Puerto Principe)	٤٦٬٦٤٠	〃
ثيانفويغوس		٦٥٬٠٧٠	〃
سكتي سپيرتو	(Sancti-Spiritu)	٣٢٬٦٠٠	〃
ترينيداد		٢٧٬٧٨٠	〃
سانتا كلارة		٢٢٬٧٨٠	〃
ريميديوس		١٣٬٩٤٠	〃
ساغوا العظمى	(Sagua-la-Grande)	١٣٬٦٠٠	〃
	القاطعة الشرقية		
سنتياغو		٧١٬٣٠٠	〃

هولغين	٣٤ع٧٦٠	ساكن
متزانيلو	٢٣ع٢٠٠	〃
غوانتنامو	١٧ع٢٠٠	〃
براكوا	١٢ع٤٨٠	〃

وكان عدد سكان جزيرة كوبا

في سنة ١٧٧٤	١٧١ع٦٢٠	〃
〃 〃 ١٨١١	٦٠٠ع٠٠٠	〃
〃 〃 ١٨٤١	١ع٠٠٧ع٠٠٠	〃
〃 〃 ١٨٦٢	١ع٣٥٩ع٢٣٨	〃
〃 〃 ١٨٧٧	١ع٤٠٥ع٢٦٨	〃
〃 〃 ١٨٩٠	١ع٦٠٠ع٠٠٠	〃

الولايات	المساحة بحسب الكيلومتر المربع	السكان اجمالاً	السكان في كل كيلومتر مربع
پينار دلريو	١٤ع٩٦٧	١٨٢ع٢٠٤	١٢
هاڤانا	٨ع٦١٠	٤٣٥ع٨٩٦	٥١
متانزاس	٨ع٤٨٦	٢٨٣ع١٢١	٣٣
سانتاكلارة	٢٣ع٠٧٣	٣٢١ع٣٩٧	١٤
مينا الامير	٣٢ع٣٤١	٦٩ع٢٤٥	٢
سنتياغو	٣٥ع١١٩	٢٢٩ع٨٢١	٧

جزيرة جمايكة

الرسالة الرابعة

في جزيرة جمايكة

بلغت جمايكة من اسبوع وتسنى لي ان ارى فيها كل ما يستحق الرؤية وكنت قد ابحرت من سنتياغو الساعة الرابعة مساء فما انبثق صبح الغد حتى ظهر لنا الساحل الشمالي من جمايكة. ولما كانت الباخرة التي تقلنا صغيرة اخذت تساير الشطوط آمنة لعدم وجود الصخور المستورة تحت المياه كما في جزيرة كوبا وكان الهواء وقتئذٍ شفافاً للغاية فكنا نشاهد الجزيرة والاماكن الآهلة والوهاد وغير ذلك. وفي اول نظرة لا تقع الباصرة الا على جبال وقُنن حتى يتوهم الرائي انهُ لا وجود لغيرها في هذه الجزيرة. وقد رأيت بعد ذلك ان الجزيرة هي في الحقيقة اكثر جبالاً من كوبا وجبالها ضاربة الى الزرقة ولهذا سميت سلسلتها الكبرى « بالجبال الزرقاء » (١) وهي وعرة جدًّا وفي الغالب تكون ذات انوف اي حروف والبلاد تظهر للعين خضراء حسنة الزراعة وبهذا الوجه تفضل كوبا.

وقد مررنا من غير ان نقف امام « مرفا القديسة حنة » و« مرفأ ماريًّا » بل وقفنا قليلًا امام مدينة « بور انطونيو » حيث شحنت الباخرة كثيرًا من الاثمار ولاسيما الموز ناقلةً اياها الى الممالك المتحدة فاغتنمتُ الفرصة وقتئذٍ وابتعت بعض صناديق من شراب « روم جمايكة » المعتبر انهُ احسن اجناس هذا الشراب في العالم كله. وبعد مسيرة بعض ساعات وقفت الباخرة مرة ثانية امام « ڤيل مورانت » وشحنت كمية وافرة من البرتقال الكثيرة حاصلاته في هذا الثغر حتى ان العبيد المقيمين هناك قد اثروا من تجارته. ثم ان الباخرة اطلقت الاعنة للبخار لتستعيض عما فاتها من الوقت فتدرك « كنغستون » قاعدة جمايكة في الميعاد المضروب

(١) بالانكليزية Blue mountains

وبعد ان دارت حول لسان من الرمل طويل وضيق ولجت بنا اخيرًا خليجًا داخليًا واذا بهِ مرفأ كنغستون ولم ارَ لهذه المدينة منظرًا شائقًا كمنظر هافانا فان بيوتها واطية وشوارعها كثيرة الغبار وفي هذه السنة لم يقع فيها من المطر الا ما دون اليسير . ولحسن الحظ تشتمل على كثير من الجنائن الغناء . ومن يخرج للتنزه فيها لا يرى الا اشجارًا لان المنازل تسترها الاشجار والاسوار المحدقة بالبساتين وزد على هذا ان المارَّة في الشوارع قليلون بحيث ان حالتها اشبه بحالة العزلة والانفراد

ومع هذا فان كنغستون هي اليوم اول مرفا في الجزيرة اما في القديم فكان المرفا الاكبر المحل الذي يسمى « المينا الملكي » (١) وقد رأيته وهو واقع في طرف اللسان الرملي الذي يبتدئ منهُ مرفأ كنغستون ولكنه في سنة ١٦٩٣ حدث فيهِ زلزال ارضي لم يُبق في المدينة حجرًا قائمًا ومن شدة قوَّته قذف المراكب الراسية في المرفا الى ما بين المنازل وقذف معها المياه التي اغرقت كل شيء فلم يتوصل الى النجاة الا بعض من تعلقوا بحطام طافية فجمعوا وأُدخلوا الى بارجة كان الزلزال قد حملها الى ما بين الدور المتهدمة . وفي سنة ١٧٧٢ انهدم المينا الملكي مرَّة اخرى بسبب زوبعة ومن ذلك الحين لم يجدَّد بناؤه ولا يقيم فيهِ الا ارباب المناصب الملكيـة والعسكرية وقد بنيت فيهِ مؤخرًا بعض حصون الحماية مدخل المرفا . فقد رأَيت من هذا ان سكان جزائر الانتيل يشترون باغلى الاثمان نعيم السكنى في بلادهم الجميلة

وكنغستون مدينة تجارية مهمة في هذه النواحي ولذلك كانت مركزًا لاكثر البواخر في جزائر الانتيل وجميع تجارات الجزيرة تقريبًا تصدر وترد من مينائها وفيها من السكان ٤٠ الف نسمة ومنها تسافر ايضًا السكة الحديدية الى « شپانيش تون »

ولما كنت قد شاهدت هنا كل ما ابتغي مشاهدته سافرت الى شپانيش تون الواقعة على مسافة ١٣ ميلًا انكليزيًا من كنغستون فمرَّ بنا القطار اولاً في سهل مقفر

(١) Port Royal

مستنم محل لم ارَ فيهِ الا قليلاً من الاشجار على مسافات بعيدة ومع هذا فان الروابي في الجهة الشمالية مكتسية بالانبتة المعجبة والحدائق النضرة التي بعضهـا ملك للحكومة تزرع فيهِ انواعاً متنوعة من الاشجار وحالما تعلم ان في بلاد اجنبيـة شجرة او غرسة يمكن ان تنتفع بها لا تتأخر عن استجلابها وزرعها في حدائقها فان نجحت وزعت منهـا على سكان الجزيرة وبهذه الطريقة اتصل شجر الخبز الى جمايكة ومنها انتشر في سائر جزائر الانتيل

ولا يخفى ان هذه الخطة التي انتهجتها الحكومة هي جديرة بكل ثناء ويا حبذا لو تخطت الى بلادنا السورية لما يترتب عليها من انجاح الزراعة. وقد طالعت من مدة في الجرائد الاخيرة التي انتهت اليَّ من الوطن العزيز ان الباب العـالي عازم على ادخال زراعة البن الى الولايات التي يتحقق موافقة تربتهـا لذلك فادعو من صميم القلب لهذا المشروع ان يتتوَّج بالنجاح حباً بخير بلادي لانهُ يكون لها مصدر ثروة وغنى

ومدينة سپانيش تون هي اصغر جدًّا من كنغستون وادعى للسأم والغم ومن بضع سنوات كانت تلقب بقاعدة البلاد ولكن كنغستون انتزعتها هذا اللقب. وقد تجولت في شوارعها ساعة زمانية فلم ار الا امة سوداء جالسة ببابها وطفلاً اسود يلعب بالتراب. واسم هذه البلدة انكليزي (١) ومعناه « مدينة اسبانية » لانها في الحقيقة من بنـاء يعقوب ابن كريستوف كولومب الذي كشف الجزيرة سنة ١٤٩٤ . اما لفظة جمايكة فهي اسم قديم معناه في لغة القوم الاصليين الذين انقرضوا الان « جزيرة الميـاه » واستمرَّت في حوزة الاسبانيين ١٥٠ سنة من دون ان يفكروا في ترقيتها الى ان سلبهم اياها الانكليز وجعلوها من احسن مستعمراتهم في اميركة

على ان المدن اذا كانت متقطبة في هذه النواحي نرى الحقول بعكس ذلك ضاحكة. اما الهواء فكثير المشابهة لهواء كوبا الاَّ ان الحرارة هنا اشد والرطوبة اقلّ. وقد يتفق

---

(١) Spanish Town

في بعض السنين ان لا يقع مطر بالكلية في شپانيش تون ولكنها تستعيض عن ذلك بمياه النهر القريب منها. وفي الجبال الزرقاء التي مرَّ ذكرها يقع في بعض الاحيان متران ونصف من المطر اي ضعفا ما يقع في بيروت. وفي الجزيرة قسم مخصوص بزراعة قصب السكر وفي الجبال الزرقاء بعض اماكن تزرع بنًّا وبنها جيد ويباع في لندن باعلى الاسعار ولكن القسم الاكبر من الجزيرة لم يزل مغشًّى بالغابات الخُرَّد المشتملة على اخشاب ثمينة

ولا تجد فيها كما تجد في كوبا املاكًا فسيحة تختص برجل واحد فان لكل عبد تقريبًا ارضًا يزرعها ويستغلها لقاء اجرة معلومة او بدون اجرة. وقد زرت الاراضي المختصة بالعبيد فوجدت لها منظرًا فاتنًا ورأيت فيها اشجارًا من اللوز الهندي والبرتقال وشجر الخبز وغيرها من الانبتة الضاحكة المتأنقة وفيها خلا ذلك نوع يسمونهُ «يام» وهو للعبيد بمنزلة البطاطة عندنا وهم يأكلون اصولهُ غير ان جزءه الاعلى المتألف من سوق متسوّرة يعرّشونهُ اي يرفعونه على الخشب كالدوالي في بلادنا. ولا اجد حاجة لان اتكلم لك عن شجيرات القطن والخيزران لانها معروفة في الشرق ولاسيما عند المصريين غير انها هنا فائزة بالنصيب الاوفر ظرافة وكبرًا

وقد فاوضت بعضًا من العبيد اصحاب هذه البقع فرأيت بونًا عظيمًا بينهم وبين عبيد كوبا الذين لا يهتمون لشيء ولهذا تراهم دائمًا فرحين يحبون مكاشفة خلطائهم بدخائلهم وسرائرهم بحيث كانت اخلاقهم كاخلاق الكريول الاسبانيين مواليهم القدماء بخلاف عبيد جمايكة فانهم تخلقوا باخلاق الانكليز حكامهم ومن ثم كانوا من البرودة والتصلب واطالة النظر والخبرة في الامور بمكان مكين فكانهم ولدوا على ضفاف نهر التاميز وهم ايضًا اوفر محبة للعمل وحالتهم في الاجمال اسعد من حالة عبيد كوبا وكثيرون منهم اهل ثراء ومعارف. اما كلامهم في الانكليزية فغريب وقد وجدت في بادئ الامر صعوبة في فهمه لانهُ يشتمل على كثير من طرق التعبير المفقودة من انكليزية اوربة

وقد صدر الحكم باعتاق جميع عبيد جمايكة في غرة آب سنة ١٨٣٨ فأخذ

الفرح منهم في ذلك اليوم مأخذًا عجيبًا حتى كاد يذهب بعقولهم وعلقوا يركضون مرحًا في كل جهة مصوّتين ومصعدين كانهم ارادوا بذلك ان يتأكدوا احرازهم حق تبديل امكنتهم على حسب مشيئاتهم ولكي لا يبقوا لهم أثرًا يذكرهم بحالتهم الاولى غيروا جميع اسمائهم وكثيرون منهم غيروا مذهبهم الديني ولما كان مواليهم الاقدمون انكليكانيين تحوّلوا جميعًا بالتقريب الى شيعة البابتيست اي المعمّدين ونفروا من فلاحة الاراضي وزراعتها وتعلق السواد الاعظم منهم بمهنة صيد الاسماك والنساء اتخذن الخياطة ولكنهم ما لبثوا ان شعروا بوطأة الجوع فاضطروا الى طلب الاستخدام في زراعة الحقول باجور زهيدة ولما كان كثير من البيض ذوي الاملاك الواسعة قد افلسوا وعادوا الى انكلترة اخذ العبيد يتملكون املاكًا صغيرة فما مضى عليهم ثماني سنين من تحريرهم حتى احرزوا من الاملاك الخاصة بهم مساحة ٤٠ الف هكتار وبنوا مئتي قرية

وكان الملاكون الكبار قبل ذلك لا يهتمون الا بتجارة الصادرات فلم يكونوا يزرعون الا قصب السكر والبنّ اما العبيد فاهتموا اولاً بما يفتقرون اليهِ ووجهوا عنايتهم الى الاثمار والفاكهة فاكثروا منها واخذوا يبيعون ما فاض عنهم ولهم عناية ايضًا بزراعة البن والتبغ والزنجبيل وقد شرعوا كذلك في غرس شجر الشاي فاسفرت لهم النتيجة عن نجاحه. واذ كانوا قد تشجعوا بما لاقوا من التوفيق زرعوا قصب السكر لمنفعتهم الخاصة وحيث لم يكن لديهم من الدراهم ما يمكنهم من اشتراء الطواحين التجارية صنعوا طواحين من خشب وتشارك بعضهم لمشترى آلات كبيرة وقصارى الكلام ان رغد العيش شامل جميعهم

غير انهم وان كانوا بوجه الاجمال يحبون العمل ويدأبون بهِ لدى اشتغالهم لنفوسهم الا ان السواد الاعظم منهم ينفرون كل النفرة من الاشتغال عند البيض ولو باجور جيدة واذا اشتغلوا فلا يشتغلون الا وقتًا يسيرًا في اول النهار. واذا تفقدهم صاحب العمل نحو الساعة العاشرة صباحًا وجدهم اكثر الاوقات ممتدين في ظلال الاقطان وان عرض عليهم شلينًا آخر ليشتغلوا في حقل قصب السكر اجابهُ العبد بالنفي قائلًا: اني

تعبان ولا حاجة لي الى الدراهم فان زادهم قائلًا احتاج الى نقل القصب الى الطاحون قالوا لا يمكننا فقد عملنا وتعبنا بالكفاية

والحق يُقال ان الارض هنا على غاية من الجودة حتى ان العبيد يتخذون منها من غير ان يتكبدوا تقريباً مشقة العمل البطاطة والبرتقال واثمار شجر الخبز وغيرها من الفاكهة وفوق كل ذلك متى جاء يوم الاحد يلبسون صدرة بيضاء وقميصاً مكويًا ويعدون ذلك اكبر النعيم عندهم ومع كونهم لا يعملون في نهارهم الا قليلًا لا يرضون بذلك فيتخذون المدة بعد المدة اسابيع برمتها ينقطعون فيها عن الاشغال ويتفرّغون للراحة

غير ان هولاء العبيد ان لم يكونوا كلهم اصحاب دأب في العمل مع ذلك ليسوا خطفة سرّاقين فان الخدم الذين كلهم منهم لا يختلسون شيئاً ولذلك يمكن ان تترك بين ايديهم الدراهم والمفاتيح وكل نفيس من غير ان يتعرّضوا لهُ بخلاف اثمار الجنائن فانهم لا يمسكون نفوسهم عنها قطعاً كانهم يعتبرونها شائعة بين كل الناس

ولهولاء العبيد ولع بالتبرّج والزينة واذكر اني كنت في بعض ايام الآحاد بضواحي سپانيش تون بمعية احد الملاكين الاغنياء الذي تلطف بدعوتي واذ ذاك مرّت بنا شابة سوداء عائدة من الهيكل البروتستاني وكانت مترديةً بثياب بيضاء من الراس الى القدم ولابسة في يديها قفازين وحاملة شمسية جميلة مفتوحة وعلى برطلتها المصنوعة من القش تخاريم بيضاء وكانت تمشي بتثاقل وعظمة ومن ورائها تابعة حاملة على رأسها كتاب صلواتها لان السوداوات هنا يحملن كل شيء على الراس من جرّة الماء المشتملة على خمسين لترًا حتى قنينة الصيدلي. ولما دنونا منها التفتت وكأنها عرفت رفيقي فحيتهُ ولكن بسيماء العظمة لانها كانت على بينة من حسن زينتها . اما تابعتها فسلمت علينا بغاية التوقير فعجبت من ذلك وقلت لرفيقي من هذه السيدة المعتبرة فقال لي: ان كلتا هاتين شقيقتان تشتغلان في طاحون لي. وفي الاحد الآتي تنقلب الهيئة وتتبدل الادوار لان الثانية تحمل الشمسية وتتبرّج بالزينة والاولى تمشي خلفها حاملة على رأسها كتاب الصلوات

ولعلك تلومني بالاغراق والمبالغة في الخبر ولكني اضمن لك صحته. ومن حيث اني بدأت باخبارك عن العبيد لا اجد بدًّا من انبائك بما علمته من حالتهم فاعلم ان اكثرية السكان هنا منهم بحيث لا ترى البيض الا في المدن وقد كان البيض قبلًا اوفر عددًا ولكنهم بعد تحرير العبيد نقصوا نحو الربع وزاد عدد العبيد نحو الضعف بحيث صارت نسبة البيض اليهم نسبة واحد الى اربعين

اما اخص الاسباب لتناقص البيض فلم ينتج عن الهواء وان كان بالاجمال قليل الملاءمة للانكليز ولكن عن انقلاب الاحوال وتغير الامور على البيض الذين كانوا من قبل مستأثرين بالاملاك ومستبدين باليسار والثراء ثم عن المهاجرة بما ان اكثر بنات الانكليز يذهبن الى انكلترة لاجل التعلم والتهذيب فيقمن فيها ولا يعدن . ومن اسباب ذلك ايضًا الحمى الصفراء التي يكثر فتكها هنا وتوبأ خاصة في الاماكن الواطية لكنها لا تتجاوز الجبال التي بعلو ٧٥٠ مترًا. اما داء السل الذي يكثر المصابون بهِ في بلاد الانكليز فيبرأ هنا بسهولة في الجبال ولذلك يُرسل المرضى بهِ الى «نيوكاستل» اي القصر الجديد البالغ علوه ١١٦٠ مترًا ويقيم بهِ الجيش

واحق السلالات بالمعرفة بعد سلالة العبيد هنا وفي جميع جزائر الانتيل هي سلالة الخلاسيين وقد خالطتُ كثيرًا منهم منذ تجولي في اميركة فرأيت انهم لا يستوجبون هنا كل هذه النفرة من جانب البيض لان الاميركيين من اهل الولايات المتحدة لا يرضون ابدًا ان يجالسوا خلاسيًا كما انهم في المدارس المخصوصة بالبيض يرفضون رفضًا قطعيًا كل من سرى في عروقه قليل من دم العبيد وما هذه الا اوهام باطلة لا تزول الا بتمادي الزمان

على ان الاميركي الذي يظن انهُ بلغ قمة التقدم والحضارة لا يزال في بعض الامور بغاية التقهقر والتأخر. على ان النفور من الخلاسيين في جمايكة هو اقل شدة ولكنه لم يزل راسخًا في العقول لان البيض لا يفتأون يعدون نفوسهم ارفع منهم جدًّا. وعلاوة على ذلك شاء البيض ام كرهوا لا بد لهم من مراعاة الخلاسيين البالغين ١٢٢ الفًا والعبيد

البالغين ٤٨٩ الفاً لكونهم عدداً يسيراً لا يتجاوز ١٥ الفاً .

وقد تأكدت ان للخلاسي صفات حسنة . نعم انهُ اقل صبراً على التعب وحرّ الشمس من العبد لكنه يستطيع ان يلازم العمل من اول النهار الى آخره مما ليس في وسع الابيض . وزد على ذلك ان الخلاسي ليس بعرضة كالابيض للحمى الصفراء ولا يتطلب الاحتياطات الكثيرة لتعوّد هواء البلدان وقد اكد لي احد المتلكين في جمايكة ان الخلاسي احط درجة من الابيض من حيث الذكاء والفهم ولكني تحققت ان الامر هو على خلاف ما اثبت لي. اجل انهُ لم يخرج منهم حتى الان رجال اولو علم واختراعات مثل اديسون وپستور غير ان ذلك فيما اظن ليس ناجماً الا عن ابقائهم حتى الان مبعدين عن موارد المعارف ومناهل التهذيب

ورأيت في كنغستون بعضاً من الخلاسيين منهم من يتولون المناصب في الحكومة ومنهم من يتعاطون المحاماة عن الدعاوي او يحترفون الطب وجميعهم على جانب عظيم من الفهم والذكاء وعلاوة على ذلك هم اهل حركة ونشاط في الاعمال لان كثيرين منهم يديرون مخازن كبيرة ويحصلون منها ثروة وافرة ولسوف يأتي زمن تتوفر لهم فيه الغلبة لا بتوفر العدد فقط بل بفضل الغنى ايضاً لان الاموال هي الضامنة في كل مكان للنفوذ وبسطة الجاه

والصينيون في هذه الجهة هم قليلون لا يتجاوزون بعض مئات واما الفعلة الذين قدموا من الهند الانكليزية فيربون عليهم زيادةً يسيرة ولكنه من سنة ١٨٨٦ حُظر دخول هذه الناحية على الصينيين والهنود معاً . ومن حيث ان عدد البيض آخذ في القلة سنة بعد اخرى لا بدّ ان يأتي حين من الزمان يصبح فيه السود وحدهم في الجزيرة مع الخلاسيين . ولقد ادرك البيض هذا الامر ومع ذلك يدعون بانهم يحكمون على حسب اهوائهم في الشعب الذي كان مستعبداً لهم من قبل وعلى ذلك فان السود لم يظفروا حتى الان بالاستقلال السياسي والمساواة الاجتماعية بالمعنى الذي تقتضيه الحكمة

ولقد اخبرتك اني لم أطل الاقامة في سپانيش تون لاني بعد ان تفقدت ضواحيها

وأرباضها ركبت سكة الحديد الى شمالي الجزيرة وحيث ان الخطوط لا يبلغ طولها اكثر من ١٠٥ كيلومترات ولا تسمح للمتجول برؤية كل ما يشتهي طفت ركوباً على الخيل في الجبال فرأيت فيها غابات كثيفة ذات أنبتة ظريفة ولكنه يأوي اليها حيات صفراء تطول حتى تبلغ مترين وتحسب من اوفر اصناف الحيات سمًّا. فعلى كل من يتخذ من اخواني البيروتيين جرعات من «رَوم» جمايكة ان يذكر ان صنع هذا الشراب ذهب بحياة اثنين او ثلثة من العبيد

ولعلك تقول أليس من وسيلة للتخلص من هذه الحيات المخيفة . ولكني اسألك رفقاً فان الاهالي هنا في حاجة الى الحيات المذكورة لكونها تتلف الجرذان وتبعد شرّها واذاها عن الاغراس واعلم ان كل حقل من قصب السكر لا يتوفر نموه وتتكاثر غلته الا اذا اجتمعت فيه الحيات بالمئات وكل حقل خلا منها يصير مسرحاً للفيران التي تمتص سوقه حتى لا تدع فيها قطرة من العصير

ثم ان الاهالي لما رأوا توافر الحيات الى حد زائد وانها صارت تلدغ الفارسين اخذوا يربون نوعاً من الضفادع السامة على امل انهُ يقتل صغار الحيات ولكن هذه الواسطة لم تعد عليهم بفائدة لان الحيات بقيت تعيش على حالها وزاد فوق ذلك عدد الضفادع السامة ولما اعيتهم الحيلة ورأوا ان الجرذان تنمي وتتكاثر بالرغم عن الحيات وهذه بالرغم عن الضفادع السامة خطر لهم ان يربوا نوعاً من الحيوانات الجارحة فأتوا بالنمس الذي يبلغ جسامة الهرّ فتكاثر هذا النوع جدًّا وهو لا يقتصر على اهلاك الجرذان ولكنه يتلف الطيور خاصة ويهجم على الاقنان فيفترس الدجاج ويلتهم البيض. وبعد ان كان الزراعون يظنون فيه حليفاً لهم على الآفات رأوا منهُ الدّ عدو لهم وبهذه الطريقة اجتمع في جمايكة اربع آفات كل واحدة منها انحس من الاخرى اعني الحيات والجرذان والنموس والضفادع السامة

وفي هذا دليل على ان حكمة البشر منحصرة ضمن حدود معلومة وان الوسائل التي تستخدمها لتقليل اعدائها قد تؤول الى زيادة عددهم . والآن قد اتصل بي ان اهالي

اوسترالية قلقون كل القلق لتكاثر الارانب عندهم التي أُدخلت الى بلادهم من نحو قرن ولم يبق لهم من سبيل لزرع شيء لان الارانب المذكورة تحتفر الحفر في كل موضع وتتلف كل ما يزرعون وقد استخدموا الكلاب والسموم لابادتها ولكنهم لم ينالوا بغيتهم لانهم كلما قتلوا ارنباً نبت عشرون مكانه. ولو ان الاوستراليين اقتدوا باهالي جمايكة لادخلوا الثعالب الى بلادهم ولكن لا يطول الزمان حتى يندموا على ادخالها كما ندم الجمايكيون

وقد سمعت مرة انهم نووا ان يلقحوا الارانب بجراثيم الكلب آملين انهُ لا يطول الزمان عليها حتى يتسرَّب الداء من بعضها الى بعض وتفنى جميعاً ولكن هذه الوسيلة خطرة جدًّا لان المرض قد يمكن ان يسري الى الناس والبهائم فتكون هناك الطامة الكبرى وعليهِ كان على الانسان ان لا يتطلب زيادة الحكمة وان يتجلد بعض الاحيان على ما لا يروقه

وقد اراني السكان هنا حيواناً غريباً اعني السرطان البرّي وهو يعيش في الجبال ومتى جاء وقت القاء البيض يخرج من صخوره الوفاً وربوات وينزل الى سواحل البحر جيشاً عرمرماً تتقدمهُ الذكور بمنزلة الطلائع فمتى انتهى الى الشاطي تُقبل الاناث على القاء بيضها في الرمل حتى اذا نقف اخذت السراطين الصغيرة التي لا تقع تحت عدّ في العودة الى الجبال ومع ما تأكل منها الزحافات والطيور والنمال تصل الى صخورها عددًا كثيرًا

هذا وبعد مراجعة رسالتي فطنت اني اخبرتك عن شجر الخبز (١) وسهوت عن ان اصفهُ لك فاغتنمت الان هذه الفرصة لاوقفك على امره: هو شجر ارتفاعهُ من عشرة الى اثني عشر مترًا وقطر جذعهِ يبلغ من ثلاثة الى اربعة دسيمترات وينتهي بقمة غليظة متكونة من اغصان منبسطة. واوراقه كبيرة جدًّا حتى ان طولها بعض الاحيان يبلغ مترًا

---

(١) ويسمى في كتب النباتيين Artocarpus incisa

في عرض ٥ دسيمترات. وفي جزائر اوقيانية الواقعة بين منطقتي الاعتدال تتوقف معيشة السكان كلها بالتقريب عليهِ لان اثماره لا تنقطع مدة ثمانية اشهر متوالية وفي الاربعة الاشهر الباقية اعني ايلول وتشرين الاول والثاني وكانون الاول يزول حملهُ ويستعيض الاهالي عنهُ بنوع من اللب المطبوخ يتخذونهُ من الثمر المذكور. وزد على ذلك ان هذا الصنف يكثر حملهُ جدًّا حتى ان ثلاث شجرات منهُ تأتي من الاثمار بما يكفي لمؤنة شخص سنة كاملة

ثم ان ثمر شجر الخبز يؤكل كالخبز مشويًا في الافران على النار والاكثر انهُ يؤكل مسلوقًا كالبطاطا وقبل ان يتم نضجهُ يكون كالدقيق المعجون واذ ذاك يُتخذ للاكل غالبًا ولكنهُ عندما يدرك النضج التام يكون فيهِ لب ذو طعم حلو لذيذ. على انهُ قلما يوجد من الاشجار ما يعادل شجر الخبز فائدة لان اثماره ليست فقط القوت الاساسي بل الوحيد في اكثر الاحيان للاهالي ولكنهم يحيكون ايضًا من الياف قشوره ثيابًا لهم ويستخدمون خشبهُ لبناء اكواخهم ويستعملون اوراقهُ غلفًا لاقواتهم

ولما كان كلامنا الآن في غرائب جمايكة لم اجد بدًّا ان اقص عليك الخبر الآتي وهو ان احد الزراعين دعاني مرة لزيارة غابة كثيفة ملتفة الاشجار فذهبنا معًا ولحق بنا أحد العبيد حاملًا بارودتين لنا ولما ان مررنا بصفين من الفطر بارتفاع متر ورؤوس باتساع مترين زلت قدم العبد فوقع على ساق اكبر فطرة هناك فانفعرت واحدث انفعارها دويًّا كدوي طلق البارود وقذف في الجوّ غبارًا كثيرًا انعقد كسحابة. وحينئذٍ دوى الفضاء كله لهذا الصوت. اما نحن فاذ كان الدوي قد اصم آذاننا وعميت ابصارنا من الغبار الذي كان يتساقط على رؤوسنا كالامطار ويحملنا على العطس والسعال بادرنا الى الهرب واسرعنا الى التنحي

وبعد ان بعدنا قليلًا التفت اليَّ رفيقي واخذ يزيل بفوطتهِ ما كان قد وقع على وجهي من الغبار قائلًا لي نشكر الله على السلامة فلولا قليل لكنا تسممنا فسألتهُ اذ ذاك ان يميط النقاب عن سرّ هذا الحادث ودونك ما ذكر لي :

ان هذا القطر من فصيلة القنّع يصعق باقل لمس وقد خصته الطبيعة بهذا الامر لكي يبث بزوره على مسافة بعيدة. وقد كان الغبار الاحمر الذي قذفه علينا محتوياً على كمية من البزور بعدد ما فيه من الدقائق

وهذا الحادث قد فكهني اولاً ولكنه ما لبث ان احدث في يدي ووجهي كثيراً من البثور ثم اورثني بدء تسمم لم تكن لهُ من نتائج وخيمة والحمد لله. اما العبد فقد نالهُ ضرر اوفر مني ولم اعلم كيف حالت حاله

وكان بودي ان أُمعن في تجوّل البلاد غير ان الجبال وقفت امام عزمي حاجزاً حصيناً. غير ان الجهة الغربية من الجزيرة وهي الجهة الوحيدة التي لم اتمكن من تطوافها هي اقل الجهات عمراناً واهمية. ومن ثم اضطرني الامر ان اعود الى كنغستون وكان قد خطر لي ان اسافر الى ريوجانيرو ولكن بعضاً من المهاجرين الذين افلتوا بعد الجهد من هذه المدينة المنكودة اخبروني عن البرازيل اخباراً محزنة للغاية دفعتني ان اؤجل سفري اليها الى ما بعد سكون الاحوال. وقد تفاقم الاضطراب ايضاً في الجمهورية الفضية بحيث لم اتجرأ على اقتحام السفر اليها

وقصارى القول اني اصبحت حيران لا ادري ما اعمل ولا اتجرأ ان اتصفح جريدة لاني لا اجد فيها الا اخبار هيجان وثورات مختلفة تتلظى نيرانها تارة في هذه الجهة وتارة في اخرى من نواحي اميركة الجنوبية. والان انا ذاهب لاتفقد وكالات البواخر علّي اجد باخرة على اهبة السفر

وبعد كتابة هذه السطور عرفت ان احدى البواخر الاميركية مسافرة غداً الى المكسيك فعقدت النية ان أُبحر فيها الى تلك البلاد. وعليهِ تكون مدة اقامتي في جمايكة ٨ ايام. ونهار امس اتيت احدى المكاتب فاشتريت منها تقويم البلاد الذي تصدره الحكومة المحلية كل سنة فاستفدت منهُ اشياء جمة لا اجد بدّاً من تلخيصها لك تتمةً لما بدأت بإخبارك عنه فاقول:

كانت جمايكة حتى سنة ١٨٨٤ متعلقة تمام التعلق بالحكومة الانكليزية التي

كانت تنصب عليها جميع المتوظفين من دون استشارة الاهالي . ولكنه من نحو ٩ سنوات جرى تحوير هذه الطريقة السياسية فاصبح للجزيرة مجلس اداري يتألف من ١٦ عضوًا منهم تسعة ينتخبهم الاهالي ولكل مركز مهم مجلس بلدي ايضًا ينتخبه البيض والسود بالاشتراك

والسواد الاعظم من السكان هم على مذهب البروتستان وبعبارة اوضح ينتمي كل فريق منهم الى شيعة من الشيع العديدة التي يشملها اسم البروتستانية . غير ان هولاء العبيد البروتستان لا يزالون محافظين على كثير من الخرافات الافريقية وقد زرت احدى مقابرهم فرأيت كثيرًا من التعاويذ وقدورًا وقرعًا مملوءة ارزًا قد اغارت عليهِ جيوش النمل وصورًا للاصنام واخشابًا منقوشة وجلود بهائم وغير ذلك. ووجدت على قبر ولد توفي من ايام قليلة ابريقًا مملوءًا من اللبن فلما دنوتِ منهُ رأيت فيهِ كثيرًا من الحيات وقد بادرتُ الى الهرب وهي تصفر

اما الكاثوليك فعددهم ١٧٫٠٠٠ ثم ان اعظم شيء عجبني هو اني شاهدت في اكبر رحبة بمدينة كنغستون تمثالاً للاب يوسف دوپون اليسوعي الذي منشأه من بلاد ساقوية وكان الاب المذكور قد صرف معظم حياته في هذه الجزيرة متشاغلاً بالاعمال الخيرية . ومن نحو سنتين اقامت لهُ حكومة البلاد مع كونها بروتستانية تمثالاً يبلغ ارتفاعه ٤ امتار وفي حين تدشينه أُلقيت خطب عديدة ابلغها وافصحها كما رُوي لي خطبة نطق بها خادم الانكليكان. وقد سمعت في كل المحاضر ثناء على هذا الاب ومدحًا جزيلًا من جميع السكان فاستنتجت من ذلك انهُ كان مجملًا بمزايا فريدة واوصاف حسنة حتى ترك كل هذا التأثير في قلوب البروتستان

وجميع الاولاد هنا يترددون الى المدارس التي يبلغ عددها ٨٦٧ مدرسة ابتدائية وقد أُحصي طلبتها في العام الماضي فبلغوا ٧٥ الفًا . اما الجيش المتجند على نفقة الحكومة الانكليزية فيبلغ ١٫٢٠٠ يُضاف اليهم الف من رجال الشرطة. وللحاكم الحالي « سر هنري بلاك » مرتب ٦٫٠٠٠ ليرة استرلينية . وكان مجموع السكان في اواخر عام ٩٢

يزيد على ٦٤٠ الف نسمة وبلغ عدد المواليد ٢٥ الفاً والوفيات ١٤ الفاً سنوياً . ومن هذا يُستدل على ان عدد السكان يزداد بسرعة . والآن اودعك الله ولسوف ارسل لك رسالتي الثانية من برّ اميركة

تذييل = صباح هذا النهار لما دخلت احدى القهاوي فتحت جريدة بتاريخ ٣ ت ٢ فقرأت فيها ما نصهُ :

« تفيد اخبار هاقانا انهُ قد مات ٣٤ شخصاً من جراء حريق الباخرة المدعوة « سيتي اوف الكسندرية » اي مدينة الاسكندرية وقد احترقت بين متاتراس وهاقانا اثر انفجار برميل من الكحول ومن شدة ما حاق بركابها من الخوف التي اكثرهم بنفوسهم الى البحر لينجوا سباحة » وانما اعلمتك بالخبر لان هذه الباخرة هي التي سافرت عليها من هاقانا الى متاتراس

فقد حُكي عن قراقوش انهُ نشر قميصه فوقع من على الحبل فبلغهُ ذلك فتصدق بالف درهم وقال : لو كنت لابسه ووقع بي لانكسرت . وانا على هذا الحد لاني لو كنت أخرت سفري اسبوعين لكنت ركبت الباخرة المذكورة ومت مع من مات فيها

قسمة الاملاك في جمايكة سنة ١٨٨٤

املاك اقل من ٤٠ آر	١٠٬٥٣٦
〃 〃 〃 〃 〃 الى هكتارين	٢٨٬٣٠٢
〃 〃 〃 هكتارين 〃 ٨ هكتارات	١١٬٣٧٩
〃 〃 〃 ٨ هكتارات 〃 ٤٠ هكتار	٣٬٠٦٣
〃 〃 〃 ٤٠ هكتار 〃 ٢٠٠ 〃	١٬٥١٦
〃 تفوق ٢٠٠ 〃	٤٧٢
عدد الاملاك	٥٥٬٢٦٨
مساحة الارض المزروعة سنة ١٨٨٨ ٢٤٠٬٠٠٠	هكتار

اخص المدن مع عدد سكانها سنة ١٨٨١

كنغستون والمينا الملكي	٣٨ء٥٦٦
شپانيش تون	٥ء٦٩٠
پور مريّا	٦ء٧٤١
مونتيغو	٤ء٦٥١
فلموث (Falmouth)	٣ء٠٢٩

جمهورية المكسيك

الرسالة الخامسة

في

جمهورية المكسيك

سألتني في رسالتك الاخيرة عما اذا كانت ملاحظاتي بخصوص الامراض التي تصيب البيض هنا تنطبق ايضاً على السوريين فاجيبك ان ذلك لا ريب فيهِ. لانهُ اذا صدق القول بان السوريين اسرع تعوّدًا لهواء اميركا من الانكليز مثلًا لا يصدق ايضاً ان لهم مزيّة من هذا الوجه على الاسبانيين والايطاليين الذين يجيئون هم ايضاً من بلاد حارة . والحال ان الحمى الصفراء تصيب الاسبانيين فاذًا لا سبيل للقول بانها تتهيب السوريين او تحترمهم لاسيما وانهم يعيشون هنا معيشة شاقة للغاية ولا يقدرون ان يتخذوا الا قليلًا من التحوطات

واذ كنت الآن قد فرغت من الجواب على مسألتك اعود الى وصف تجوالي وتطوافي فاقول:

بعد ان خرجنا من ميناء كنغستون مخرت بنا السفينة سريعاً في عباب البحر ورأينا في طريقنا كثيرًا من البواخر بين ذاهبة وجائية وكانت البواخر التي من شركة باخرتنا تسلم عليها فتردّ هذه عليها السلام باشارات الاعلام المعهودة وكان ذلك التعلة الوحيدة التي صادفنا . اما بقية الوقت فكنا نصرفه في النوم او خصوصاً في الاكل والشرب اللذين هما اعظم شاغل في البواخر الانكليزية والاميركية اذ يُقدم الاكل خمس دفعات في النهار اي عند الساعة السابعة ثم العاشرة صباحاً وعند الساعة الحادية ثم السادسة ثم الثامنة والنصف مساء . والطعام على طريقة الانكليز مع شيء من طريقة الاسبانيين يقل فيهِ الخبز ويكثر البطاطا وليس من خمر ولكن الشاي مستمرّ يؤخذ منهُ على الاقل خمس مرّات يومياً ومن حسن الحظ ان الراكب يتمكن ان يستعفي من بعض هذه الاكلات لانهُ لا يقدر ان يزدرد كل تلك اللحوم ويبتلع تلك الكمية الوافرة من الشاي

اخيرًا قربنا من ساحل المكسيك ومررنا امام ولاية تدعى « يوكاتان » والساحل منخفض كثير الرمال وليس في منظر البلاد ما يشعر باتساع الثروة. ولما اخذت السفينة تسير بتباطوء مخافة ان تصطدم بالصخور الكثيرة هنـــاك اغتنمت هذه الفرصة لاسأل ربّان السفينة الافادة عن الاماكن المختلفة التي مررنا امامها

ثم ما لبثنا ان اجتزنا بجزائر صغيرة تغشيهـــا مادة ذات لون اشهب ضارب الى البياض وفي كل جهاتها كثير من الحفائر والخنادق وبقايا آلات وادوات واسلاك لسكك الحديد ويأويها اسراب كثيرة من الطيور البحرية . ولا شك ان كل عاقل يستنتج من رؤية هذه المشاهد ان يد الانسان قد اشتغلت في الجزائر المذكورة واذ ذاك كان ربان البـــاخرة يتمشى على ظهرها مسرعًا ويدخن فدلفت اليهِ وسألته عن هذه الجزائر ولما كان قد استفاد المؤانسة والملاطفة باسفاره الى البلدان الحارّة وان كان مولودًا في اميركا الشمالية تلقى سؤالي بالبشر قائلًا: « هذه هي جزائر « اريـنـــاس » واريناس كلمة اسبانية معنـــاها الرمل . ولهذه الجزائر تاريخ عجيب لا يعود بالشرف على اهل وطني. انك ترى هذه المادة البيضاء فاعلم انها هي التي تدعى « غوانو ». واذ افهمتهُ اني اجهل هذا اللفظ قال «ان الغوانو هو سلح طيور البحر اجتمع هنا من قرون وهو يستخدم لتزبيل التربة ويباع باثمان غالية. وفي سنة ١٨٥٤ اخذ المكسيكيون يستثمرون هذا الزبل لان الجزائر تخصهم بما انها واقعة في سواحل بلادهم. فلما علم بهم الاميركيون قدموا هذه الجزائر واقاموا بها مدعين انهم اصحابها ومن جراء ذلك حدثت بينهم مجـــادلات وخصومات سياسية وعقيب مدة طويلة غادرها الاميركيون ولم يتركوا فيها من الفوائد الاَّ شيئًا يسيرًا وهكذا هضموا حقوق غيرهم ظلمًا وعدوانًا.»

ولما ان فرغ الربان من كلامه بدت لنا مدينة صغيرة فسألته عنها فقال : انهـــا مدينة « سيسال » ومن عشرين سنة اذ كنت اتولى قيـــادة باخرة مكسيكية صغيرة تنقل التجارات ما بين « ڤيرا كروث » وهاڤانا كنت اقف في مينائها وسائر مواني يوكاتان . وكانت سيسال وقتئذٍ مرفا لمدينة « ماريدة » قاعدة الولاية وكنا ننقل منها

الاخشاب والجلود وخصوصاً نوعاً من القنب (١) لاجل صنع الامراس ثم البسط واشرعة المراكب وكانت اذ ذاك صغيرة جداً ثم ازدادت صغراً بعد ان صارت مدينة «پروغريسو» مرفأ لماريدة (٢). وكنت لاضطراري الى الوقوف فيها اياماً طويلة اذهب منها الى حد ماريدة . واعجب ما رأيت فيها حصون متخربة في ارباضها تشبه بعض الشبه أخربة المصريين ويوجد مثل هذه الاخربة في جميع انحاء الولاية المذكورة لاسيما في المواضع المشتملة على احواض مائية تحت الارض

« ومن هذا يستنتج ان السكان قبل قدوم الاسبانيين لم يكونوا برابرة متوحشين لان الآثار العظيمة التي تركوها تشهد انهم كانوا قد بلغوا من اتقان الهندسة مبلغاً عظيماً . وعلى جدران الاخربة كتابات كثيرة لم يهتدِ العلماء حتى الآن الى قراءتها وعليها كذلك نقوش ايضاً تنبئ بذوق صانعيها . وكانوا يستعملون من الملاط نوعاً شديد الصلابة حتى ان المطارق قلما تفعل فيه »

وبينما كان الربان يتكلم اجتمع حوله الركاب وكان جميعهم مصغين اليه اصغاء تاماً ولما قرأ على وجوه الجميع سطور الاستحسان اندفع يتكلم باوفر جرأة فقال: « اما ماريدة فاصبحت مدينة كبيرة في غاية الجمال وصارت مركزاً لعدة من الخطوط الحديدية . واقوى ما يدل على ثروتها وسعادتها هو ان جميع هذه الخطوط أنشئت بدراهم الاهلين الذين لم يستعينوا باموال الاجانب

« اما ارباضها فجدباء قاحلة ولكن كل قرية مكتنفة بصف من الاشجار الكبيرة

(١) ويقال لهذا النوع henequen

(٢) بلغ عدد المراكب التي دخلت مينا پروغريو في سنة ١٨٨٦ :

من المراكب التجارية	٣٩٢	محمولها	٥٥٢،٤٥٠	طن
« « الشراعية	٢٤٣	«	٣٠،٩٦٠	«
وجملة «	٦٣٥		٥٨٣،٤٢٠	«

وبيوت الفلاحين نظيفة جدًّا اما علة التحولة في ضواحي المدينة فهي ان ولاية يوكاتان ليس فيها انهار وما يقع من المطر تتشرّبهُ التربة حالاً فيقف في طبقات مختلفة العمق تتكون فيها بحيرات قد يبلغ عمقها مئة متر. وقد بقي من آثار الاقدمين مغاور كبيرة ينزل السكان فيها بسلالم لانتشال الماء من البحيرات ومن ثم كنت لا تجد قرية الاَّ حيثما يوجد حوض من المياه تحت الارض

«وقد قلت انهُ ليس من انهار في هذه الولاية على انهُ في طرفها الشمالي نهر او نهران يفيضان مرتين في السنة وعند فيضانهما تتغطى الارض بالمياه ولا يستطيع احد ان ينتقل من محل الى آخر الاَّ بالقوارب . ولهذا كانت هذه الناحية رطبة للغاية بحيث ان الملح يكون فيها دائمًا ذائبًا وموضوعًا ضمن القناني. ومما شرحت لكم عنها تستدلون على رداءة هوائها ولهذا فان حكومة المكسيك ترسل اليها من تريد معاقبتهم من الجند فلا يصلونها الاَّ ويشخصون الموت نصب عيونهم. وتكثر الاصابة بالحمى الصفراء والذرب في الناحية المذكورة لكن اشد امراضها فتكًا وانتشارًا انما هو السل الذي قلما ينجو احد منهُ ولو كان قوي البنية وقد كنت اظن قبلًا ان الهواء الناشف يوافق المصدورين ولكن في ولاية يوكاتان رايت خلاف ما ظننت لان هذا الداء لا يكاد يعرف في جهاتها الرطبة بخلاف الناشفة

« واعجب الحيوانات في هذه الناحية السلحفاة المعروفة بحقة السعوط لانها تخفي رأسها وذنبها في شبه حقة لها تقفلها إقفالاً محكمًا للغاية

« والهنود في ولاية يوكاتان يتميزون عما سواهم بقوتهم وشظف معيشتهم ولنسائهم آداب وحشمة مذهلة وقد كنت التقي ببعضهنَّ في البرية حاملات قُلل الماء وكلما سالتهنَّ الشرب ارواء لما بي من الظماء يخفضنَ ابصارهنَّ ويبتدرنَ انزال جرارهنَّ ويجبنَ مسألتي . اما الاسواق في جميع البلاد فهي عبارة عن اماكن تكثر فيها الجلبة وتتلظى الخصومات لاقل الاسباب ما عدا اسواق يوكاتان تسود فيها السكينة ويرتفع الخصام بين الباعة والمشترين وقد اقمت في احدها عدة ساعات ولم اسمع اقل جلبة . ثم

ان السكان في هذه النواحي اغلبهم من الهنود حتى ان كثيرًا من الاسبانيين في يوكاتان قد نسوا لغة اجدادهم

« ولكني في هذه السنة قصدت ماريدة خاصةً لاشهد احتفالات سبة الآلام التي كثيرًا ما كنت اسمع بانها تجري هناك على غاية من التجيل والانتظام فاثر فيَّ ما رأيتهُ في الشعب من معالنات التقوى وخشية الله تعالى. على اننا نحن البروتستان لم نتعود روءية مثل هذه الاحتفالات . وقد كان وصولي الى ماريدة يوم الاربعاء من السبة المقدسة وكانت جميع الكنائس وقتئذٍ متشاغلة بتهيئة لوازم الدورات التي تستمر من يوم خميس الاسرار الى يوم الجمعة الحزينة لحضرتها وقد اخذت من قلبي دورة يوم الجمعة مأخذًا كبيرًا فشاهدت جماعة من اشرف اسرات البلاد يمثلون سيدنا يسوع المسيح حاملًا صليبهُ بين اربعة من الجنود متبوعًا من والدتهِ العذراء

« وكان من مثلا سيدنا يسوع المسيح ومريم العذراء لابسين ثيابًا نفيسة جدًّا وخصوصًا من مثلات العذراء مريم فانهُ كان عليها من الحلي والجواهر شي كثير . وقد كان يمشي في الدورة المشار اليها عدد غفير من الشعب كلهم بملابس الحداد يصلون وينتحبون ويقرعون الصدور ولما جاء المساء استوءنفت الدورة في المدينة وكان لها منظر بديع للغاية لان كل منزل كان مزينًا من الخارج بالطنافس والسجوف الثمينة ومنارًا باضواء الشموع العديدة وكل واحد من الجمهور حامل مشعلًا . وكانت جميع الحوانيت تبيع المساخر من الورق المقوّى ممثلة يهوذا وفي يوم الفصح يعلق الاولاد تلك المساخر في وسط الشوارع ويملأونها بالبارود ويشعلونها ويفرحون ويسرّون لروءيتهم يهوذا يتشقق بقوة البارود قطعًا متفرقة. ولا اكتمك اني شاركت سكان ماريدة في البكاء يوم الجمعة كما اني شاركتهم في الضحك يوم الفصح عند روءيتي تطاير المساخر الممثلة يهوذا

« وقد رأيت بعضًا من البروتستان يهزأون من هذه المشاهد ولا ادري كيف يتيسر لهم ذلك. أجل ان جميع المسيحيين ليسوا متحمسين كتحمس المكسيكيين الا ان البروتستان شديدو التعصب لآرائهم بتعمدهم معاملة المرء كما لو كان روحًا محضًا مع

ان السيد المسيح والرسل ما كانوا ليصنعوا هكذا . . . . »

ولما انتهى الربان الى هذا الموضع من خبره قُرع الجرس ثلاثًا في مقدَّم الباخرة فقطع الكلام واستأذننا وانصرف الى عمله . وكنا قد اقتربنا من مدينة حسنة المنظر يظلل النخيل منازلها وتشرف عليها التلال المكسوَّة بالغابات فسألت عنها فقيل لي انها مدينة « كمپيش » ووقفت بنا الباخرة بعيدة عن البرّ كثيرًا ولم تجسر على الدنو لكون الميناء ليس بذي عمق كافٍ فضلًا عن انهُ متعرِّض كثيرًا الريح الشمالية التي تشتد في تلك البلاد الى حد يفوق الوصف . فمن اجل هذه الاسباب ومن مزاحمة ماريدة انحطت فيها منزلة التجارة ونقصت نقصانًا بالغًا

ومن حيث ان هذه المدينة قد اشتهرت بشجر البقم الذي لا ينبت الا في ضواحيها سمي الشجر المذكور عند الفرنسيين باسمها اي كمپيش (١) وهو شجر ذو خشب صلب يدرك طولهُ ١٣ مترًا في الاراضي التي تناسبه ويتكون عنهُ في اول امره ادغال كثيرة المشابهة للزعرور ولكنه كلما كبر تتشبك اغصانه على هيئة مستديرة وتتكاثف اوراقه تكاثفًا كليًا حتى لا يبقي سبيل لان ينبت نبات في ظلها . وقد سعى الانكليز ان يدخلوا زراعته في مستعمراتهم من جزائر الانتيل ولكنهم اخفقوا مع انهُ ينبت في جوار كمپيش في كل موضع مهما كان وعرًا . نعم ان في جمايكة نوعًا من الشجر المذكور ولكنه سافل غير ذي قيمة

وقد تأملت في خشب هذا الشجر عند ما كان بحارة الباخرة يشحنونهُ فرأيتهُ صلبًا متقارب الاجزاء ثقيلًا ومسمرًا الى الحمرة وكانوا يشحنونهُ قطعًا بمقدار اربعة الى ثمانية اقدام واخص ما يُرغب فيهِ قبوله الصقل والجلاء الحسن وتضوّعه بالرائحة الطيبة . ومتى أُغلي خرج منهُ صباغ أحمر والاطباء يستعملون مغلاه في جملة القوابض وقصارى القول ان هذا الخشب جزيل المنافع كثير الفوائد وأكد لي بعضهم ان فرنسة وحدها تستجلب منهُ سنويًا ٥٥ الف طن

(١) Bois de campèche

ولما كانت المدينة خالية مما يستحق الاعتبار (١) أجبت احد متوظفي الباخرة ورافقته الى صيد السمك فذهب بي الى صياد من معارفه بتلك المدينة فوصلنا اليهِ وكان قد هيأ سفنه للصيد في عباب البحر فابحرنا في السفن المعدة لذلك وهي تتميز بان نحوًا من ربعها يُبطن من داخل بالتوتيا ويُجعل حوضًا للاسماك . وابتغاء لحفظ الاسماك حية تفتح في قعر السفينة ثقوب كثيرة توصل اليها ماء البحر بدون ان ينتج عن ذلك خطر : ومن حيث ان مقطوعية الاسماك في هذه البلاد كثيرة والحرارة الشديدة تمنع وقايتها من الفساد طويلًا اخترعوا هذه الطريقة لاجل حفظها ونقلها الى مسافات بعيدة. ومتى وصلت السفن المذكورة الى المينا تنزل محمولها في احواض مصنوعة لهذه الغاية ومن تلك الاحواض يُباع السمك للمشترين

وبعد ان سارت بنا السفينة ساعة زمانية في ريح موافقة انتهينا الى مكان مكسو بالاعشاب البحرية فوقفنا عنده واخذنا في الصيد ولما كان البحارة خمسة فقط سلموا اليَّ خيطين لاصطاد بهما فتوفقت الى اصطياد ذيب بحري بطول متر و٢٥ سنتيمترًا وقد تحرَّك وهاج كل الهياج فاثنى عليَّ البحارة لما بذلت من القوة في رفعه الى ظهر السفينة ورأيت فاذا لهُ شفتان غليظتان متدليتان تنكشفان عن اسنان مجناء مخيفة يسيل من بينها لعاب دابق ولهُ رأس كريه للغاية . ولما كان هذا الصنف لا يباع بادر الجميع واماتوه بالمجاذيف واتخذوا من لحمهِ طعمًا لاصطياد سائر الاسماك

وبعد هنيهة وقفتُ على حافة الحوض وهو مغطى من اعلاه بلوح ثخين من الزجاج وجعلت اتامل في اجتماع اصناف الاسماك المتعادية بمكان واحد ورايت الانواع الصغيرة تسبح في اعلى الحوض بخلاف الكبيرة فانها كانت لا تلبث جائلة في القعر. اما الوانها فغريبة لان منها ما هو احمر قانٍ ومنها ما هو اصفر نحاسي برأس احمر وغيرها بلون

---

(١) دخل مينا كمپيش سنة ١٨٨٦ من المراكب ٧٩ بين بخارية وشراعية ومحمولها ٧٦٠٠٠ طن ومجمل تجارتها اقلّ من ٧٠٠٠٠ فرنك

الذهب والفضة. وكان اذا اتفق ان علت الى وجه المياه سمكة كبيرة تبددت الاسماك الصغيرة في كل صوب وجهة ثم اجتمعت في جهة أُخرى من الحوض. اما السراطين الضخمة فكانت تقيم في زوايا الحوض فاتحة كلاليبها ارهاباً لسائر عدواتها وحالما تموت احدى الاسماك لشدة تألمها من الشص لا تلبث ان تقطعها وتفترسها وهكذا تمنع المياه ان تنتن بتوافر الجثث. وفي اقل من ست ساعات بلغ السمك المصطاد اربع مائة سمكة من الانواع الجيدة يخلص عنها للتجارة ربح الفي فرنك تقريباً

واتمنى كثيرًا لو ان هذه الطريقة يشيع استعمالها في الشرق لكونها تمكن المراكب من قصد المسافات البعيدة في البحر وتسوّل لها جلب الاسماك الطرية. والحق يقال انها لطريقة تستحق ان يُعنى بها الشرقيون

هذا ولم تطل مدة صيدنا لان سرباً من كلاب البحر تسارعت الى الموضع ففرت من امامها الاسماك اما النوتية فودّوا ان ينتقموا منها قبل عودتهم وطرحوا في البحر سلسلة من الحديد ذات شص كبير من الفولاذ جعلوا فيهِ طعماً من شحم الخنزير ثم ما لبثت السلسلة ان اضطربت اضطراباً عنيفاً فبادر اربعة منهم وامسكوا بها وشدّوا بكل عزم وقوة فرفعوا صيدهم الى ظهر المركب وبعد قليل بان لنا راس كريه ولم يكن كلباً وانما كان حيوانًا آخر بطول سبعة امتار لهُ راس كمطرقة النجار ولهذا يسمى مطرقة وفي جانبيهِ المفرطحين بتربيع عينان مدورتان ذواتا لون اصفر متألق وفي مقدّمهِ هدب من جلد متجعد مسترخٍ. اما جسمهُ فمستطيل ولونهُ اشهب رمادي وينتهي بزعنفة معقوفة كالمنجل وكان يضطرب ويضرب جوانب المركب بذنبهِ كانهُ يريد ان يسحق باسنانهِ الشص الذي دخل في احشائهِ وكان يخرج من فيهِ دم غزير شديد الحمرة يسيل على صدرهِ الابيض

وهذا الحيوان من اشد الجوارح البحرية وقد تركهُ النوتية معلقاً في موءخر المركب طول النهار حتى فقد كل حراك ولم يعد يبدي دليل حياة. وبعدها اخذوا في نوع آخر من الصيد ومدوا خيوطاً علقوا بشصوصها طعماً من جلود الاسماك فنشب في تلك

الشصوص عشرون من السمك المعروف بالتن وهو صنف سُرَطة نَهم يبتدر الى ابتلاع كل ما يتحرك على وجه المياه

وما انتهى النوتية من صيدهم حتى ارخى الظلام سدوله وبانت لنا منارة كمبيش فابتدرنا العودة وفي اقل من نصف ساعة وقف بنا المركب بجانب باخرتنا فصعدنا اليها وبعد ساعة من الزمان رفعت اناجرها واستأنفت السفر

اما الرّبان فكان متكدرًا يتوقع هياج البحر فما طلع علينا صبح اليوم الثاني حتى تحقق ما كان يخشاه ونفخت ريح الشمال بشدة وكثيرًا ما تستولي في هذا البحر فتخلع لها قلوب البحارة . ولكن مركبنا كان لحسن الحظ متينًا وآلتهُ جيدة ومع كل ذلك كانت الريح تقلبهُ يمنةً ويسرةً وتحني جوانبه حتى تكاد تمس الماء . وفي تلك الحال عمدت الى فراشي فرقدت رقادًا مستطيلًا وما انتبهت الاَّ صباح اليوم التالي وكانت السفينة قد وقفت بنا في ميناء « ڤيرا كروث » وهي بلدة كبيرة منازلها بيضاء عليها قبب وابراج للاجراس ومع ذلك فان ظاهرها لا يروق العين لكونها واطية وواقعة في ساحل مرمل متجرد عن كل ما تتزين بهِ الارض من نبت وشجر . والان مشروع فيها ببناء رصيف طويل من الشاطئ ينتهي عند جزيرة صغيرة تبعد مسافة كيلومتر تجاه البلدة حيث بني الحصن الشهير المعروف بحصن « القديس يوحنا دُلوا » (١) وهو اليوم خراب

وقد استفهمت عن هوا ء ڤيرا كروث وموافقته للصحة فعرفت انهُ ردي للغاية لان الحمى تكثر في المدينة جدًّا وتفتك بالسكان فتكًا ذريعًا ولهذا تسمى مدينة الاموات (٢) ولكنهُ متى حل الشتاء تخف وطأتها بعض الخفة وتهب عليها الريح الشمالية فتطهر العفونات الخطرة واذ كنا الان في اوائل الشتاء عزمت ان ابقى فيها مدة لاستريح من اتعاب اليوم السالف . ومن ثم ركبت احد القوارب الى البر ولما كان صغيرًا وكنت قد سمعت ان

(١) San Juan d'Ulùa

(٢) بالاسبانية Ciudad de los Muertos

كلاب البحر كثيرة في الميناء التفت الى الملاّح قائلًا : لو انقلب بنا القارب هل اصل الى البر بجميع اعضائي اجاب : نعم سنيور اي يا سيد ان الكلاب البحرية تحب ميناءنا كثيرًا حتى يصح القول بانهُ موضع نزهتها وهي تاكل كل ما يقع في الماء ما عدا « لوس كرستيانوس » اي المسيحيين . وقد ظهر لي ان الملاّح كان يعتقد صحة ما يقول اما انا فما كنت لاظن ان تلك الكلاب تتهيبني اذا صرت بين انيابها . ولحسن الحظ وصلت الى البر آمناً وحالما نزلت اتخذت عربة ذهبت بي الى الفندق الكبير فرأيتهُ اشبه بقصر عظيم متسع المعاهد مرتفع الغرف مع نظافةٍ يحق ان تضرب بها الامثال

وعادة السكان هنا ان يرقدوا القيلولة في نصف النهار بسبب الحر . ولما كانت الساعة الرابعة مساء ركبت عربة وذهبت بها اولاً الى الرحبة العمومية وفيها صرحان كبيران وهما الكنيسة الكاتدرية ودار الحكومة ولكليتهما منظر يبهج الناظر وفي المدينة بوجه الاجمال ما يُشعر بيسار سكانها وتموّلهم فمنازلها رحيبة وانيقة ومصفقة تصفيقاً حسناً وبعضها مزين بتزيينات ثمينة . واما الشوارع فمتسعة وحسنة التبليط واكثرها مكتنف بالاروقة . وهو تحفظ مستلزم في الاماكن الحارة

اجل اني من جملة النازعين الى رحابة الشوارع واتساع الطرق لتمكن الهواء من ان يجول فيها بسهولة وتيسر المحافظة فيها على النظافة غير ان اجدادنا في جعلهم الطرق ضيقة ومسقوفة لم يكونوا يقصدون الاّ الرطوبة وهو مطلب مستحب في البلاد الحارة . اما نحن ابناءهم فبدلنا كل هذا وحولنا الشوارع الى ما يشبه المخانق وصار المارة متعرضين كل التعرض لضربة الشمس فلاجل اصلاح هذا ارى انهُ يلزم رفع الاروقة في الشوارع على ما هو جارٍ في ڤيراكروث او غرس الاشجار الكبيرة على جوانبها حتى تصير كشوارع مصر وهذا الوجه يكفل باستحصال منفعتين اي جولان الهواء والرطوبة

واعظم شيء يندهش لهُ الغريب في ڤيراكروث انهُ يرى اسرابًا من الطيور الكبيرة المسماة « ثوپيلوت » تتجول ما بين الناس غير ذعرة ولا خاشية باساً . وما هذه الطيور الاّ عقبان سوداء بقوائم كبيرة بلغ بها الدجون والاستئناس حتى صارت لا تتهيب الكلاب

والعربات فلا يطلع الصبح الا وتمتلئ منها الاسواق وهي تأكل كل ما تصادف من الفضلات والاوساخ وكانت قبل جلب المياه الى المدينة قائمة وحدها بامر التنظيف ولهذا حرّمت الحكومة على كل احد من قبل والآن ايضاً ان يمسها بسوء تحت طائل الجزاء. ومتى جاء الليل تتفرّق فمنها ما يطير الى سطوح البيوت ومنها ما يقع على الاشجار

وثاني يوم وصولي سرت لاشنف اذني بسماع الموسيقى العسكرية في الساحة العمومية المدعوة « ثوكالو » وهي ساحة شجراء يجتمع اليها ظرفاء البلدة. لكن لما كانت الطيور التي تقدم الكلام عنها تاتي بكثرة وقت المساء الى الساحة المذكورة تحتم على من اراد وقاية ملبسه او برنيطته ان يعدل عن الجلوس في الافياء. وقد ترشق في وسط الاشجار بعض اسهام نارية بامر المجلس البلدي واذ ذاك تسمع من صيحة تلك الطيور وخفقان اجنحتها ما يكاد يُصم الآذان ولكنها تذهب حيناً ثم تعود

ولما كانت المياه عزيزة في فيراكوث كانت الاشجار من جراء ذلك قليلة ومع ذلك فان الحكومة قد غرست بعض صفوف من النخيل بدأت الان تعطي ظلاً قليلاً. وفي هذه المدينة احتل كورتس الاسباني مفتتح المكسيك واسس هناك مدينة سماها « ڤيلاريكا دي ڤيراكروث » (١) اي مدينة موسرة للصليب الحقيقي. اما الان فيقتصرون في تسميتها على « ڤيراكروث » وهي اعظم مدينة تجارية في المكسيك تبلغ تجارتها تقريباً ثلثي تجارة المكسيك كلها وربما ازدادت ايضاً متى تم انشاء مرفئها. واكثر صادراتها البن والجلد (٢)

---

(١) Villa Rica de Vera Cruz

(٢) كانت حركتها التجارية ما عدا المعادن الثمينة :

الصادرات	١٥٠،١٧٩،٢٦	فرنكاً
الواردات	٧٢٥،٩٨١،٥٣	«
المجموع	٨٧٥،١٦٠،٨٠	«

وبعد ان اقمت فيها مدة يسيرة سافرت الى « مكسيكو » قاعدة البلاد ركوباً في السكة الحديدية. وهي سكة اقتضي لانشائها اشغال عظيمة جداً ليس لها مثال في اوربة لكونها تمر في جبال يبلغ ارتفاعها ضعف علو الاسراب التي حفرت بجبال الالپ وأُوصلت مع ذلك الى منطقة الثلوج بدون تطويل بغير طائل. وقد تم هذا العمل الخطير على غاية ما يرام ولكن بعد بناء كثير من الجسور والمعابر . ولا أُخفي عليك ان الدوار بعض الاحيان كان يأخذ مني مآخذه ولاسيا اذ مرّت السكة في احد الوديان على جسر تعضده قوائم من الحديد بارتفاع ثلاثين الى اربعين متراً. ومرت السكة ايضاً في موضع من الجبال بارتفاع جبل صنين. فقد رأيت مما شرحت لك ان هذه السكة لاعظم بدرجات من السكة المشروع في بنائها بسورية وان كنتم تحجمون ببلادكم عن حفر سرب ولو صغيراً فان المكسيكيين يحسبون مثل هذا تعلة فاذا افتخروا بسكتهم الحديدية حقّ لهم

ولدى خروجنا من ڤيرا كروث مرَّ بنا القطار اولاً في سهل مجرد قاحل وبعد قليل اخذ يرتفع في الجبال المكللة بالخضرة وعقيب ان ارتقى طويلاً ومرَّ في اسراب وجسور لا تقع تحت العد ووقف في المحطات المهمة وصلنا الى « خلاپا » قاعدة ولاية ڤيرا كروث واخص المحطات المذكورة « كوردوبا » وهي مدينة بارتفاع ٨٩٠ متراً عن مساواة البحر ولها اهمية بزراعة شجر البن وقصب السكر ولكن هواءها رديء والحميات الوبيلة لا تزول منها ابداً. ثم « اوريثابا » وهي بارتفاع ١٢٤٠ متراً ذات تربة خصيبة ومنابع عديدة تسقي المزروعات وفي بعض امكنتها يتوهم المارّ انهُ في بيت مخصوص بتربية

ودخل ميناءها	١١٥١	مركب	محمولها	٦٩٩ء٧٦٥	طن
منها	٦٠٢	بخارية	〃	٥٥١ء٦٩٧	〃
	و ٥٤٩	شراعية	〃	١٤١ء٦٨	〃

اما الرسوم الجمركية لسنة ١٨٨٨ فكانت ٩٧٥ء٥٣٣ء٤٣ فرنك اي ٦٣ ½ في المئة

النبات لان السكة مكتنفة من كل جانب بالاشجار العظيمة اكثرها متجلبب بحلة من الازهار

اما خلاپا فاظن ان ارتفاعها يربي على ١٣٠٠ متر وقد عمدت ان استريح فيها يوماً لاني لم ازل تعباً من سفرتي الاخيرة التي اخبرتك عنها لاسيا وان هواءها اصحّ هواء في المكسيك. نعم انها صغيرة ولكنها تستعيض عن صغرها بمزايا أخرى عديدة منها حسن موقعها ومناظرها البديعة ومنها صحة هوائها كما تقدم القول بحيث ان الحمى الصفراء لا تدخلها مطلقاً ومنها المياه المعدنية النابعة بجوارها بين حارةٍ وباردة وملحية وكبريتية. اما سكانها فهم اشد اهل المكسيك ولوعاً بالسلم ولم تكن لهم قط مشاركة في الحروب الاهلية التي دارت رحاها بالبلاد وجلبت عليها الشوم. والمدينة بارعة الظرف ممتلئة من الخضرة والاشجار المختلفة ولهذا سميت مدينة الزهر(١) وهيَ معروفة على الخصوص بعشبة طبية تسمى باسمها « خلاپ » او جلبا والعشبة المذكورة من فصيلة اللبلاب تستعمل اصولها مسهلاً قوياً وتدخل ايضاً في تركيب كثير من الادوية ويصدر منها كل سنة نحو ١٥٠ الف كيلو ولكنه يخشى ان تزول بعد مدة يسيرة لان الموجود منها كلهُ من الصنف البري والهنود الذين يقتلعونهُ يستاصلون كل ما يجدون غير مبالين بان يتركوا بذراً جديداً

وليس من مكان يمكن الوقوف فيهِ بنوع جلي على الاهوية المتميزة والزراعات المختلفة في المكسيك مثل الطريق المؤدية من ڤيرا كروث الى العاصمة لان هيئة البلاد ومشهد الفلك وعادات السكان واصناف المزروعات تتغير جميعاً بنسبة الارتفاع عن مدينة فيرا كروث التي يغادرها المسافر غير آسف على حرّها المحرق ووبالة هوائها. واذا ما وصل الى خلاپا تنشق نسيماً طيباً في ظلال اشجارها الوارفة. وكلما زاد ارتفاعاً لقي من الهواء ما هو اوفر انعاشاً وشاهد كثيراً من غابات السنديان والراتينج ولا يعود يرى شيئاً من اشجار الموز بل يصادف البرد الذي يحرّك السكان الى العمل وينبه نشاطهم لمزاولة صنائعهم ولا يلبث طويلاً حتى يصل الى الجبال فيرى قممها معممة بالثلوج الدائمة

(١) Ciudad de las Flores

وقد رأيت كل هذه الاختلافات والتبدلات في سفري الى مكسيكو وسأوضحها لك بالتفصيل في رسائلي التابعة واما الان فأريح القلم هنيهة مستودعك الله تعالى

اخص مدن مقاطعات المكسيك الشرقية مع عدد سكانها سنة ١٨٧٧

ولاية كامبيش

كامبيش	١٥١٩٠	ساكن
كارمن	٧٣٩٠	〃
كلكيني	٤٢٠٠	〃

ولاية يوكاتان

ميريدا	٤٣٢٨٠	〃
ايزامال	٢٥٦١٠	〃
ڤلدوليد	١٨٤٧٥	〃
اسپينا	١١٦٢٠	〃
پروغريسو	٥٠٠٠	〃

ولاية ڤيرا كروث

ڤيرا كروث	٤٣٢٠٠	〃
خلاپا	١٤٢٢٠	〃
اوريثابا	١٤١٧٠	〃
قرطبة (Cordoba)	١١٣٠٠	〃
سنتياغو توختلا	٩٥٠٠	〃

الرسالة السادسة

بعد ان استرحت يوماً كاملاً في خلاپا ركبت القطار وفي عزمي ان لا اقف الاَّ في عاصمة المكسيك فقد رأيت اني اذا لم اسرع في رحلتي الاميركية طالت مدتها شهورًا بل سنوات ولهذا اتخذت قطارًا معجلًا لا يقف الاَّ بضع دقائق في المحطات المهمة وكان يرتفع بنا في الجبل شيئاً فشيئاً حتى انتهى اخيرًا الى منبسط من الارض بعلو الفي متر يطل على مكسيكو

ولهذه المدينة في الحقيقة مرأى حسن فهي واقعة في سهل فسيح تحيط بهِ جبال شامخة تظهر زرقاء بسبب البعد. وفيها كثير من القباب والابراج وعلى جوانبها بحيرات عظيمة تعكس في صافي مياهها روُوس الجبال التي يشرف عليها من بعيد قمتان لا ينقطع الثلج عنهما. واينما نظرت رأيت الخضرة الناضرة والاملاك البهيجة وكل ذلك تحت سماء باهية الزرقة تنيرها شمس ساطعة حارة ذكرتني اجمل الايام التي صرفتها ببيروت في شهر تشرين الثاني. ومن يرى هذه الامور لاول مرة يظن انهُ خابط في الاحلام لان موقع المدينة يعلو عن سطح البحر ٢٢٠٠ متر وفي مثل هذا العلو من اوربة وسورية ايضاً لا ترى الاَّ صخورًا جدباء وبعض انبتة ضعيفة وليس من قرًى ولا زهور ولا اثمار . اما الامر هنا فبعكس ذلك لان كل لذائذ الحياة من صفاء جو وحسن موقع وغزارة محصول مجتمعة في مكان واحد. ولا اخفي عليك ان مكسيكو قد تصورت في ذهني من الان تصورًا سامياً مرتفعاً وساكتب لك في الغد عما اذا كانت الحقيقة تنطبق على تصوري ففي الوقت الحاضر أُراني محتاجاً الى الراحة والغذاء . . . .

والان استأنف الكتابة اليك فاني بعد ان طفت طويلًا في الشوارع رأيت للمدينة شكلًا في غاية الانتظام واكثر طرقها تنتهي بزوايا مستقيمة كطرق شيكاغو الاَّ انها اقل منها عرضاً وفساحةً واغلب الطرق مسماة باسماء قديسين وقد بذلوا الجهد ولكن بغير طائل لاجل استبدال هذه الاسماء باعداد وهكذا قررت الحكومة بان تسمى

طريق القديس يعقوب من الان فصاعداً بالشارع الاول ولكن الشعب لم يزل يسميها باسم القديس الموما اليهِ وهو في الحقيقة مصيب لان العدد لا يفيد شيئاً بخلاف الاعلام

اما البيوت ففسيحة وتُبنى عادةً بطبقةٍ واحدةٍ بسبب الزلازل الارضية ولجميعها سطوح وساحات داخلية مكتنفة بالاروقة ومزينة بالاشجار والازهار كبيوت الشرق . وهي بوجه الاجمال ذات شُرافات لها درابزونات حسنة الصنع · والطرق كلها مبلطة وعلى جوانبها رُصف يمشي عليها اخلاط من السكان يتوالون بغير انقطاع ولكن بدون ضجة ولا ضوضاء وقد لاحظت ان عدد المتسولين كثير جداً ويسمونهم هنا « پورديوسيرو » نظراً لعادتهم بان يسألوا الصدقات باسم الله « پورديوس » por Dios

وانتهيت من ثم الى الساحة الكبيرة وفيها كنيسة كاتدرية لائقة حقيقةً بمثل هذه المدينة العظيمة لان جميع ما فيها من دقة الصنعة وتناسب الأبعاد وجودة الزينة يحمل على التعجب والاندهاش وفوق مدخلها برجان للاجراس ينتهيان بقبتين في غاية الظرف مزينتين بالنياط والاعلام والاكاليل والتماثيل على اسلوب يشهد بسلامة ذوق · وفي طرفها قبة عظيمة جداً. ولنفاسة ما في هذه الكنيسة لم اعجب من كونهم صرفوا لاجل اكمالها اكثر من مئة سنة لانهم بدأوا بها في عهد الملك فيليب الثاني وشيدوها في موقع هيكل قديم كان الهنود قد افردوه لاله الحرب . وجميعها من داخل مغشاة بالزينات الذهبية وليس فيها لا كراسي ولا مقاعد مطلقاً فمن يدخلها يركع على البلاط

ومن جملة نفائس هذه الكنيسة مجموعة تماثيل تشخص انتقال سيدتنا مريم العذراء وهي من الذهب المصمت تبلغ زنتها ١١١٦ اوقية . ويقال ان القنديل الفضي المعلق امام الهيكل الكبير قد كلف اكثر من ٣٠٠ الف فرنك وهكذا بيت القربان المقدس المصنوع من الفضة المصمتة ايضاً كلف ٨٠٠ الف فرنك . وحقٌ على البلاد التي تكثر فيها الفضة وسائر المعادن الثمينة ان تخصص بواكيرها لله تعالى اذ يبقى منها دائماً شيء كثير لارضاء المطامع والاباطيل البشرية

اما دار الحكومة فمشيدة في جهة الشرق من الساحة الكبيرة وهي عبارة عن

بناء شاسع الاتساع يربي طوله على مسافة مئتي متر ويشتمل على مجلس الاعيان ومكاتب الحكومة والوزارات وادارة البرد وضرب المسكوكات مع دار التحف والمكتبة. وليس فيها مزية الا كونها كبيرة او بالحري طويلة جداً لانها ليست الا ذات طبقة واحدة

وفي جنوب الساحة المذكورة دار المجلس البلدي. وعلى سائر جوانبها منازل كثيرة ذات أروقة يقصدها الناس للتجول في افيائها. وهناك اعظم مخازن البلدة وأجملها. وفي وسط الساحة اشجار من الاوكالبتوس وأنبتة مزهرة وينابيع وتماثيل

ومما تقدم ايراده يتبين لك ان هذه الساحة هي بهيجة للغاية وما عدا ذلك فان فيها حركة مستمرة لا تنقطع. وقد جلستُ في قهوة تحت الاروقة التي سبق الكلام عليها وجعلتُ اتأمل فيها فرأيتها مزدحمة بالخلق ما بين عساكر ومتسولين وخيالة وعربات وعجلات وبهائم محملة. وما كدت اجلس حتى اتاني بعض الموسيقيين فوقعوا على المعازف بعض الالحان المطربة ومع كوني لم أدعهم اضطررت في النهاية ان ادفع لهم قرشاً والقرش هنا يساوي ٥ فرنكات

وبعد قليل جاء ايضاً بعض باعة المبردات ووقفوا امامي واقاموا في الحال مرتفعاً من الخشب ومدّوا عليه غطاء ابيض وصفوا عليه كؤوساً كبيرة مملوءة بالمشاريب المختلفة الالوان وقدموا لي منها بكل الحاح وحيث اني كنت قد اتخذت منها كفايتي اضطررت ان ازايل ذلك الموضع واركب اول عربة رأيتها وقلت للسائق ان يطوف بي في اخص احياء المدينة وهكذا مررت امام اكثر من اربعين كنيسة كلها كبيرة وجميلة. وكنت أقف بعض الاحيان لازور المتاحف لان فيها اشياء كثيرة تستحق ان تُرى أخصها الاصنام التي كان يعبدها المكسيكيون الوثنيون قبل وصول الاسبانيين وقد زرت ايضاً مدرسة الطب مع مدرسة اخرى كبيرة مشيدة في دير قديم كان لليسوعيين ويتصل بهذه المدرسة الاخيرة كنيسة كبيرة مستحقة الاعتبار

وقد كنت لاحظت مدة تطوافي باوربة ان الحكومات في اكثر الاماكن لما

ارادت اختيار محل لمدارسها الكبيرة لم تجد أحسن من ان تقيمها في المدارس التي بناها اليسوعيون كما قد جرى الامر فعلًا في فرنسة وايطالية . ففي هذه المسألة حذت اميركة حذو اوربة

وكنت قد لاحظت ايضًا ان اساس اخص المكاتب في اوربة كان من الكتب المسلوبة من اليسوعيين . اما هنا فلا ادري ما اذا كان المئة والخمسون الف مجلد التي تتألف منها المكتبة العمومية في مكسيكو هي مسلوبة منهم ولكني مع ذلك لا اقوى على رد هذا الظن . وأكد لي بعض من عرفتهم في هذه المدينة ان الحركة العلميـة والادبية على غاية من النشاط وينتشر فيها كثير من الجرائد والمجال الجديرة بالاعتبار

ثم اني تلبثت برهةً لازور بعض الاديار الكبيرة فرأيت اغلبها خاليًا وخرابًا وسبب ذلك هو ان المكسيكيين بعد ان نالوا الاستقلال نزعوا منازع من سواهم من الطينـة الاميركية ولم يفكروا الاَّ في الاقتتال والتخاصم حتى كانت الحكومة تنتقل كل مدة من جماعة الى اخرى . وكانوا عادةً من شيعة الماسون او الاحرار على ما يسمونهم هنـا فباعوا بعض الاديار واسكنوا في بعضها عساكرهم الذين كانوا يتلفون ما فيها من الصور واعمال الصناعة ويحرقون المكاتب . ومما يوجب مزيد الاسف هو ان تلك الحكومات كانت تسمح باتلاف هذه الآثار المنبئة بصناعة المكسيك لكي تنتفع من بيع موادها . ومن ثم فاني لم استطع ان ارى اكثرها لان منها ما شيدت في مكانه المعامل ومنها ما حوّل الى سجون . والغريب انهُ كلما قلت الاديار في البلاد الاميركيـة استدعت الحال تكثير السجون

وقد تجوّلت ايضًا في اكبر اسواق البلدة فرأيت ان الاسواق هنا وفي اوربة ليست كالاسواق في الشرق ولكنها عبارة عن ساحة يجتمع اليها البـاعة في وقت معين من النهار لكي يبيعوا بضائعهم . والباعة في مكسيكو كثيرون ومن قصد هذه الاسواق رأى امثلة غريبة من هيئات سكان المكسيك المختلفي الاجناس . الاَّ انها لا تقام

الاَّ صباحاً ومنها واحدة تقام خاصةً فوق قناة « ڤيغا » (١) التي تصل منها كل صباح مراكب محملة اطياراً وبقولاً واثماراً وازهاراً جانية كلها من ارباض المدينة والى هذه الاسواق يجتمع السكان ويبتاعون ما يحتاجون اليهِ في يومهم

واذ كنت اشتهي ان اشهد السوق ذهبت في الغد باكرًا وجلست في مكان مطلّ فرأيت القناة ملأى بالقوارب وبعض هذه القوارب تجريها نساء يُحسنَّ سوقها بالمجاذيف كالرجال ومع اني قد ألفت العوائد الغريبة بسبب كثرة اسفاري لا اخفي عليك ان هذا المنظر اورثني دهشة وبعض انقباض ايضاً . وكان خروجي باكرًا جداً ومع ذلك كانت السوق قد ابتدأت فتارة كان المشترية يقفون على الرصيف ويساومون اصحاب القوارب وتارة يفرغ اصحاب القوارب بضائعهم على الرصيف والجميع في ذهاب ومجيء متواصلين بين هنود وكريول واغراب وجنود وفتيات وعجائز ووصائف. والى هذه السوق تنتقل جميع اصناف الاثمار من كل الجهات اي من النواحي المعتدلة الهواء في المكسيك حتى اشدها حرًّا ولكن الجميع لا يجيئون من تلك القناة لأن عدة من النساء الهنديات يأتين على ظهورهنَّ باقواتهنَّ من ارباض العاصمة وضواحيها وبعض المرات يحملن احمالاً ثقيلة من البقول والطيور والفحم وغير ذلك وكثيرًا ما يحملن صغارهنَّ ايضاً معَّما يأتين بهِ من الدجاج والاثمار. اما هؤلاء الهنود المقيمون في جوار مكسيكو فهم قصار القامات ولاسيا نساؤهم ولونهم أسمر وفي بعض الاوقات يكون اصفر وعلى وجوههم دلائل الحزن والكمد حتى يظن من يراهم انهم انكد الناس واسوأهم حالاً

وبعد ان ملأت العين من رؤية هؤلاء الناس المختلفي الاشكال والاجناس رجعت مستظلاً من الشمس بافياء الاشجار المغروسة في جانبي الطريق وكان الحرّ اذ ذاك شديداً مع انه كان دخل تشرين الثاني ومن حيث اني لم اكن مضطرًا الرجوع الى الفندق طفقت اتفحص اخلاق السكان وعاداتهم فعرفت كثيرًا من الامور التي فاتتني وتحققت ان الغريب في الايام الاولى من وصوله الى مدينة كبيرة يستمر مبهوتًا

(١) Canal de la Viga.

ومتعجباً ولا يتصوّر الاشياء الاّ بالاجمال دون ان يلتفت الى التفاصيل . وهكذا كانت حالي عند وصولي الى مكسيكو فاني بهتّ مما فيها من المباني الكبيرة والساحات الفسيحة والثروة الوافرة اما الآن فبدأت أراقب الاشياء تفصيلاً وعرفت ان في المدينة عدداً عديداً من الفقراء ولاسيما في الضواحي التي مررت بها حيث رأيت اكثر الطرق غير مبلط وما كان منهـا مبلطاً فتبليطه رديء وعند كل خطوة ارى جداول او مستنقعات قد أسن ماؤها وانتشرت منهُ العفونات المفسدة حتى كانت شبيهة بالاحياء التي يأهلها الوطنيون في القاهرة

ومع ذلك كنت اينما سرت يقع بصري على بعض من الخيالة يدوّمون بجيادهم المطهمة ويراوحون بين الخطو والحضر ويستخدمون عنـاهم تارةً لمصافحة من يلتقون بهِ من اصحابهم يمنةً وتارةً للتسليم على من يمرّ بشمالهم وهكذا يسترون في جيئةٍ وذهاب في الشوارع والمخارف مسرورين بحالتهم وما عليهم من الكسوة الفاخرة وهي عبارة عن سترة وبنطلون من المخمل مزينين بانواع الوشي والقصب. وبرنيطة ذات حواشٍ عريضة مزيّنة بازرار من الذهب او الفضة

ويلبسون مع هذهِ البرنيطة سترة صغيرةً مدورة وضيقة مع بنطلون ضيق عند الفخذين ومتسع عند القدمين ومزرّر من جيبهِ الى القدمين بازرار من فضة بديعة الصنعة يتألف عنها صفان يبهجان النواظر بلمعانهما . وما عدا ذلك يشدون اوساطهم بمنطقـة واسعة حسنة الصنع .وهذا الملبوس الذي تقدم وصفه هو ملبوس السفر عندهم وملبوس الطبقة الموسرة. اما الطبقة الفقيرة فملبوسها برنيطة بسيطة من سنابل الزروع وقميص مع بنطـلون من الكتان الابيض وعباءة حمراء مخروقة في وسطها تُسدل على الكتفين وتسمى عندهم «ريبوثو» (١)

على ان الكسوة التي يلبسها اهل الثراء واليسار اوفر روعةً ورواء في العـين وقت ركوب الخيل .وانا ارى اننا نحن السوريين قد اسأنا في مغادرة كسوتنا الوطنية

(١) Rebozo.

التي كانت كثيرة الموافقة لهواء بلادنا. ولكن قد قضي الامر فلا تنفع الشكوى ولا يترتب عليها وقوف في حركة الاقبال على الكساوي الفرنجية

والاحياء المتوسطة في هذه الحاضرة هي اظرف الاحياء بأهلها الاغنياء وذوو الثروة ويتغلب لديهم من الملابس ما يُعرف بالپالتو والريدنغوت واكثرهم يلبسون البرانيط المرتفعة بدلاً من البرنيطة المألوفة في المكسيك وقد تقدم الكلام عليها وتسمى عندهم «سومبريرو» . ومن جال في الاحياء المذكورة رأى الشبان باكسية من آخر الازياء. وقد اكد لي بعض من عرفتهم هنا ان الخياطين يثرون بسرعة في هذه المدينة بسبب تغاير السكان في احسان الملابس على الشواكل الجديدة

وقصارى القول اني قد تبينت من كل هذا انهُ سوف يأتي زمن وربما كان غير بعيد نرى فيهِ جميع الناس في كل انحاء العالم مقبلين ببهجة الاستنارة بضياء التمدن على لبس السراويل الضيقة كالافرنج وتندرس اذ ذاك الكساوي الوطنية ولا يبقى لها من وجود الا في القرى المتوغلة في داخليات البلدان. اجل ان وحدة الكساوي تُفقدنا وقتئذٍ رؤية مناظر مختلفة ولكنا نتعزّى لفقدها بافتكارنا اننا ارتقينا اوجاً رفيعاً من الحضارة

هذا وقد رأيت صنفاً آخر من السكان لم انتبه لهُ في اليوم الاول من وصولي وهو السقاء ويسمونهُ بلغتهم «اغوادور» (١) يحمل على ظهره جرّة كبيرة مدوّرة من الفخار الاحمر بقدة عريضة من الجلد عند جبهتهِ التي يقيها بخوَيذة من الجلد ايضاً. ويُمرّ قدّة اخرى من الجلد على قمة رأسه يحمل بها كذلك قلة صغيرة تتدلى الى ركبتيه وذلك لكي يتوازن بثقلها ثقل الجرّة ويحفظ الحامل مركز ثقل

اما انا فلم الخص هذا الامر بنفسي ولكن الذين سألتهم اخبروني ان احد الانكليز اراد ان يتحققهُ فكسر بغتةً بخصرة في يده القلة الصغيرة المحكي عنها وفي الحال وقع السقاء المسكين على ظهره وانسحقت الجرّة واذ كان الانكليزي قد سرّ بتحقيق ما

(١) Aguador.

كان يروم دفع ثمن الجرَّة المكسورة لكن لم يعوّض عن الاهانة التي ألحقها بالمقام البشري

وقد اجريت انا كذلك تجربة دون تجربة الانكليزي غرابة وهي اني لما رأيت جميع الناس ولاسيما الفقراء الظمأى يتسابقون الى الشرب من القلة من دون ما أجرة لان العادة كما يظهر قد سوَّغت هذا الامر هنا من غير معارضة تقدمت في نوبتي الى القلة. واذ وقع عليَّ بصر السقاء عرف للحال اني لست ممن يتنابون قلتـه عادةً فاغتنم الفرصة وسألني بغاية الحشمة سيكارة بيدي فتعجلت اعطاءهُ اياها

وفي مدة تطوافي الذي ساقني اليـهِ فضولي وشغفي في الوقوف على كل الامور انتهيت الى شارع كثير الزحام مكتظ بالاقدام. وما كدت اخطو فيهِ الخطوة والخطوتين حتى رأيت الكل ركعوا جثيًّا على الركب ومرَّت عربة فاخرة للغاية مغشاة بالزينات الذهبية يتقدمهـا اثنان حاملان شموعاً مضيئة مع جرس صغير . وعرورها امام الثكنة العسكرية اصطف الجنود بهيئة التعظيم والتكريم ونفخوا بالابواق اجلالاً . واذ رأيت جميع الناس جثيًّا على الركب وانا غير عالم بالسبب توقفت عن الاقتداء بهم حيناً. ولكن ما لبثت ان سمعت مخاطباً يكلمني باللغة المكسيكية فلم افهم شيئاً ثم شعرت بيد قوية على كتفي شدَّدت عليَّ والزمتني الركوع. ولكني لم اعرف الا بعد حين سبب هذا الحادث الذي تجدَّد كثيرًا على مرأى مني

وكل خورنية في المدينة تملك عربة فاخرة مزينة بالزينات الذهبية يركبهـا الخوري متى حمل الزاد المقدَّس الى المرضى ومتى مرَّت ينزع الجميع برانيطهم اجلالاً ويركعون حتى لو كانوا في ردغة ويستمرون كذلك الى ان تتخطاهم. وكان من عادتهم سابقاً ان يرافقوا القربان المقدس الى منزل العليل حتى ان نائب الملك لم يكن معفياً من هذا الالزام بل كان يمشي في مقدَّمة الجماعة

ومن هذا نعلم ان المكسيكيين هم في الحقيقة اُمة صالحة ذات تقوى عظيمة فانهم متى دخلوا الكنائس استمروا ركعاً طول مدة القداس وعند ما يُتلى كلام التقديس يُسمع قرع الصدور كمطارق الحدادين . وكلهم بالتقريب يكشفون عن رؤوسهم لدى مرورهم

امام الكنائس حتى لو كانوا ايضاً راكبين عجلات الترامواي. ولما دخلت كنائسهم تعجبت غاية التعجب لرؤيتي انهم يقيمون في جميع ايام السبة قداديس احتفالية ترافقها الموسيقى ويتبعها عرض القربان المقدس لعبادة المؤمنين واعطاء البركة والقاء المواعظ. والقداديس المذكورة تُقام على نية الافراد الذين يلتمسونها من الكهنة ويؤدون كل نفقاتها

وهذه الاحتفالات (١) تستمر عادةً وقتاً طويلاً لان كل موعظة لا تكون مدتها اقل من ساعة وكثيرًا ما تتخطى هذا الحد . واليك ايضاً عادة اخرى مبهجة وهي انهُ عند الساعة ٦ مساء يقرع جرس التبشير (٢) واذ ذاك يكشف جميع السكان عن رؤوسهم ويقفون ويتبادلون تحية المساء وليست هذه العادة جارية في الطرق فقط بل في جميع المنازل حتى في البرية ايضاً بين الفعلة الذين يبادرون اولاً الى تقبيل ايدي مواليهم

وقد اتفق لي في تجوالي بمكسيكو ان رأيت جنازات كثيرة وبما اني كنت اظن هواء مكسيكو كثير الموافقة للصحة تعجبت من وفرة الوفيات. ولما اشتريت كتاباً يرشد المسافر الى احوال المدينة المذكورة وجدت حل المشكل وعرفت ان ظنوني اخطأت المرمى وقرأتُ فيهِ ان هواء مكسيكو رديء للغاية حتى ان الوفيات تبلغ في بعض السنين اربعة اضعاف المواليد ومتوسطها في الالف عادةً ٣٣ بزيادة عظيمة على متوسط مثلها في باريس ولندن حيث تكون مع ذلك كثيرة. واخص اسباب توافرها عدم نظافة التربة والمياه وها انا اشرح لك هذا الامر بوجه التفصيل لانهُ لا يخلو عن فائدة كبيرة

اعلم ان الوادي المشيدة فيهِ مكسيكو كان من قبل مغشًى بعدد من البحيرات التي بقي منها الان ثلاث او اربع ولكنها انقص مما كانت عليهِ سابقاً بكثير. فلما ان انتهى الاسبان الى هناك كانت المدينة نفسها مبنية في وسط بحيرة على مثال مدينة البندقية في ايطالية. وفي غالب الاحيان كانت تفيض المياه على البيوت وتكاد تبتلعها. ومن

---

(١) ويسمونها funciones

(٢) ويُعرف في المكسيك باسم oracion اي الصلاة

ثم باشروا اعمالاً جبَّارية استمرَّت عدة قرون وذهبت بحياة ألوف من الهنود وذلك انهم قطعوا رابية كبيرة وفتحوا للمياه مجرًى لكي تصبّ الى الوادي الحاذي

الاَّ ان اعمالهم هذه لم تجدهم نفعاً كبيرًا وجل ما ترتب عليهـا دفع قسم من الضر . ومن ثم فقد استأنفوها في هذه السنوات ووعدوا بانهم ينهونها في السنة القابلة والشعب مختلف الآراء فيما يكون من منفعتها حتى ان فريقاً منه يقول بضررها على الاطلاق مدعياً بان وادي مكسيكو يصير بعدها قاحلًا اذا لم يُعتنَ بايجاد الوسائل الضامنة الانتفاع بالمياه الجارية لاجل ريّ الاراضي والفريق الآخر وانا اراه على الصواب يقول انهُ ينبغي ليس فقط ان يكون لمياه البحيرات مصرف في وقت الفيضانات غير الاعتيـادية بل يجب ان تكون البحيرات حتى في اوقات الجفاف متمكنة من قبول المياه التي تجود بها الطبيعة دون ان تنفقدها . والحق يُقال ان بعض البحـيرات التي في ارباض المدينة تفقد مياههـا فتجفّ تدريجًا فاذا استمرت كذلك لا يلبث ان يأتي زمن يتحول فيه وادي مكسيكو المعتزّ بخضرته ونباته الى سهل قاحل مجدب

وكيفما كان الامر فمن الاكيد ان تربة مكسيكو كثيرة الرطوبة في الوقت الحاضر لان المدينة واقعة على مساواة بحيرة « تكسكوكو » القريبة منها ولذلك تدخل مياهها في التربة . ومن حيث انها تلاقي على عمق بعض سنتيمترات طبقات من الصلصال لا تُنفذ تقيم فيها وتأتيها جميع الفضلات فتنحل وتنتشر العفونات الضائرة ولا يكاد المطر يسقط حتى تمتلىء الشوارع وحولاً

والنظافة فوق ذلك ليست على ما يجب كما ان مجـاري الاوساخ ايضاً غير مبنية بناء حسناً يزيل مضارها . ومع وفرة المياه الفاسدة في مكسيكو رأيت ان المياه النقية المجلوبة بواسطة القنوات غير وافية بحاجات السكان

ومن حسن الحظ ان المدينة آخذة في الامتداد الى الجهـة الغربية حيث توجد روابٍ متعرضة للارياح واراضٍ جافة . والاحياء الجديدة مبنية جميعاً في الناحية المذكورة وساخبرك عنهـا بعد ان ازور ارباض البلدة

واعلم انهُ ما خلا عدم موافقة هواء مكسيكو للصحة فانهُ كثيرًا ما تحدث فيها الزلازل الارضية حتى انها احيانًا تتكرر مرتين في السنة ولذلك يجعلون جدران البيوت غليظة للغاية وذات طبقة واحدة

ومن بضعة ايام قرأت اعلانات تخبر عن اقامة «سباق الثيران» في احد ايام الاحاد فلما جاء اليوم المعين وكنت لا أبتهج بان ارى الدم يسيل من الثيران ولا اشتهي ان أراها تطعن بقرونها الخيل وتشق بطونها لم اذهب الى محل السباق. ومع ذلك لم اخسر شيئًا بعدم ذهابي لان جميع من في الفندق أحيوا السهرة بطولها في الكلام عليه ففهمت منهم ان عدد المتفرجين كان كثيرًا مع انهُ في الوقت نفسه حصل سباق في خمسة مواضع أخرى وكان في جملة من حضر السباق المذكور جمهور من النساء بينهنّ كثيرات من نساء الاكابر

وقد جرى في اول الامر مجرًى حسنًا وقدم طعّان الثيران (١) راكبين الخيل وبيد كل منهم عصًا طويلة منتهية بحديدة محدّدة حتى اذا اقبل الثور عليه بذل الجهد ليوقفه بنخسه. وسمعت ثناء كثيرًا على احد الطعانين الذي بعد ان قُتل حصانه سار الى امام الثور الى وسط المجال وهو موضع خطر للغاية متى زلّ فيه احد عن صهوته صار عرضةً للهلاك بضربات قرون الثيران. ولما ان رأى الحاضرون هذه الجرأة العظيمة رموا لهُ السيكارات وقذفت السيدات اليهِ بما في ايديهنّ من باقات الزهور وُدحج اليه كذلك كثير من البزانيط التي كان الخدام يجمعونها ويردّونها الى اصحابها

غير ان الثور لما كان بهِ من التعب والاعياء أبى ان يتحرك رغمًا عما كان يصيبه من ضربات حراب الطعانين. واذ ذاك التهب الحضور غيظًا واخذ يصرخون ويصيحون

---

(١) ان سباق الثيران يسمى بالاسبانية corrida والطاعن picador. اما torero فهو اسم عامّ يطلق على كل من يتعاطى هذه المهنة بين راكب وراجل

على الثور ملقبيه بالنذالة والجبانة فلم يتحرَّك ولكنهُ اخيرًا هجم على فرس احد الطعانين وضربه بقرنه فشق بطنه

فانفجر الدم كانفجار الماء من افواه القِرَب واذ تهيج الثور برؤية الدم عدا على فرس آخر وضربهُ بقرنهِ فصرعهُ على الرمل مع راكبه. وكانت رجلا الطعّان قد علقتا بالفرس الذي لما رأى الثور عائدًا اخذ يرفس رفسات شديدة بكل جهده واذ اوشك الثور ان يصل الى الطعّان الذي داسه الفرس وكاد ان يضربه بقرنه جاء لاسعافه بعض الشبان الاخفّاء الحركة الذين يقفون دائمًا في وسط المجال ممسكين غشاء احمر ليستجلبوا الثور الى جهتهم حتى اذا اقبل نحوهم اجتنبوه بطفرة يسيرة بغاية ما يكون من السهولة والرشاقة

ولما التهى الثور بهذه الواسطة سار الى ناحية اخرى وما زال يجول ويقاتل حتى تعب فرزح اعياء وابى ان يتحرَّك. واذ ذاك أُخرجت من المجال تلك الافراس التي ليست في الحقيقة الا من انواع الكدش يشترون الواحد منها بنحو من ٥٠ فرنكًا لانهم لا يُنزلون الخيل الجيدة في مثل هذه المواقع

وبعد هنيهة نُفخ بالبوق اشارة الى انهُ حان ميعاد «البندريلاس» وهي سهام من خشب منتهية برأس من حديد يرشق بها الثور حتى يهيج وحينئذٍ اخذ جمهور المتفرجين يصيحون «النار النار» يريدون بذلك رشق الثور بالبندريلاس النارية التي تُراش بدلاً من الاوراق الجعدة بمواد صناعية تشتعل عندما يغرز الراس الحديدي في جلد الحيوان

فما أُصيب الثور بالسهمين الاولين الموشوقين اليهِ حتى انعقدت حولهُ سحابة نارية وليها انفجارُ البارود واذ ذاك اخذ يعجّ ويدوّم واستنّ عدوًا ثم وقف ليعود ثانيةً وهو مغضب من تمزّق جلده بالسهام المحمية بنار البارود فوقتئذٍ اصابهُ سهم ثالث وقع على الارض بجانبهِ وانفجر تحت بطنهِ فزاده ذلك احتدامًا وعلق يعجّ ويدور حتى قتل فرسًا بقرنهِ وكأنهُ شفى غليله من ذلك فذهب وجلس في احدى زوايا المجال ولم يقم بعدها

وعند ذلك زاد الشعب تجننًا واخذوا المقاعد الصغيرة وقطعوها اربًا وقذفوا بها

الثور والطعّانين فدخل رجال الشرطة وقتئذٍ وفرّقوا الناس حتى خلا المحل. وهكذا انتهى سباق الثيران والسكان هنا يستحسنون هذا كله . اما انا فاعدّه بربريًا واتعجب كيف ان شعبًا متمدنًا كشعب المكسيك يمكنه ان يلتذ بمثل هذه الالعاب الوحشية . وقد تكلمت في هذا المعنى كلامًا يسيرًا فكان السامعون يلحظونني شزرًا وهم ممتعضون مني

وقد عاملني المكسيكيون الا هذه المرّة بوافر الرعاية وانزلوني لديهم منزلة المكرّم المحبوب وهم من الملاطفة في مقام متطرف. ولا ينبغي ان يحمل كلامهم من هذا القبيل على حرفيته فلو مدحتَ امام احد ساعته مثلًا قال: هي بين يديك او هي لك وان اثنيت على جواد احدهم بحضرته قال هو تحت امرك

تذييل = واني جاعل لك هذا الجدول بمرأى عيونك ليتجلى لك بهِ ما يحدثهُ هذا السباق من التحمس في نفوس الاهالي فاعلم انهُ يُوزَّع جداول فارغة ذات اعمدة كثيرة ليملأ المتفرجون فراغها كما ترى في المثال التابع

اسماء الثيران	ضربات الحراب	سقطات الطعان	خيل		ضربات السيوف
			مقتولة	مجروحة	
١ الثور الاسود	٢٥	٨	٥	٣	١
٢ الحية	١٤	٣	٢	٢	١
٣ الاشبيلي	١٦	٤	١	١	٢
	٥٥	١٥	٨	٦	٤

وقد تصفحتُ اللائحت التي عُين فيها السباق المذكور وساعتهُ فرأيت فيها ما اورثني غاية الدهش :

« ان الطعانين يتألفون من كلدرون وپنتو وثلاثة آخرين ينزلون الميدان عند مسيس الحاجة واذا لا سمح الله حدث لهم ما يكدر لا يحق للجمهور ان يطلب غيرهم

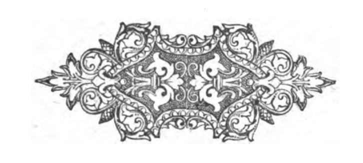
« ثم ان الحكومة تعلن للجمهور :

اولاً انهُ لا يسوغ للمتفرجين ان يتشاغوا من مكان الى آخر ولا ان يحتقروا احدًا بسبب كسوته ولا ان يكرهوه على خلع شيء من اثوابهِ او على لبسهِ

ثانيًا لا يسوغ ان يُطرح في المجال لا اثمار برتقال ولا قشور ولا حجارة ولا عصيّ ولا مواد أُخرى يمكن ان تضر بالمتقاتلين

« ثالثًا لا يسوغ لاحد ان ينزل عن المصاطب قبل اخراج آخر ثور مقتول

« رابعًا لا يسوغ ان يُدخل في السباق الأ الثيران المدرجة اسماؤُها في هذه اللائحة الخ ... »



الرسالة السادسة

كنت اظن اني اتغيب يوماً او يومين ولكنني اضطررت ان اصرف اسبوعاً بكامله في زيارة أرباض العاصمة ومع ذلك لم اتمكن ان ارى كل ما يستحق المشاهدة . واول محل زرتهُ مكان يدعى « شاپولتيبك » ومعناه في اللغة المكسيكية القديمة جبل الصراصير تؤدي اليهِ مخرفة أنيقة غُرست اشجار الاكالبتوس بجانبيها وقد تجوَّلت فيهِ وانا راكب فرساً ورأيت قصرًا في غاية الاتساع مبنياً فوق صخرة كان مشيدًا فوقها بلاط مونتيزوما ملك المكسيك لما ان فتحها الاسبانيون

قد بنى القصر المذكور احد نواب ملك اسبانية في القرن الماضي بقصد ان يجعل منهُ حصناً منيعاً ويجاهر بالاستقلال ويعلن نفسه امبراطورًا على البلاد. ولكنه مات قبل ان يتممهُ. والان قد تحوَّل قسم من هذا القصر مدرسة حربية وجُعل القسم الثاني مقام نزهة لرئيس الجمهورية. وهو يشرف على مناظر مكسيكو وبحيراتها وجبالها ويحيط بهِ من المنازه ما هو اوفر ظلالاً من جميع منازه ذلك الوادي الجميل

فالى جانبهِ غابة من شجر السرو يبلغ محيط الواحدة ١٥ مترًا في ارتفاع ٥٠ مترًا وهي ذات اغصان قوية تشتبك وتلتف حتى يتكوَّن عنها في القمة قبة ناضرة لا تخرقها اشعة الشمس ويحدث للصوت فيها دوي كدويه تحت قباب هيكل عظيم عمده جذوعها المستقيمة والمتينة

وقد اقمتُ طويلًا في ظلال هذه الاشجار التي كانت في ايام الملك مونتيزوما . ولما كنت قد قرأت في هذه الايام تاريخه وتاريخ اسلافه ملوك المكسيك الاقدمين جعلت اتصورهم واشخصهم في جلوسهم تحت افياء هذه الغابة. وفي نيتي ان اقصَّ عليك اخبارهم بالاختصار غير اني اؤجل ذلك الى فرصة اخرى واتمم لك الان وصف تطوافي فاقول

بعد ان جبت حقولاً خصيبة منتعشة بالمياه الغزيرة سرت توًّا الى قرية « تاكوبا »

وهي قريبة من مكسيكو حتى يمكن ان تُعدّ من أرباضها فرأيت فيها كثيرًا من المصايف والمنازل الشائقة وبتّ في احد فنادقها

وفي الغد بكرت في النهوض وقصدت «غوادلوب» فوصلتها قبل الظهر وكان تحتي حصان صبور على التعب وطول السفر. نعم انهُ كان صغيرًا كبقية خيل هذه البلاد ولكنه كان نظيرها حادًّا حمسًا كما ينبئ بذلك توقد عينيهِ وشموخ رأسه. وقد قال لي احد الاميركيين العارفين الذي دار بيني وبينه حديث عن خيل هذه البلاد كلامًا لا ابلغ منهُ في بيان حماستها قال «اعلم ان الفرس المكسيكي قبل ان يموت بعشر دقائق يعدو باحتدام كما لو كان ممتلئًا شبابًا» . ومع ما هو عليهِ من القوة والنشاط لا يجمح ابدًا بل يكون دائمًا قيدًا. وبالاجمال يمكن ان يُشبه بخيولنا العربية

وفي غوادلوب هذه مزار لسيدتنا مريم العذراء شفيعة البلاد والمكسيكيون يكرمونه غاية الاكرام

واصل ذلك هو انهُ في سنة ١٥٣١ بعد عشر سنوات من افتتاح الاسبانيين لمكسيكو خرج احد الهنود المدعو يوحنا ديبغو على اثر تنصره من قريتهِ ليحضر القداس في كنيسة قريبة من مكسيكو وبمروره قريبًا من رابية في طريقه سمع انغامًا كتغريد الطيور ورأى في قمة الرابية غمامة بيضاء متلألئة بالنور فاستلب هذا المشهد لبّه وذهب بفؤاده وبينما هو كذلك اذ سمع من الغمامة اللامعة صوتًا رخيمًا يناديه «يا يوحنا ادنُ» فارتقى الهندي الرابية وهناك رأى ما بين الاضواء الساطعة امرأة ذات جمال لا يفي بهِ الوصف عليها لباس يبعث نورًا في غاية البهاء حتى تخيل ان جميع حجارة الرابية تحوّلت الى حجارة كريمة . وحينئذٍ خاطبتهُ المرأة السماوية باللغة المكسيكية قائلة «يا ابني يوحنا الذي احبهُ محبة من هو صغير وضعيف اين تذهب» فاجابها الهندي «يا سيدتي ومولاتي الشريفة انا ذاهب لكي احضر القداس الذي يقيمه لنا خدمة الله تعالى»

قالت المرأة «اعلم اذًا ايها الابن العزيز اني انا مريم الدائمة البتولية ام المخلص

واشتهي ان يُشيد على اسمي هيكل بهذا المكان الذي أظهر فيهِ رأفتي خاصةً على قومك المضطهدين . اذهب الى مكسيكو الى دار الاسقف وأخبره بما سمعت وما رأيت » فخرَّ الهندي على الارض هيبةً ووقارًا واجابها :« انها السيدة المعظمة اني ساقم امرك كالخادم الذليل » ثم خرَّ يوحنا مرة ثانية وتوجه الى مكسيكو

غير انهُ لما انتهى الى دار الاسقفية عاقهُ الخدام مدة طويلة عن مواجهة السيد زومرَّاغا اول اسقف على المكسيك واخيرًا رقّوا لالحاحهِ واذنوا لهُ في الدخول الى ناديه فأخبره بالرؤيا . الاَّ ان الاسقف خشي ان يكون ذلك المتنصر حديثًا واهمًا او مغرورًا بتلقين ابليس فصرفهُ بلطف واوصاه ان يعود اليهِ بعد بضعة ايام حتى يتيسر لهُ في خلالها ان يتأمل في الشأن المذكور مليًا

اما يوحنا المسكين فخرج من عند الاسقف حزينًا للغاية وعاد الى قريتهِ فلما بلغ الرابية مساء رأى البتول التي ظهرت له صباحًا في انتظاره فخرَّ في الحال ساجدًا وقال « فعلت كل ما امرتني بهِ وقد واجهت الاسقف فقابلني بلطف ورعاية وسمع ما قصصت عليهِ باصغاء ولكني رأيت انهُ لم يصدق كلامي فارجوكِ ان تنفذي شخصًا شريفًا من اهل الاعتبار والاحترام وانتِ ترين يا سيدتي اني رجل قروي عاجز عن اتمام هذا الشان »

فاجابتهُ العذراء القديسة قائلة « اعلم ايها الابن العزيز ان خدَّامي كثيرون وكلهم مطيعون لو اردت ان ارسل احدًا منهم سواك . ولكن تعود غدًا الى الاسقف وتطلب اليهِ ان يشيد لي هيكلًا في هذا المكان » فقال يوحنا « لا تغضبي ياملكتي مما اقول فلست اعتذر ولا اخشى التعب لكن ان عدت مرة اخرى فمن المحتمل ان الاسقف لا يقبلني ولا يستمع لي. ومع ذلك انا افعل ما تأمرين وغدًا مساء عند مغيب الشمس آتيك بالجواب »

وفي الغد جاء يوحنا لحضر القداس في ربض من ارباض مكسيكو ثم سار الى نادي الاسقف واخبره والدموع ملء عينيه عما جرى له في مخاطبته البتول للمرة الثانية .

وحينئذٍ القى عليهِ الاسقف عدة مسائل وفي النهاية قال لهُ ان يلتمس من السيدة التي ارسلته بعض دلائل تثبت انها هي العذراء القديسة. ثم صرف يوحنا واوعز الى اثنين من خدامهِ ان يلحقا بهِ ويخبراه عما يريانه. ففعل الخادمان كما امرهما مولاهما غير انهما بوصولهما الى جسر بسفح الرابية المذكورة غاب الهندي عن ابصارهما

اما يوحنا فظهرت لهُ البتول وقالت لهُ انها في الغد تعطيه علامة. على انهُ لم يستطع ان يعود الى الرابية في اليوم التالي الواقع في ١١ كانون الاول لكونه بوصوله الى قريته رأى عمه المدعو حنا برنردينو في مرض مخطر فصرف نهاره في البحث عن طبيب لمداواته

وفي ثاني يوم ثقل الداء على عمه المذكور فالتمس كاهناً في ساعته الاخيرة فنهض يوحنا ليلاً قاصداً مكسيكو ليأخذ لهُ راهباً فرنسيسياً يزوده بالاسرار الالهية

ولما لاحت لهُ تباشير الصباح كان قد انتهى الى الرابية الموما اليها فتذكر وقتئذٍ انهُ لم يعد لمواجهة البتول كما كان قد وعدها ومن خوفه ان توءنبه على عدم طاعته توهم بسذاجته انهُ اذا غير طريقهُ فالبتول لا تراه وهكذا بعد ان يقضي ما يلزم لعمه المريض يعود الى الرابية ويلتمس منها ان تعطيه العلامة التي طلبها الاسقف . ولكنه ما انتهى الى موضع يتدفق منهُ نبع معدني حتى ظهرت لهُ العذراء

وحينئذٍ سجد لها وقال وهو يرتجف خوفاً «لا تغضبي ايتها السلطانة العظيمة ان عمي احد عبيدكِ هو مريض جداً وانا ذاهب الى المدينة التمس لهُ كاهناً ليسلحهُ بالاسرار الالهية. وبعد هذا آتي الى هنا لاجل تتميم اوامرك. فاسألك اذاً ان تسامحيني وليكن عندك بعضُ الصبر» . اما البتول فاجابتهُ قائلة «اسمع يا بني ما اقولهُ لك . لا يحزنك شيء ولا تقلق لمرض عمك فانهُ لا يموت بهذه العلة وفي هذه الدقيقة نفسها قد شفي»

فلما سمع دييغو هذه الكلمات شعر بفرح عظيم واجاب «ارسليني اذاً الى الاسقف واعطيني العلامة التي وعدتني بها» فقالت البتول «اذهب يا ابني العزيز الى قمة الرابية واقطع ما تجد من الورود وضعها في طي ثوبك وائتني بها لاوصيك ما ينبغي ان تفعل» فاطاع يوحنا مع معرفته بعدم وجود ورد في ذلك المكان الكثير الصخور والخالي عن

النبات . واذ انتهى الى قمة الرابيــة وجد مرجاً من الورود الخضراء تتضوَّع بالعرف الطيب وقد كللها الندى بقطره. فمد وقتئذٍ عباءته وقطف منها قدر ما وسعت العباءة وحملها واتى بها الى العذراء المعظمة التي قالت لهُ «هذه هي العلامة التي يجب ان تذهب بها الى الاسقف . لا تُرِ ما تحملهُ احدًا في طريقك ولا تنشر عبــاءتك الاَّ بحضور الاسقف بعد ان تقول لهُ ما ارسلتك فيهِ »

اما يوحنا فلمزيد فرحهِ حمل هذه الورود بغاية العناية وسار الى مكسيكو وهو ينظر اليها وقتاً بعد آخر متمتعاً بحسن مرآها وعرفها الطيب. ولما وصل الى دار الاسقف عاقهُ الخدام عن مواجهته زماناً طويلًا واذ لحوا انهُ حامل في عباءتهِ وروداً هموا ان يتخذوا منهـا ولكنهم تاملوا فرأوا انها ليست وروداً طبيعية بل هي مرسومة او منسوجة بصنعة دقيقة على العباءة. فنبهوا الاسقف الى ذلك فاستدعى في الحال يوحنا لحضر اليهِ ونشر عباءتهُ فتساقطت الورود على الارض وظهرت مرسومة على العباءة نفسها صورة السيدة البتول فتأمل الاسقف متعجباً من طراءة الورود المتضوعة بالعرف الطيب مع ان الوقت كان في صميم الشتاء ولاسيما من تلك الصورة التي ظهرت مرسومة على النسيج فاخذ العباءة ووضعها في مصلاَّه وابقى يوحنا دييغو عامة ذلك النهـار في داره وفي اليوم التابع ذهب واياه الى الرابية

وعقيب هذا التمس يوحنا من الاسقف ان يأذن لهُ في العودة الى قريتهِ لكي يرى عمهُ فسمح لهُ بذلك واصحبهُ ببعض من يعتمد عليهم واوصاهم ان يأتوه بيوحنـا برنردينو اذا كان قد برئ من مرضهِ

وكان المذكور في وقتها قد تعافى واخبر انهُ رأى البتول القديسة في نفس الزمن الذي ظهرت فيهِ لابن اخيهِ واعلمتهُ بشفائهِ وقد ردت اليهِ الصحة قائلة لهُ ان يشيد لها هيكل باسم « سيدة غوادلوب » دون ان تشرح لهُ معنى هذه التسميــة ثم جيء بالهنديَين المذكورين الى الاسقف فبحث بالتدقيق عما اخبراه بهِ وتحقق اخيرًا صحته

وما مضى يسـير من الزمن حتى ذاع خبر المعجزة ذيوعاً عظيماً واخذ الاهـالي

يتقاطرون افواجاً الى دار الاسقف لاجل تكريم صورة سيدتنا مريم العـذراء . واخيراً نقلت الصورة الى الكنيسة الكاتدرية وبعد ان تم تشييد الكنيسـة في المحل الذي عينهُ يوحنا دييغو نُقلت اليها باحتفال عظيم وطفق السكان يبنون البيوت والمنازل في سفح الرابية حتى تألفت منها بالتدريج مدينـة صغيرة دعيت مدينة « غوادلوب » وبقي يوحنـا الهندي حارساً لكنيسة الجديدة حتى ادركتهُ المنية . وهذا هو اصل المزار المشار اليهِ

وقد اخذت هذا الخبر بتفاصيله عن احد الكهنة المتقيدين بخدمة الكنيسة المذكورة تعرفت بهِ في ثاني يوم وصولي فانهُ بينا انا اطوف حول الكنيسة واتبين تناسب بنائها اذ خرج منهـا ودنا اليَّ قائلاً: يظهر لي انك غريب فقلت له نعم يا ابي وقد اتيت هذه البلاد من سورية فقال ومن اي اجزائها قلت من لبنان. فما سمع ذكر لبنان حتى فاض وجهه نوراً وقال قد سافرت الى لبنان من نحو سنة بعـد ان زرت الارض المقدسة ونعمت طرفي برؤية غابة الارز ولم ازل اتذكر كرم طباع اللبنانيـين وحسن ضيافتهم للغريب وقد فرحت الان كل الفرح بمقابلتي رجلاً لبنانياً ابثه شكري ومعرفتي الجميل لقومـهِ. قال هذا وذهب بي الى دار له كانت على مسافة قريبة منـا ولم يرضَ مدة اقامتي كلها في غوادلوب ان انزل في موضع آخر وبهذه الوسيلة زرت الكنيسة ووقفت منها على كل ما تهم معرفته. واعلم ان الثاني عشر من كانون الاول الواقع فيهِ تذكار ظهور العذراء عليها السلام للهندي يوحنا هو من اعظم الاعياد في المكسيك يتقاطر فيهِ الناس من جميع نواحي البلاد الى غوادلوب والهنود منهم يقيمون العادات القـديمة التي سمح لهم باجرائها دائماً في مثل هذا العيد واظهـاراً للعذراء القديسة مزيد فرحهم وخالص شكرهم يترنمون بالاناشيد ويرقصون امام صورتها وتجاه الهيكل الكبير على ما جرت بهِ عادتهم في افراحهم

على اننا نحن الشرقيين نستنكر هذا الامر ونستهجنه لان الرقص معتـبر عندنا في كل زمان بمنزلة شيء عالمي صرف ولكن من رآه عن قرب وقف على حقيقته بحيث

لم يستهجنه كل هذا الاستهجان وما سألت عنه احدًا هنا الا اثبت لي جريه على خطة هي غاية في السذاجة والاحتشام لان هيئة الراقصين المنبئة بتقواهم وطهارة قلوبهم توثر في الافئدة وتأخذ بالقلوب

هذا وان المذبح الكبير في الكنيسة مبني بالرخام ودرابزون الخورس مصنوع من الفضة ومثله بيت القربان . وكانت الكنيسة في اوائل امرها واسعة الثروة وقد عُلق في سقفها يوم تدشينها ستون قنديلًا من الفضة وكان فيها ايضًا من الشماعد وسائر الآنية الفضية ما لا يقل وزنه عن ٥ آلاف رطل خلا الآنية الذهبية . غير انهُ من مدة غير بعيدة تولى الماسون البلاد وعاثوا في اموال الخزينة وسطوا على تقادم الاتقياء ليسدّوا بها ثلمة الخلل والنقصان كما قد فعلوا هم اكثر من مرة في غير المكسيك من البلدان التي قبضوا على ازمة حكومتها

على ان هذه الكنيسة لم تزل بالرغم عما سُلب منها بمكانة من الرونق والثروة وذلك لان رئيس اساقفة مكسيكو لم يأل جهدًا في تجديد محاسنها الى ان اعادها الى ما يقرب من سابق حالها . وقد اسعفني الحظ برؤية صورة سيدة غوادلوب ذات العجائب فلم ادرِ أهي مرسومة بماء الصمغ والالوان ام هي مرسومة بالزيت . ومن مدة يسيرة بحث سفير الولايات المتحدة بمكسيكو عن هذا الامر الغريب وبعث بنتيجة تقريره الى الجرائد الاميركية ان تركيب الصورة وطبيعة رسمها امر يقصر العلم عن استكشافه

وقد ذهبتُ مرة بصحبة الخوري المار ذكره الذي كان يرافقني في جميع خطواتي ويكثر من موانستي وملاطفتي فزرت المعبد المبني على الرابية حيث تجلت البتول القديسة ليوحنا دييغو . وهو معبد يُرقى اليهِ بسلم طويلة وعن يمينه بناية حجرية مرتفعة في الجو على هيئة السارية والقلوع وفي قمتها نُصب يمثل سيدة غوادلوب . وقد شيد هذه البناية احد التجار الاغنياء وفاءً لنذر كان قد نذره للسيدة العذراء اثناء زوبعة شديدة ثارت عليهِ وهو مسافر في البحر ووعدها انها اذا نجته من الغرق يقيم تذكارًا لمعونتها في غوادلوب ساريةً من الفضة بقلوعها . ثم انهُ عملًا بمشورة بعض اهل الفضل والتقى بذل

كلفة السارية الفضية في سبيل اعمال البرّ والخير ورفع البناية الحجرية المذكورة

فهذا المعبد ليس في حد ذاته على شيء من الظرف والاناقة غير ان المناظر الرائعة التي يقع عليها البصر عند الوقوف في ساحته تُنسي مشقة التعب في الرقيّ اليه فمن هناك تُرى مكسيكو وارباضها الرائعة وبحيراتها الزرقاء وجبالها

ومن وراء هذا المعبد المقبرة يدفن فيها كثير من الاتقياء امواتهم. هذا وان عبادة سيدة غوادلوب منتشرة كل الانتشار بين سكان المكسيك وقلما يخلو منزل من صورتها حتى انهم يعلقونها ايضاً في المخازن والمعامل ويشعلون امامها القناديل ليلاً ونهاراً

ومن جملة ما أحاك في صدري هنا واورثني غاية التأثر اني رأيت جميع التماثيل في المعبد مكسوة وقد كنت لحظت ذلك في مكسيكو دون ان اتبينهُ. ومن هذه التماثيل ما يُكسى بافخر الاكسية

هذا واني بعد يومين من نزولي في بيت الخوري الذي اكرم مثواي وحفني بصنوف الرعاية والملاطفة ودعته وركبت فرساً وعدت الى مكسيكو سائرًا في الشاطئ الغربي لبحيرة «تكسكوكو» وهو شاطئ مقفر الا بعض جهاته. ولما ان انتهيت منهُ تتبعت ضفة قناة «ڤيغا» الخارجة من بحيرة اخرى في جنوبي العاصمة. وهذه القناة تمرّ في ارض مطمئنة يزرعها الهنود خضرة متنوعة يحملونها الى مكسيكو

ولم أبت في العاصمة الا ليلة واحدة وفي ثاني يوم ركبت عربة قاصدًا مدينة «بويبلا» ولم اركب قطارًا حديديًا مخافة ان تفوت الغاية وهي رؤية البلاد ملياً لاني بصفة متجول لا تاجر. والمسافر في القطارات الحديدية لا يتمكن لسرعة سيرها من الاستمتاع بما يرى. على ان ركوبي للعربة قد اورثني مشقة باهظة كما سترى حتى عمدت ان لا استأنفه مرة اخرى

ولما كان ميعاد سفر العربات الساعة ٤ صباحاً بكرت في النهوض من النوم واسرعت الى المكتب الذي كان قريباً من محل نزولي واذ لم اسمع صوتاً ولا حركة في ذلك المكان تفاءلت بان العربات باقية وقلت ان الخيل لم تُكدن بعد فقرعت

الباب فلم يكن من جواب ثم كرّرت القرع وناديت صارخاً فلم اسمع الا نباح كلب قائم بحراسة المكان. وبعد مضي نحو من ربع ساعة نهض احد النيام وهزّته المروءة ليستفهمني ما اريد فقلت: العربات. قال العربات ياسنيور (اي ياخواجا) قد سافرت من بضع دقائق فان عجلت الخطى ادركتها على بوّابة القديس لعازر. ثم قال «رافقتك السلامة» (١) واغلق الباب في وجهي وغادرني في ارتباك لا مزيد عليه

ولما كنت غير عارف جيداً بطرق مكسيكو تعذّر عليّ الذهاب الى بوابة القديس لعازر بدون دليل لاسيما وقناديل الغاز كانت قد طفئت والقمر قد غاب. وما زاد في الطين بلة خوفي من اللصوص وحرّاس الليل اذا رأوني أسرع الخطو وصندوقتي بيدي توهموا فيّ السرقة. لكني لحسن البخت نجوت من كلا الشرّين اي من وثبة اللصوص ومن تهمة الحرّاس لان اللصوص وقتئذٍ كانوا قد تواروا والحرّاس من طول السهر قد ناموا في زوايا الشوارع

وما كدت افرح بنجاتي حتى عثرت بزمرة من العسس على رصيف الطريق ولكني وجدتهم لحسن الحظ نياماً فتجاوزتهم آمناً حتى وصلت الى باحة السجن الكبير فانتبه احد الحرس لوقع قدميّ على البلاط وصاح بي صيحة هائلة فوقفت مذعوراً وشرحت له واقعة حالي ودفعت له رزمة من السيكارات ليخلي سبيلي. وبعد ان ايقظت الحرس الليليين والجنود والموظفين وبرطلتهم بالسيكارات استرشدتهم الى الطريق واذ وصلت الى بوّابة القديس لعازر وجدت العربة قد خرجت منها قبل انتهائي اليها بقليل فاضطررت ان استأنف الركض وكان الطريق لحسن البخت مستقيماً والمارّة كثيرين فادركتها عيياً من التعب في الموقف الاول وما ركبت فيها حتى اخذت تجري بسرعة الطير وكان يجرّها ستة بغال قويّة

اما تفاصيل الطريق فاسألك ان تعفيني من وصفها ويكفي ان تعلم اني انتهيت الى بويلبا صحيحاً معافى اذ تبين لي ان السفر اليها كان من مدة محفوفاً بالمخاطر لان روساء

(١) Vaya usted con Dios!

العصائب كانوا يعلقون اعلانات على مفارق مكسيكو ينبهون بها المسافرين ان يملأوا جيوبهم من الدراهم تحت طائلة الضرب بالعصي وقطع الانوف والآذان. وقد دلني رفقاني على اكثر من موضع كان اللصوص يستوقفون فيهِ العربة عادةً ما لم تكن مصحوبة بفريق من الجنود المحافظة لانهُ لم يستتب بعض الطمأنينة والامن في المكسيك الا من زمن وجيز

وقد روى لي رفقائي في السفر اخبارًا غريبة عن تعدي هولاء اللصوص ولكنهم لم يتعدوا قط على احد من رجال الاكليروس. ولهذا كان المسافرون اذا خافوا شرَّهم يسلمون كل ما لديهم من النفيس إلى الكهنة الذين بصحبتهم

وقد اراد مرة احد الكهنة الذي كان قد سلمه رفقاؤهُ كل دراهمهم ان يعطي ٣ قروش الى بعض اللصوص البادية عليهم آثار الفاقة. فأبوا ان يأخذوها منه فالح عليهم فازدادوا اباء قائلين ان الله ينزل بنا عقابه الشديد اذا سلبنا خدمته. وكان مرَّة اخرى رجل معه ٤٠٠٠ قرش مسافرًا مع رئيس اساقفة مورليا (١) فهجم اللصوص بغتة على العربة واوقفوها فصاح الرجل قائلًا أوَ تسلبون المطران . فاضطرب اللصوص لهذا الكلام وجثوا راكعين والقوا الاكياس المودعة فيها اسلابهم ونكسوا ابصارهم الى الارض طالبين بركته بكل خضوع واحترام

ويرتقي تاريخ مدينة بويبلا الى سنة ١٥٣٠ وتسمى هنا « مدينة الملائكة » (٢) لان الملائكة بموجب التقليد القديم كانوا في وقت بناء الكنيسة الكاتدرية يواصلون في الليل العمل الذي شرع فيهِ الاهالي نهارًا . وهي واقعة على ارتفاع ٢١٧٠ مترًا وهواؤها ملائم للصحة وتربتها خصيبة تسقيها جداول متعددة وقد يسمونها احيانًا بالعاصمة الثانية. وهي جميلة المنظر فيها نحو مئة من قباب الاجراس

وشوارعها رحيبة حسنة البناء ذات وجوه (واجهات) متقنة الزينة واهلها يتعاطون

(١) مورليا عاصمة ولاية ميشواكان (Michoacan) وعدد سكانها نحو ٤٠٠٠٠

(٢) Puebla de los Angeles

كثيراً من الصناعات والحرف كصنع الاواني الفخارية والزجاج والصابون والنقاشة وبلغوا فيها منزلة سامية وعندهم ايضاً عدة معامل لصنع الانسجة ولكن ثروتهم تتوقف خاصةً على محاصيل الزراعة ولما كانت مدينتهم طيبة الهواء اصبحت مقصودة من الاغراب ولاسيا المبتلين بالسل. وقد اكد لي بعض الاهالي هنا ان المسلولين اذا جاؤوها وكانت فيهم بقية حياة لا يلبثون ان ينالوا البرء بعدة سنة او سنتين. وحول المدينة المذكورة عدة مياه معدنية. وقد زرت كنيستها الكاتدرية ورأيت جميع جدرانها من الداخل مصفحة بالرخام المختلف الالوان. واما المذبح الكبير فهو من انفس ما فيها واثمنهُ ومصنوع من الذهب والفضة مع الرخام والجص. واهالي بويبلا اتقياء للغاية ولفرط تحمسهم في الايمان كانوا من مدة لا يجيزون لمن هو غير كاثوليكي ان يطيل الاقامة بينهم

ولما كنت تعباً من السفر في اول ليلة لوصولي لم اتمكن من الرقاد الا بعد الجهد ونحو نصف الليل سمعت اصوات «السرينوس» اي حرس الليل الذين يحملون هنا كعادة امثالهم في كوبا فوانيس وحرابا ولا يقتصرون على حراسة النيام في منازلهم ولكنهم مكلفون فوق ذلك ان يعلموهم في نغمة مخصوصة بعدد الساعات وحالة الجوّ في الخارج وبما ان الليالي تكون عادة متقشعة الغيوم بيضاء الاديم أُطلق عليهم اسم سرينوس اي الساهرين في الليالي المصحية (١). وفي نغمتهم ما يدعو الى التأثر وينفذ الى القلب والذين سمعتهم من هولاء الحرس كانوا يبتدئون دائماً بمدائح لله تعالى ولسيدتنا مريم العذراء كقولهم مثلاً سبحان الله والسلام عليك يا مريم الطاهرة الى غير ذلك (٢) وهم يقومون بكل خدمة ممكنة ويرقبون ما اذا كانت ابواب المنازل مغلقة وعند مسيس الحاجة يذهبون في طلب الكهنة والاطباء للمرضى وان وجدوا غريباً قد ضل عن الطريق يرشدونه الى ما يطلب وقد جرّبت ذلك معهم ولكنهم هنا اقلّ طلباً للسيكارات من عسس مكسيكو

---

(١) سرينوس مشتق عن sereno (serein) وهو الصحو

(٢) Ave Maria purissima ! — Alabado sea Dios !

وبعد ان صرفت يومين في مدينة پويبلا اعتزمت العودة الى مكسيكو فرجعت ليلها في سكة الحديد غير مريد ان استأنف التهوّر في مخاطر الليل التي سبق الكلام عنها

اخص مدن المكسيك الوسطى مع عدد سكانها سنة ١٨٧٧

ولاية كيريتارو

كيريتارو	٣٤٬٣٧٠	ساكن
مار يوحنا دلريو (San-Juan del Rio)	٢١٬٣١٥	«
كادريتا	١٤٬٨٠٠	«

ولاية مكسيكو

تولوكا	٣٩٬٩٩٠	«
تخكوكو	١٥٬٦٢٥	«
لرما	١٠٬٦٩٠	«

الولايات المتحالفة

مكسيكو (سنة ١٨٩٠)	٢٤٥٬٠٠٠	«
سانانغل (San-Angel)	١٠٬٠٨٠	«
تاكوبايا	٧٬٦٩٠	«

ولاية هيدلغو (Hidalgo)

هويخوتلا	٢٠٬٠٠٠	«
پاشوكا	١٤٬٢٦٥	«

ولاية پويبلا

پويبلا	٦٨٬٠٠٠	«
تيتيلا (Tetela del Oro)	٤٥٬٤٦٠	«
اكتلان	١١٬٦٠٠	«

الرسالة السابعة

أراني مضطرًّا لاستئناف الكتابة عن الحشرة المسماة «شيك» ولعلك تذكر اني لما القيت عصا الترحال في مدينة سنتياغو بجزيرة كوبا ذهبت الى طبيب لكي يخرجها من رجلي لانها كانت قد نفذت فيها . غير ان العملية لم تصح وقد شعرت من بضعة ايام باكال في اصابع رجلي وقاسيت من جرّائه آلامًا لا تطاق ولدى عودتي من بويبلا نظرت في المساء قبل الرقاد فاذا بي سبع الى ثمان بثور بيضاء كل منها بقدر الحمصة متسببة عن البذور التي كانت قد القتها الحشرة تحت الجلد فناديت اذ ذاك خادم الفندق وأريته ما بي فقال: دعني افعل ما اشاء يا سنيور فاني اعلم ما ينبغي لك وغدًا تبرأ ان شاء الله

وما طلع صبح الغد حتى اتاني بصبية خلاسية في سن الرابعة عشرة فاخذت في استخراج الحشرة بلباقة غريبة بواسطة إبَر رفيعة جدًا منعطفة الرؤوس وكانت كلما امسكت احدى بذورها أدنتها من ضوء شمعة فتصعق كانها بارود ولا بد للتوصل الى هذه البذور تحت الجلد من عيون بصيرة وعادة طويلة حتى يمكن اخراجها دون ان يُفقأ الوعاء الذي أُودعت فيهِ لما يترتب على ذلك من الالتهاب الشديد

ولما ان اكملت الصبية استخراج البيوض غسلت الجراح بالزيت وادخلت في الثقوب تبغًا ممزوجًا بالرماد ثم سدّتها بالنشاء وعصبت رجلي وامرتني ان الازم الحجرة يومين. ثم سألتها عما تريد اجرة فطلبت ١٢ سولدي فنحتها نصف ريال حتى راحت متعجبة من سخائي

وقد احتفظت على احدى هذه الحشرات لكي الحصها ببلورة معظمة فرأيت لها رأسًا متسلحًا بشبه خنجر مثلوث النصل تنفذ بهِ في الاحذية والثياب وتدخل تحت الجلد يتقدمها رأسها ولا يدخل من هذه الحشرات تحت الجلد الا الاناث تودع فيهِ بيوضها لتؤمن لها غذاء وافرًا. وجوف الاناث المذكورة منتفخ شفاف ترى فيهِ العين المجردة كمية

لا تحصى من البيوض الاسطوانية الضاربة الى الاحمرار

وهكذا اضطررت ان الزم غرفتي يومين متواليين لم اعمل فيهما عملًا غير التدخين والمطالعة وقد قرأت في خلالهما جميع ما ارسلتَ اليَّ من الجرائد العربيــة مع بعض كتب ايضاً في تاريخ المكسيك. ومخافة ان أُدخل عليك السآمة بذكر اخبــاري الخصوصية انتقل الى إطرافك ببعض ما علمته عن هذه البلاد عن ماضيها وحالتهــا الحاضرة فاقول :

ان اول حملة ارسلتهــا اسبانية لافتتاح هــذه النواحي هي الحمــلة المنسوبة الى القبطان « كورتث » المشهور وكان في اسبانيــة وقتئذٍ كثير من افراد الرجال الذين تميزوا في خبرتهم ودرايتهم بفنون الحرب. الاَّ ان اقوى شيء اسعف كورتث المذكور على تعجيل الانتصار هو ما اولدتهُ الإسلحة النــارية في قلوب الاهالي من شديد الرعب فكانوا يتخيلون ان المدافع كائنات ذات حيــاة وان الفرس والفارس هما شخص واحد وكانوا كلما صهلت الخيل ارتعدت فرائصهم وامتلأوا ذعرًا ومخافة واعتقدوا انها آلهة قد غضبت عليهم فيأخذون في التوسل اليهــا وطلب رضاها

اما اول مكان احتلهُ كورتث من المكسيك فهو موقع مدينــة ڤيرا كروث التي وضع اساسها كما سبقت الاشارة

وكان الاهالي الاصليون في ذلك العهــد نائلين نصيباً من التمدن ينبئ بذلك ما كان لهم من المعارف بعلم الهيئة فقــد كانوا يعلمون حركة الشمس والقمر و بعض الكواكب المتحيرة ويعرفون نهاية كل سنة معرفة مدققة

وقد اخترعوا ايضاً صنفاً من الخط أشبه بخطوط مصر القديمة وانشأوا مكاتب واسعة ورسموا كثيرًا من الخرائط الجغرافية. اما صناعتهم فكانت محرزة غاية من التقدم والنجــاح. اجل انهم لم يكونوا يعرفون الحديد ولكنهم كانوا يحسنون شغل الذهب والفضة والنحاس والقصدير والرصاص

غير انهم مع ما وصلوا اليهِ من التقدم والحضارة الزاهرة كانت لهم ديانة وحشية

بربرية فكانوا كثيرًا ما يذبحون في هياكلهم ضحايا بشرية واذا قدموا لآلهتهم حبوبًا طحنوها وعجنوها بدماء الاطفال والعذارى وكانوا في بعض الاحيان يصنعون عجينًا من رفات الآباء ويدوفونه بلحوم ابنائهم وكان الكهنة المكسيكيون قبل ان يذبحوا الضحايا ينزعون قلوبها رافعيها نحو السماء وبعض الاوقات كانوا يذبحون أطفالاً رضعاء فيجتمع كبراء الامة ويأكلون لحومهم في وليمة دينية . ونحو اواخر القرن الخامس عشر ذبح احد ملوكهم نحو ثمانين الف سجين وحفر حول كل هيكل خندقًا ملأه من دمائهم

وكلما تولى احد ملوكهم كان اول ما يبادر اليهِ مطاردة الناس واقتناصهم حتى يكون عنده دائمًا عدد وافٍ من الضحايا وكانوا لا يبنون هيكلًا الاَّ اذا اراقوا في اساسهِ دم عدد وافر من الاسرى فكانت الهياكل ملطخة بالدماء وملأى باللحوم البشرية بين طريئة او معجونة او محروقة وكانوا ينصبون تجاهها اهرامًا يعلقون على كل واحد منها لا اقل من مئة الف جمجمة وكان لهم عيد في السنة يسمونهُ عيد السلخ يدور به الكهنة في احياء المدينة لابسين جلود الضحايا ومصطبغين بالدم العبيط

اما اكبر اعيادهم فهو عيد اله الحرب فكانوا فيهِ ينصبون تمثالاً من الطحين والذرة والبقول واخلاط الاثمار معجونة بدماء المذبوحين من الاطفال ويحسنون تجفيفه حتى يجيء مع فرط جسامته خفيف الوزن وبعد ان يحتفلوا بتكريسه يأخذ الرجال والنساء في الرقص. وكانوا يكررون هذه الامور كل شهر وكل شهر يذبحون بعضًا من السجناء

وفي ايام العيد المذكور كانوا يحتفلون بدورة في القرى المحيطة بمدينة مكسيكو وكلما وصل الموكب الى مرحلة يذبحون كثيرًا من الطيور ولاسيما السلوى ولا يعودون من الدورة الاَّ والليل قد ارخى سدوله

ثم انهم كانوا اذا انبثق فجر اليوم التالي اتوا بالتمثال الى اكبر محل في الهيكل بمحضر الملك ونفر قليل وقام احد الكهنة ورشق في قلب التمثال سهمًا وصرخ في الحال « مات الاله » وبعد هذا كانوا يقسمون التمثال الى شطرين متساويين ثم يقسمون

كل شطر الى الوف من الاجزاء التي يوزعونها في جميع احياء العاصمة حتى لا تفوت هذه المناولة العظيمة احدًا من السكان

وكان كورتش قائدًا كريم الطباع شديد التحمس في عقيدته يرغب ان يبذل كل صالح بشري لاجل انجاح الديانة الكاثوليكية هناك ولمزيد شغفه بهذا القصد كان يضطر الخوري الكاثوليكي الذي بصحبته ان يسكن ثائرة حدته في هذا الشان

اما من حيث الشجاعة فكان متفردًا بها كتفرده في صلابته الملية فانهُ باربعمائة اسباني انتصر دفعات متوالية على عساكر الهنود البالغين خمسين الفًا . وقد قاسى مع جنوده كثيرًا من الاهوال والمصاعب في عبورهم الجبال الشاهقة قبل وصولهم الى مكسيكو ولكنهم لما وطئوا هذه المدينة نسوا كل ما نالهم من المشاق والاتعاب فرحين برؤية بلدة كبيرة ارتفعت فيها الابراج والهياكل والقباب الشامخة والأبنية العظيمة وظهرت كانها بارزة من البحيرة التي كانت مبنية في وسطها وكان حول البحيرة المذكورة حقول مزروعة ومدن وقرًى تلقي عليها اشعة الشمس ساطع البهاء وتكسبها حسن الرواء

وكان الملك المتولي البلاد وقتئذٍ يدعى مونتيزوما وقد قصده كورتش الى مكسيكو فتخوف الملك حينئذٍ من جرأتهِ وجاء بنفسهِ لمواجهته . ولما كانت المقابلة بين هذين الشخصين مما يشوق وصفه رأيت ان لا احرمك أياه فاقول

خرج مونتيزوما بموكب عظيم يتقدّمه ثلاثة ضباط حاملين صوالجة من ذهب كانوا يرفعونها المدة بعد المدة ليعلموا الشعب بحضور الملك ووجوب السجود لهُ دلالةً على الاحترام والخضوع وكان مونتيزوما محمولاً على محفة تغشيها اوراق من الذهب وتعلوها مظلة نفيسة مزدانة بريش اخضر ومحمولة على اكتاف اربعة من الكبراء وكان في الموكب مئتا رجل لابسين طيالس من الكتان كلها بهيئة واحدة وعلى رؤوسهم خُصل كبيرة من الريش المختلف الالوان وكانوا يمشون حفاة الاقدام مصطفين اثنين اثنين في جانبي الطريق على مسافة من الملك وعيونهم الى الارض هيبةً

لهُ واحتراماً اما هو فكان قد ارتدى بملابسه الملكية ووضع تاجاً خفيفاً من الذهب على رأسه ولبس في رجليه جزمة طويلة الى الساقين غالية الثمن وعلى الكتفين طيلساناً مزيناً بصفائح الذهب والحجارة الكريمة

ولما ان دنا من كورتث ترل من محفتهِ ففرش اخصاؤه طيالسهم ليمشي عليها حتى لا تمس قدماه الارض واخذه الاربعة الاقيال بايديهم وسلموه الى اخيهِ وابن اخيهِ اللذين توليا عضده بكامل الاحترام

اما كورتث فنزل عن صهوة فرسهِ ولاقاه وخاطبهُ ببعض الكلام ثم البسهُ في عنقهِ سلسلة ذهبية كانت لهُ مزينة بالجواهر والبلور فتقبلها الملك منهُ بالانعطاف واراد كورتث ان يصافحهُ فلم يمكنهُ الاسياد من ذلك حتى لم يأذنوا لهُ ان يمسهُ ايضاً. وبعد هنيئةٍ جاء احد اخصاء الملك بعقدين من الحلزون في كل منهما ثماني قطع من الذهب مصنوعة على هيئة اسماك بطول نصف قدم وبعد ان علقهما مونتيزوما في عنق كورتث عاد الى قصره وكلف اخاه ان يذهب بالاسبانيين الى المكان الذي عُين لهم

ومع افتقار كورتث الى مداراة هذا الملك القدير لم يهب ان يكلمهُ في شأن الديانة المسيحية ويبين لهُ بطلان ديانتهِ وقسوتها وقد طلب اليهِ بصراحة ان يبطل الذبائح البشرية. اجل انهُ قد انكر من كورتث طعنهُ في شعائره الدينية الاَّ انهُ مع ذلك وعده بان ينقطع عن تقديم اللحم البشري على مائدتهِ . وكان كورتث مرة في صحبتهِ يزور اخص هيكل في المدينة فلما وقع بصره على صفوف الجماجم ورأى الحضيض محمراً بالدماء التفت اليهِ قائلاً : اني لاعجب من ملك حكيم نظيرك يعبد هذه الصور الممقوتة التي ليست في الحقيقة الاَّ صور الشياطين

واغرب من هذا كلهِ انهم تسكيناً لغضب الالهة كانوا يلتمسون اشرف الضحايا حتى لم يكونوا يكتفون بابن الملك بل يطلبون الهاً ليضحوه . وعلى ذلك كان الشبَّان الذين يضحونهم في الاحتفالات الكبيرة يتقدمون فيربونهم في مرتبة الالهة وقبل ان يذبحوهم يطوفون بهم في دورة ذات ابهة ويسجدون امامهم وبعد ذبحهم كان الذين .

يأكلون لحومهم يعتقدون انهم يُدخلون في ذواتهم شيئاً من الجوهر الالهي

وعلى ذلك فان فتح الاسبان لهذه البلاد مع ما رافقهُ من الشطط والمساوئ كان بمنزلة احسان عظيم نشل هؤلاء الشعوب من ردغات عوائدهم الوحشية

هذا وان الاسبان احتالوا على مونتيزوما وسجنوه في قصر بالمدينة فهاج المكسيكيون من جرَّاء ذلك واحتشدوا حول القصر فقابلهم الاسبان بباس شديد وشجاعة غريبة غير ان المئات التي صرَّعتها اسلحتهم النارية على الارض كان يقوم مكانها في الحال الوف من المقاتلين الجدد . وقد جرح مونتيزوما نفسه في هذه الموقعة لما اراد ان يسكن هياج قومهِ ومات متأثرًا من جرحهِ

وانتصر كورتث على المكسيكيين في عدة مواقع أُخرى واستولى على مدينتهم فجدد بناءها سنة ١٥٢٤ في موقعها بعينه ولكنهُ جعلها اوفر انتظاماً واقل اتساعاً واخذ يُعنى بانجاحها فاقام فيها مستشفيات للمرضى وشيد معامل للمنسوجات وادخل زراعة قصب السكر ودوالي العنب واغراس التوت وانشأ مطبعة وضرب نقودًا وصب مدافع وهكذا اظهر فرط ذكائهِ في التدبير والسياسة بعد ان ابان اقتداره في قيادة العساكر وتذليل الاعداء

وفي احدى رسائلهِ الى ملكهِ كرلوس الخامس سألهُ اولاً ان لا يسمح لاحد من علماء الفقه ووكلاء الدعاوي بالدخول الى بلاد المكسيك خشية ان يدخلوا فيها روح المماحكة والمخاصمة الذي كان غير معروف هناك . ثانياً ان لا يرسل احدًا من الاطباء لانهم كانوا غير عارفين بشيء من امراض البلاد فاذا ارادوا ان يعالجوها زادوها ثقلًا وتفاقماً . ثالثاً ان لا يسمح بدخولها لاحد من اليهود الحديثي التنصر

اما الديانة الكاثوليكية فانتشرت بوقت سريع بين هنود المكسيك الذين سرّوا غاية السرور من استبدال مذهبهم الوحشي بشريعة الانجيل الحلوة وتنصر منهم ١٥ مليوناً في مدة الخمس عشرة سنة الاولى

وقد سهل انتشار النصرانية عندهم عدة امور منها ان اشارة الصليب المقدس

كانت علامة دينية لديهم وكان المرسلون القائمون بتبشيرهم ووعظهم يجيزون لهم بعد تنصرهم ان يمارسوا جميع العوائد التي لا تخالف العقائد والتقاليد الكاثوليكية كعادة الرقص مثلًا في بعض الاحتفالات الدينية كما تقدم الخبر في معرض الكلام على زيارة سيدة غوادلوب

ومما يخلق بالذكر هو انهُ لولا الاكليروس الكاثوليكي لكان نسل الهنود قد تلاشى من زمان في المكسيك نظرًا لما كان يعاملهم بهِ الفاتحون من المعاملات السيئة. ولاجل هذه الغاية استحصل الاساقفة اوامر من ملك اسبانية تخولهم ان ينشروا حمايتهم على الهنود المذكورين وتحرّم على البيض ان يقيموا في قراهم

غير ان السنين الاولى بعد الفتح الاسباني كانت شديدة جدًا على السكان الاصليين اذ قد تفشت بينهم علة الجدري وغيرها من الامراض الوبائية وفتكت فيهم فتكًا ذريعًا دون ان تتعرض للفاتحين

وقد رأيت كثيرًا من هؤلاء الهنود الذين هم من سلالة السكان الاصليين فاذا هم اقوياء الاجسام ولهم صدور رحيبة مقببة ويمتازون ايضًا بقوة سيقانهم العضلية فانهم يجلسون القرفصاء ساعات طويلة ولا يشعرون بتعب. ومن طباعهم فرط القناعة في مآكلهم التي يتخذونها على الغالب من النباتات لا غير مثل الذرة واللوبياء والموز والفلفل. وهم يميلون المدة بعد المدة الى احتساء المشاريب الروحية ولكنهم مع ما يكثرون منها لا يُخشى عليهم ان تصيبهم الامراض التي تصيب السكيرين في بلادنا. ومن مميزاتهم ايضًا انهم قلما يمرضون فان احدهم اذا سلم من ادواء الطفولية سلم العمر كله حتى يدركهُ الهرم ويموت من انحلال الطبيعة

ومما لاحظت في هؤلاء الهنود انهُ قلما ينزل الشيب في رؤوسهم كما انهُ قل من يصيبهُ الصلع اي انحسار الشعر عن الجبهة لكنهم في مقابلة ذلك لا تنبت لهم لحىً على الاطلاق. اما الاشخاص القباح الخلقة فيهم فقليلون جدًا حتى انهُ يندر ان ترى بينهم رجل اقزم او احدب بل كلهم اشداء الاجسام تامّو الخلقة كما ان نساءهم جميعًا

قويات ومتى أصيبوا بجرح يبرأ بسهولة مهما كان بالغاً وهم بالاجمال اشد صبراً على المشقات والاتعاب من البيض

وكفى بما تحققت من قوتهم وشدتهم وفرط صبرهم على الاتعاب تكذيباً للزاعمين بأن أكلة اللحوم هم اوفر الامم قوةً فهم من هذا القبيل كالفعلة الصينيين الذين رأيتهم في كوبا ومع انهم لا يأكلون غير الارز كانوا يباشرون من الاعمال ما لا يقدر عليه آكل اللحم أيّاً كان

وكان من المأمول ان الهنود مع ما يتميّزون بهِ من الصفات ولاسيما بعد اربعة قرون من مخالطتهم للاوربيين يكونون قد وصلوا الى درجة رفيعة من التمدن ولكن الاحوال جرت بخلاف ما ذهبت اليهِ الاماني . نعم ان المرسلين وسائر رجال الاكليروس بذلوا غاية السعي لتثقيفهم وتمدينهم الاّ ان كثيرين غيرهم من البيض عاكسوا اعمالهم وصرفوا عناياتهم ليستخدموا الهنود بصفة الآت للكسب

ومع كل هذا لا يزال هنود المكسيك عضد البلاد ودعامتها لكونهم هم الذين يحرثون الارض ويزرعونها ويستخرجون معادنها ويبذلون دماءهم في الدفاع عنها . ونسلهم يتكاثر جداً بنوع فائق العادة وهو بوجه الاجمال فقير تعيس اذ لم يُترك لهُ الا اردأ الاراضي واوفرها جدباً لكي يشتغل بزراعتها

وبالرغم عن هذا كله قد رأيت في بعض جهات البلاد فريقاً من الهنود كسبوا بجدهم واجتهادهم مراكز تجارية ممتازة او صاروا من وكلاء الدعاوي المشهورين او من الاكليريكيين الفضلاء وهولاء قوم قليلون يسرت لهم الظروف ان يخرجوا من حالة الخمول التي يتقلب فيها سائر اخوانهم

ولم يتكاثر عدد الاسبان اصلاً في بلاد المكسيك لانهم في حرب الاستقلال لم يتجاوزوا الثمانين الفاً ولكنهم كانوا يدّعون على الدوام انهم اهل الطبقة الاولى في هيئة سكان البلاد ويسمون ذواتهم « ارباب الحجى » (١)

(١) gente de razon

غير انهُ من سوء الحظ وقع بينهم الانقسام وتفرق الكلمة لان الحكومة لم تكن ترقي الى المأموريات والمناصب سوى الاسبانيين المولودين في اسبانية وتبعد عنها « الكريول » اي الاسبان المولودين في المكسيك فوقع التنافر من ثم بين الفريقين حتى ان مولودي اسبانية كانوا يحتقرون مولودي المكسيك ويشتمونهم عمدًا وكان هؤلاء يردون لهم كيل الاهانة طافحًا

واذا شئت ان تعلم الاسباب التي سوّلت لهذه الناحية ان تنفصل عن اسبانية وتؤلف مملكة مستقلة فاسمع ما اقص عليك:

ان اول سبب ساقها الى ذلك هو قلة احترام الاسبانيين لغير المولودين في اسبانية. والسبب الثاني هو النظام التجاري الذي ادخلوه في البلاد وكانوا قد أجروه ايضًا في جزيرة كوبا وحصلت عنه نتائج خطرة. ومن حيث ان هذا النظام لم يكن جاريًا فقط في غير المكسيك وكوبا ولكن ايضًا في جميع مستعمرات اسبانية باميركة الجنوبية رأيت من المناسب ان ابسط لك الشرح فاعنهُ قول :

ان المكسيك لم تكن معتبرة بصفة مستعمرة لكن بمنزلة املاك خاصة بالملك وجميع العقارات التي بتصرف الاسبان او السكان الاصليين كانت معدودة بصفة هبات ملكية وكان نائب الملك محسوبًا مثل وكيل عنه وسائر المأمورين كخدَمة مكلفين بمناظرة الاملاك والعناية بزراعتها واستغلالها وكان نائب الملك يتصرف كما يشاء ويريد في الامور المدنية والعسكرية ويولي المأموريات من يشاء بعد اجازة الملك

وكانت حكومة اسبانية قد سلمت لشركة مقيمة في « كاديكس » (١) جميع

(١) Cadix واسمها عند العرب « قادس جزيرة في غربي الاندلس طولها اثناء عشر ميلًا قريبة من البر بينها وبين البر الاعظم خليج صغير قد حازها الى البحر عن البر . . . وابن بشكوال الكامل بن احمد بن يوسف الغفاري القادسي من اهل قادس ولهُ رحلة الى الشرق » (ياقوت)

تجارة المكسيك وحرَّمت على كل احد ان يبيع او يشتري من سواها. وكانت هذه الشركة تغلي قيم مبيعاتها ولتوكيد ربح تجارتها منعت ان يصنع في المكسيك شيء مما كان متيسرًا للبلاد ان تصدر منه كميات وافرة باثمان رخيصة . ومن ثم فقد حظرت زراعة دوالي العنب واغراس الزيتون حتى يضطر المكسيكيين ان يشتروا الزيت والخمر منها لا غير

واعظم من ذلك انها حرَّمت تحت طائلة عقاب الموت كل علاقة تجارية مع غير الاسبان من الامم . ولكن الحكومة الاسبانية اضرَّت بذلك في صوالحها الخصوصية وصوالح المكسيك وحصرت المنافع في شركة من التجار كان هذا من اعزّ من تتمناه غير انها كفرت عن هذه الزَّلة الفظيعة بشبوب نار الثورة في البلاد

فان المكسيكيين لما علموا سنة ١٨٠٨ بهجوم نابوليون الاول على اسبانية وسجنه للاسرة المالكة عرفوا حينئذٍ لاول مرَّة ان اسبانية لم تكن بمنزلة الاقتدار التي كانوا يتوهمونها واخذوا من ذلك الوقت ينفصلون شيئًا بعد شيء عن بلاد لم تعلق محبتها في قلوبهم اصلًا . وقد صرفوا سنين طويلة في السعي وراء الاستقلال الذي لم يتم لهم احرازه الا سنة ١٨٢٢ واختاروا اذ ذاك الحكومة الجمهورية

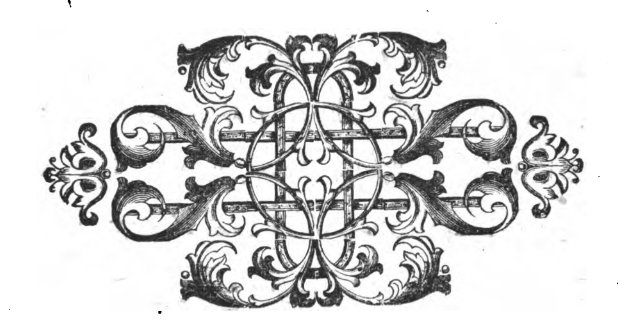
غير ان هذه الهيئة الجديدة التي صارت اليها البلاد لم تولها ما كانت تتوق اليه من السعادة لانها استمرت نحو نصف قرن بعد اعلان الاستقلال في ثورة مقيمة وهياج متواصل لم تتخلص منه الا من بضع سنوات

وفي سنة ١٨٣٥ انضمت ولاية « تكساس » الى الممالك المتحدة وسنة ١٨٤٦ انتشبت الحرب بين المكسيك والولايات المذكورة فاسفرت نتيجتها عن انتصار الاميركيين الذين استولوا على ڤيرا كروث وخلاپا وپويبلا ودخلوا في السنة التابعة مدينة مكسيكو. وطلبًا لعقد الصلح اضطرت المكسيك ان تتخلى لهم عن قسم من ارضها وسنة ١٨٥٤ أُجبرت ان تتخلى لهم عن قسم آخر ايضًا

وسنة ١٨٦٤ حاولت البلاد ان تستبدل الحكومة الجمهورية بحكومة

امبراطورية فلم تنجح مساعيها التي ذهبت بحياة الارشيدوق مكسيميليان اخي امبراطور النمسة الذي كان قد انتخبهُ بعض المكسيكيين امبراطوراً

وانما قصصت عليك هذه الامور كلها لكي تفهم باوفر جلاء ما قد رويت لك سابقاً وتعلم ما بقي عليَّ ان اذكر لك. والآن استودعك الله تعالى واعداً اياك اني في نهاية اقامتي هنا اصف لك في رسالة ثانية حالة البلاد الحاضرة وتجارتها وما يؤمل لها في الاستقبال



الرسالة الثامنة

لما كنت قد عمدت ان اتفقد بسرعة اخص مدن الجمهورية قصدت اولاً مدينة « غوادلخارا » وهو اسم عربي في الاصل . فان قلت لي كيف ذلك والعرب لم يدخلوا المكسيك اصلًا فانا اشرح لك السرّ وابين الغامض :

ان كان العرب لم يدخلوا المكسيك فانهم استولوا على اسبانيـة زمانًا طويلًا . والحال ان كلمة غوادلخارا (١) هي اسم مدينة باسبانية محرّف عن « وادي الحجـارة » بالعربية . ولما ان وصل الاسبان الى المكسيك اطلقوا هذا الاسم على احدى المدن الاولى التي اسسوها هناك كما كان شان العرب في اسبانيـة حيث سموا عدة من المدن باسماء مدنهم الاصلية في الشام

وقد سافرت الى المدينة المذكورة في سكة الحديد وهي مدينة كبـيرة في غاية الظرف فيها من السكان نحو مئة الف نسمة . وفي ارباضها كثير من معادن الفضة ويُضرب في دار سكتها سنويـاً من ٦ الى ٧ ملايين فرنك

غير ان اكثر اهمية هذه المدينة متوقفة على ما فيها من الصنائع لكونها مشتملة على كثير من معامل المنسوجات والورق والنشا والسيكارات والزجاج وانواع الحلوى وهذا هو الذي جعلها المدينة الثانية في جمهورية المكسيك

---

(١) ويكتب بالاسبانية Guadalajara و Guadalaxara اما حرفا j و x فيلفظان كالخاء العربية . قال الشريف الادريسي :« وادي الحجـارة ٥٠ ميلًا وهي مرحلتان (عن مدينة طليطلة) وهي مدينة حصينة حسنة كثيرة الارزاق والخـيرات جامعة لاسباب المنافع والغلات وهي مدينة ذات اسوار حصينة ومياه معينة ويجري منها بجهة غربيها نهر صغير لها عليهِ بساتين وجنات وكروم وزراعات وبهـا من غلات الزعفران الشيء الكثير يتجهز بهِ منها ويحمل الى سائر العمالات والجهات »

اما ميدان تمرن الجنود فيها فهو بغاية الفساحة ومربع الجهات وفي وسطهِ بركة ماء وعلى جوانبهِ اشجار كثيرة تقي حرّ الشمس وتكسب منظره رواء وجمالاً. وقد شيدت فيهِ الكنيسة الكاتدرية وهي كنيسة رحيبة وجميلة جدًّا ومجلس نواب الاقليم ودار الحكومة

وفي ٨ كانون الاول الموافق عيد الحبل بلا دنس حضرتُ دورة احتفالية أُقيمت اكرامًا لسيدة « ثابوبان » ذات العجائب وهي مكرمة كثيرًا في غوادلخارا. ولقد ادهشني ما رأيتهُ من تقوى الهنود في الدورة المذكورة فان جميعهم كانوا متكللين بالازهار وبعضهم يرقصون امام تمثال العذراء القديسة على نغم المعازف وبعضهم يطلقون الاسهم النارية وغيرهم يسيرون في الدورة على ركبهم من فرط حرارة ايمانهم

ثم ان المدينة فضلًا عن ما تشتمل عليهِ من وافر الثروة والغنى قد احرزت من الظرف نصيبًا وافرًا لان جميع شوارعها مبلطة ومرصوفة ومنارة بانوار الغاز التي لا تطفأ الا في الليالي المقمرة لا غير كما هو جارٍ في مدينة بيروت. وجميع ساحاتها بالتقريب لا تخلو من برك تتدفق فيها المياه كما ان شوارعها مشتملة على اقنية عديدة يسمونها « اسقية » (١) وهي لفظة اسبانية محرَّفة عن كلمة الساقية بالعربية. على ان هذه ليست اول لفظة وجدتها في الاسبانية من اصل عربي فان امثالها كثيرة وفي فرصة اخرى ان شاء الله اسردها لك تباعًا

اما الجنائن فكثيرة وقلما يوجد بيت بغير حديقة بجانبه وهذا هو اخص الاسباب في اتساع المدينة ورحابتها

وهواء غوادلخارا جيد وملائم للصحة غير ان الغريب الذي يقيم فيها مدة قلما يسلم من التهاب الجفون. ومن تجوَّل في ارباضها رأى التربة مغشاة بغبار الملح الذي تحمله الريح من بعيد ولعله هو السبب الوحيد في التهاب الجفون. ولما كانت جميع الاوقات

---

(١) بالاسبانية acequia

فيها كربيع دائم كان المقام فيهــا حلوًا شهيًا لان المقيم كيف التفت وقع بصره على الورود واشجار البرتقال متفتحة الازهـار منتشرة العرف

وقد زرت ايضًا ولاية « غواناخواتو » ومناجمها الفضية الشهيرة وهي اغنى الولايات في جمهورية المكسيك واكثرها عمرانًا وقاعدتها مدينة « غواناخواتو » ولما كانت واقعة في علوّ يربي على الفي متر كان لا بد في الذهاب اليها من الصعود كثيرًا . وطريقها تمرّ في جبال وعرة مجردة عن كل نبات الا المقر والصبير .

ثم انتهينا الى « غواناخواتو » فاذا هي تختلف كل الاختلاف عن غوادلخارا لان طرقها ضيقة متعوّجة واكثرها كالعقبة الكؤود شاقة المصعد شبيهة بطرق بعض القرى في لبنان ومن ثم كانت هذه المدينة محرومة من العربات لتعذّر سلوكها هناك

ومع ذلك فقد اجتهد الاهالي وقطعوا الذروات والروابي في بعض اماكنها وفتحوا بعض شوارع متسعة ومستقيمة. ورحباتها صغيرة غير منتسقة ولكنها انيقة حسنة . واما منازلها فذات سطوح كمنازل الشرق وهي مفروشة باثمن الاثاث وانفسه ومزينة باحسن الزينات حتى ان الرائي يتخيلها قصورًا. وكنت كيفما تحوّلت وانّى ذهبت ارى الشوارع مزدحمة بالخلق عليهم سيماء الاشتغال والعجلة وهو امر نادر في المكسيك

وفي البلدة منازه كثيرة احسنها سكة عريضة بين صفين من الاشجار تنتهي الى باحة انيقة جدًا غُرست فيها جميع اشكال الانبتة النادرة واقيم في وسطها حوض تنصب فيه كل المياه المنحـدرة من الجبل . وفي ٣٠ حزيران من كل سنة تفتح ابواب السد الحاجز وتتوزع المياه بالاقنية على المدينة حتى يتخذ منها كل بيت حاجته لمدة سنة كاملة .وفي جانب المدينة صخر يطل عليها بُنيت فوقه قلعة قديمة (١) تحوّلت الان سجنًا .

وفي ارباضها قرًى عديدة يأهلهـا مستخرجو المناجم وهي مبنية في الوية الجبـال

(١) تسمى Castillo de Granaditas

ومنحدراتها. اما معامل تنقية الركائز فمبنية في وديان صغيرة. واخص مكان قد توفرت فيهِ المعادن محل يُدعى « ڤالنثيانا » يشتمل على طبقة عظيمة من ركاز الفضة يبلغ عرضها ٩ امتار وفي بعض مواضعها ٥٠ متراً

ومن سنة ١٧٨٦ الى ١٨١٠ كان يُستخرج منها سنوياً بقيمة ٣٨ مليون فرنك. اما عمقها فعبارة عن ٦٢٢ متراً وقد أُخذ في استثمارها من سنة ١٥٦٠ ولكنه في سنة ١٨١٠ امتلأ المنجم الاصلي ماء و بذلت بعض الشركات الانكليزية كل السعي في استئناف تعدينه فلم تفلح وقد قدر انهُ بقي فيهِ بقيمة ٨ مليارات فرنك

اما سائر المناجم فقل المستخرج منها عما قبل وأثر ذلك في احوال المدينة التي لم تُبنَ في هذا المكان القفر الا بسبب وجود المعادن. وقد زرت احد المناجم المذكورة فرأيت فيهِ ٣٠٠ عامل يشتغلون. ونقلتني الى داخله عجلة موضوعة على اسلاك يجرها حصان ودخلت بي في قلب الجبل مسافة كيلومتر. ومما وجدته حقيقاً بالذكر هو ان كل منجم شُيدت بجانبه كنيسة حسنة يمكن للمعدنين ان يقضوا فيها واجباتهم الدينية بغاية السهولة

اما المنازل في القرى المار ذكرها فاكثرها مبني من الفضة وكيفية ذلك ان القطع التي تستخرج من المناجم ان كانت الفضة فيها متوفرة تُحفظ للسحق وتُنقى بالوسائل الكيماوية. اما التي تكون الفضة فيها قليلة فانها تترك وتكوَّم ومن اراد ان يبني لهُ بيتاً اتخذ منها حجارة. ولو فرض ان الفضة تصاعدت اثمانها يوماً تصاعداً عظيماً ما اظن سكان هذه البيوت الا انهم ينقضونها ويستخرجون ما أُودع من الفضة في حجارتها

غير اننا لسوء الحظ لا نرى الامور جارية الا بعكس هذا الافتراض (١). وقد توقف كثير من الاعمال هنا من جراء النقصان البالغ الذي اصاب الفضة. ومع ذلك فقد ضُرب اثناء السنة الماضية في دار السكة بمدينة « غواناخواتو » ما تبلغ قيمتهُ ٢٤

(١) راجع الملحق باخر هذه الرسالة

مليون فرنك منها ٤ ملايين من الذهب والباقي من الفضة المستخرجة من المناجم الواقعة في ارباضها

ومن غريب الامور في هذه المناجم انهُ ينبعث منها اصوات اشبه بخوار الثيران وكثيرًا ما تتكرَّر هذه الاصوات وفي سنة ١٧٨٤ اشتدت اشتدادًا عظيمًا حتى فرَّ السكان مخافة حادث يقع مع انهُ لم يصاحبها شيء من الاهتزاز او الزلزال. ولهذا السبب سموا الجبل القريب باسم « الخائر » (١) .

وغواناخواتو هذه هي اول مدينة غنمها المكسيكيون من الاسبان في حرب الاستقلال ووجدوا في قلعتها مبلغ ٢٥ مليونًا

وفي هذه المقاطعة بعينها مدينة تدعى « ليون » (٢) ومع كونها ليست من المدن العواصم يزيد سكانها على سكان غواناخواتو وهم اهل حرف وصنائع وعندهم معامل كثيرة لحياكة الاصواف والاقطان

وقصارى الكلام انهم كسائر اهالي مقاطعتهم اصحاب اجتهاد وكدّ كفلا لهم برفاهية العيش وسعته. ومع هذا فقد نقص شيء من غضارتهم وايسارهم منذ اصابهم طغيان المياه في ١٨ حزيران سنة ١٨٨٨ فخرَّب في بضع ساعات نصف مدينتهم وامات ستمائة شخص منهم غرقًا وتحت انقاض البيوت

اما « تيبيك » حاضرة المقاطعة المسماة بهذا الاسم ايضًا فهي واقعة بالقرب من البحر الباسيفيكي ومشهورة بجودة هوائها وطيب مقامها كما اشتهرت سائر الثغور البحرية مما عداها بوبالتها ووخامتها. وفيها تصنع كميات كثيرة من السيكار لان ضواحيها تخرج تبغًا جيدًا يضاهي تبغ هافانا الذي سبق الكلام عليهِ

وقد رأيت فيها خاصةً نوعًا من الخبز الشائع استعماله في المكسيك ويسمونه عندهم « تورتيلاس » وهو اشبه بالخبز المرقوق عندنا وهم يصنعونه من الذرة وطعمه تَفِه اقل ما يكون في ذوق الغريب واحيانًا يدخلون فيهِ شيئًا من الشحم والسكر

(١) Bramador (٢) Leon

ويأكله عامة الشعب طعاماً اعتيادياً ويتناولون وراءه قدحاً من الشكولاتا وهي شراب محبوب عندهم كشراب البن عند الشرقيين. اما طريقة صنع الخبز المذكور فهي هذه :

تجتمع اثنتان من النساء عادة وتجثو احداهن على ركبتيها وامامها حجر طويل صلب تجرش عليه باسطوانة من حجر ايضاً حبوباً من الذرة تكون قد القتها في مرجل من الامس وصبت فوقها الماء لتلين . وبعد ان تكون قد جهزت كمية من العجين تتناولها وتأخذ ترقها حتى تصير كقشرة رقيقة فتضعها على طبق من حديد تكون قد رفعتهُ فوق حجرين او ثلاثة واوقدت تحته ناراً

وكل الخبز في المكسيك يصنع على هذه الطريقة اما الخبز على الطريقة الفرنجية فغير معروف الا في المدن الكبيرة ومع هذا لم يزل الشعب فيها وكثير من الاغنياء ايضاً لا يأكلون الا خبز التورتيلاس الذي لا يستعملون معهُ شيئاً من لوازم السفرة كالشوكة والملعقة والصحفة بل يقيمونه مقام هذه كلها كالعادة الجارية الى اليوم عند اهل الشرق

وركبت القطار من تيبيك هذه الى مدينة « سن لويس » المنسوبة الى مناجم الفضة المعروفة باسم « پوتوسي »

ولما دنوت من هذه المدينة رأيت صلباناً كثيرة منها معلق في الاشجار والانبتة ومنها منصوب في حواشي الطرق. فسألت احد الرفقاء عما تشير اليهِ هاته الصلبان وعن سبب تكاثرها فاجابني قائلاً ان جميع هذه الاراضي كانت من زمان غير بعيد مسلوبة الامن والراحة يعيث فيها جماعة من الهنود المتلصصين المعروفين باسم « أپاش »

ولهذا ما كان احد يتجرأ على السفر فيها الا مع القوافل والويل كل الويل لمن تأخر عن القافلة فانه كان يلقى منيته بلا شك من اولئك المتوحشين الذين كانوا يتبعونها سيراً بين الادغال . وفي بعض الاحيان يرشقونها بالسهام المسمومة من كل صوب وهم محتجبون عنها بالغابات الكثيفة . وكانت عادة القوافل ان تعلق او تنصب صليباً في

كل موضع يقتل احد افرادها او يُدفن

ولكي يتخلص المكسيكيون من اذى هولاء الهنود عزموا على استئصالهم ووضعوا جائزة لكل من يأتي برأس احدهم ولما رأوا ان هذه الوسيلة قاصرة عن الغاية التي يرومونها حركوا عليهم قبائل اخرى من الهنود تدعى «كومنش» معروفة بعداوتها لهم. اما الان فلم يبق من الاباش الا عدد يسير بذلوا الطاعة صاغرين وأُقيم اكثرهم خفراء على محطات سكك الحديد المارة في الاراضي التي ملأوها من قبل بجثث القتلى

ولما انتهى الخبر من خبره التفت اليَّ رفيق آخر متقدم في السن وقص عليَّ ما انا راويه لك قال :

« من نحو ٢٥ سنة سافرت من « مونتيري » الى مدينة سن لويس دي پوتوسي وكنت في جملة قافلة مؤلفة من ١٨ شخصاً كلهم مدججون بالسلاح وثاني يوم سفرنا انتهينا الى وادٍ عميق تكتنفه سلسلتان من الجبال فما كدنا نتوسطهُ حتى وقعت علينا السهام كالبرد المتساقط وقتل اثنان من رفقاني وجرح اثنان جراحاً بالغة فصحنا جميعاً بصوت واحد « أباش. كومنش » وتناول كل منا بارودته وأطلقها ولكنا لم نرَ احدًا ممن رشقنا فان عادة هولاء الهنود ان لا يعرّضوا نفوسهم للمخاطر

« ومع ذلك كنا نعلم حق العلم انهم يراقبوننا ويتتبعون خطواتنا اذ ابصرناهم بعض المرّات يسيرون بمواجهتنا في اعالي الجبال. ومن ثم صرفنا بقية مدة السفر ونحن مذعورون وخائفون وكنا اذا ادركنا المساء قبل ان نصل الى القرى وقف اربعة منا يحرسون القافلة بالتناوب. واما في مدة مسيرنا بالنهار فكنا دائماً نتطلع وننظر. ومن ذلك الوقت وقع في قلبي خوف شديد من ذوي الجلد الاحمر »

فارتعدت فرائصي فرقاً من هذه الاخبار وشكرت الله تعالى على كوني زرت المكسيك في زمن لا اخشى فيه مثل هذه المخاوف

ثم انتهينا الى مدينة سن لويس دي پوتوسي وكانت سابقاً وافرة الثروة بسبب مناجم الفضة المعروفة باسم پوتوسي اما الان فقد اهمل العمل فيها ومع هذا لم تزل المدينة

من اهم مدن المكسيك واعلاها منزلة . غير اني لم اقف فيها الا زمناً يسيرًا وقد اقمت مدة اطول في «كيريتارو» حباً باستطلاع ما فيها من الآثار التاريخية

ولما كنت قد وصلت الى هذه المدينة يوم احد جعلت اطوف في شوارعها واسواقها فأرى في كل مكان جماعات بأحسن اللباس واثمنه . وكنت اتعجب في بادىء الامر من هذا الاسراف البليغ اما الآن وقد كشفت السرّ وعرفت السبب فبطل العجب واليك الخبر

ان كثيرًا من الاهالي لا يلبسون في بحر الاسبوع غير كلسون ابيض يلتحفون فوقه برداء ولكنهم اذا جاء يوم الاحد لبسوا كسىً مزخرفة بالفضة قد تبلغ قيمة احداها من ستمائة الى ثمانمائة فرنك ولهم طريقة حسنة للغاية في الالتحاف بالاردية تكسبهم جميعاً ظرفاً وكياسةً . ويكفي هذا البيان ليوضح لك ان الاسراف لم يدخل سورية وحدها

وفي سنة ١٨٦٤ بعد ان كلّ المكسيكيون من ثوراتهم المتواصلة ارادوا ان يقيموا عليهم حكومة ثابتةً فاستدعوا الارشيدوق مكسيميليان اخا امبراطور النمسة لكي يتولى امورهم ولقبوه بامبراطور المكسيك ولكن القلاقل ما لبثت ان احتدمت نيرانها في كل صوب وبالرغم عن تداخل فرقة من الجيش الفرنسي سجن الامبراطور وأُميت باطلاق الرصاص في ١٩ حزيران سنة ١٨٦٧ مع اثنين من قواده وقد سيق جميعهم الى ذروة تبعد مسافة كيلومتر عن العاصمة وبينما هم في الطريق سلم الامبراطور لكل من الجنود الذين كانوا مزمعين ان يطلقوا عليه الرصاص مئة فرنك سائلاً اياهم ان لا يخدشوا وجهه بل يصوبوا البنادق نحو صدره ولما انتهوا الى المكان المعين أُديرت وجوههم لجهة المدينة وشربوا كاس الموت كالابطال . وقد رفعت حيث تصرَّعوا ثلاثة أعمدة

وبين كيريتارو ومكسيكو جرت لي الحادثة الاتية وهي ان احد المسافرين الذي عرفته من هيئته انه فرنسي بعد ان اطال توسمه فيّ دنا مني واستأذنني ليشعل

سيكاره ثم قال لي : أ أنت فرنسي ياخواجا

قلت : كلا انا سوري ولكني قد تعلمت الفرنسية من صغري

قال : لا يهمني ذلك واظن اني قد وجدت فيك الرجل الذي ارومه لاشغالي

قلت : قد يكون ذلك ولكن تكرم ان شئت واطلعني على هذه الاشغال

اجاب ان عندي مخزنًا لبيع الانسجة والعطريات وحانوتًا لحلاقة يتردّد اليه نخبة السكان في مدينتنا « تولا » (١)

فقلت وما عساني ياخواجا ان أفعل في هذا المخزن « الكبير » وفي مدينة كمدينة تولا وانا شاب حديث السن لم اتعاطَ مثل هذه الاشغال عمري كله

— الا تعلم ان الجميع في اميركا يمكنهم بل يجب عليهم ان يتعاطوا الاشغال. هلمّ اليّ انا اعلمك واخولك مركزًا

— أمن زمان طويل سكنت تولا

— من خمس سنوات وقد ربحت عشرة الاف دولار. ثم اعلم — وذلك سرّ بيننا — ان لي ابنةً . . .

— كيف هي

— قد اتفق الكل على مدح خصالها

— وهل هي متعلمة

— قد تلقت دروسها في دير الراهبات الفرنسيات في مكسيكو

— لكن ياخواجا هذا تكرُّم زائد من قبلك ولا اظنني جديرًا بهذا المركز الحسن. وكم لابنتك من السنين

— هي في سن الثالثة عشرة

---

(١) في المكسيك مدينتان بهذا الاسم Tula de Hidalgo و Tula de Tamaulipas, وهما صغيرتان

— لم تزل صغيرة

— ليس عليك الا ان تنتظر حتى تدرك السن المطلوب وفي خلال هذا الوقت تتدرب في الاشغال

ولما كنت غير ميالٍ الى تعاطي مبيع العطريات ولا الى الجلوس في حانوت الحلاقة اجبت الفرنسي باني سأمعن التأمل في هذا الامر . ثم صفر القطار منبهاً ايانا انهُ وصل الى محطة مكسيكو فودَّعت رفيقي باخلاص ومودّة وما مضى ربع ساعة حتى نسيته ونسيني

ذيل

مسألة قيمة الفضة

من جملة المسائل الحاضرة التي لم يفطن كثيرون لاهميتها مسألة هبوط قيمة الفضة وبناء عليه رأينا ان نثبت البيان الآتي ايضاحاً لمنزلتها من الخطارة فنقول

ان الكيلوغرام من الفضة المعتبرة قيمته الرسمية بنحو ٢٢٠ فرنكاً لا يساوي الان اكثر من ١١٧ فرنكاً فيكون قد خسر ٤٦ في المائة

اما عدم احتفال الناس بهذه المسألة وقلة التفاتهم اليها واكتراثها بها فسببه اولاً انه ليست من صناعة تفتقر الى استعمال الفضة مباشرةً الا صناعة الصياغة لا غير . ثانياً ان الجمهور يرى من وجه آخر ان القطع التي بقيمة ٥ فرنكات مثلاً لم تهبط الى فرنكين و ٧٠ سنتيماً بل يمكن ان تصرف في كل حال بخمسة فرنكات ذهباً بما ان قيمتها ليست متوقفة على ما فيها من الفضة وقدره ٢٢ غراماً ونصف ولكن على ضمانة . غير ان هذه الضمانة لا تشمل الا القطع المضروبة في فرنسة وسائر ممالك «الاتحاد اللاتيني» اي بلجكة وسويسرة وايطالية واليونان . وعلى ذلك فان قطعة

فضية من پيرو والمكسيك مثلًا وان كانت مشتملة على نفس كمية الفضة التي يشتمل عليها الفرنك الفرنسي لا تروج مع ذلك الا بقيمة ٥٤ سنتيم اي بنقص ٤٦ سنتيمًا عن الفرنك المذكور

ومن ثم كان انحطاط الفضة غير لاحق فقط بسبائك هذا المعدن بل ايضًا بالبلاد التي تعوّل من المسكوكات على الفضة في علائقها التجارية مع سائر البلاد التي تكون اكثر مسكوكاتها قطعًا ذهبية

ولقد أثّر تأثيرًا مهمًا للغاية في تجارة اوربة مع اميركة والشرق الاقصى وانعكس هذا التأثير على اسواق الحاصيل التي هي اوفر انتشارًا مثل الحبوب والاقطان اذ ان هبوط قيمة الفضة التي هي نقود التعامل في الهند هو من جملة الاسباب التي آلت الى انحطاط اثمان الحنطة . فيتحصل مما تقدّم انه بكمية متماثلة من الذهب او بنقود فرنسية او انكليزية او المانية يمكن ان يستجلب من الهند كمية اوفر من الفضة وبالتالي كمية اوفر من الحنطة التي رخصت اثمانها في كل الاسواق بنسبة نقصان قيمة الاولى وحدث عن ذلك خسارة عظيمة لاهل الزراعة

ثم ان نقصان قيمة المعدن الابيض يرجح انه لا يقف عند الحدّ الذي وصل اليه الان بل يتخطاهُ ويعبث بسعادة جميع البلدان مهما بلغت من الثروة ويضرّ بجميع ارباب الاعمال ومن المحتمل انه يؤول الى الغاء التعامل بالفضة في كل الجهات ويجرّ الى ضيقة مالية شديدة لم يتقدمها نظير من القرن السادس عشر

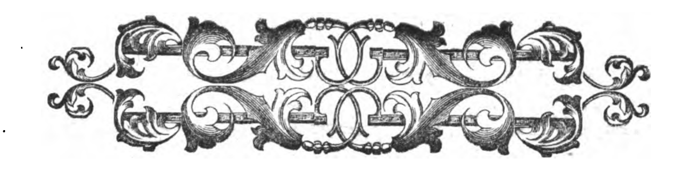
ومن ثم فان مسألة النقود التي تغاضى عنها العموم كل التغاضي صارت الآن في مقدمة المسائل المهمة لانه ليس من بلية يمكن ان تجرّ الى انقلاب عظيم في الهيأة الالفية مثل هذه المسألة الخطيرة

ولا نكير ان الناس اليوم صاروا بمرأى من حادث مدهش لم يتقدمه نظير في تاريخ الشعوب المتمدنة فانه لم يمرّ زمن انحطت فيه قيمة هذين المعدنين الثمينين كل هذا الانحطاط وبمثل هذه السرعة . ففي سنة ١٨٧٣ كانت النسبة بين قيمة الذهب والفضة

عبارة عن ١ بالقياس الى ١٥½ اي انها كانت منطبقة على الاتفاق الرسمي اما في سنة ١٧٩٠ فقد لحقت الخسارة بالفضة مع ان النسبة كانت عبارة عن واحد بالقياس الى ١٨ والآن صارت عبارة عن واحد بمقابلة ١٩ فيكون قد بلغ الانحطاط في مدة ثلاث سنوات اكثر من الثلث واذا استمرّت الحال على هذا المنوال لا تأتي سنة ١٨٩٦ حتى تنحط قيمة الفضة الى ربع ما كانت تساوي سابقًا

ولو ان الانحطاط كان عارضًا او منحصرًا في محل معلوم لهان الامر ولكنه شائع وقد اخذ ينتشر في العالم كله وهو من نحو الفي سنة للان اي من حين اختراع النقود لم يمرّ بالاسماع ولم ترَ العيون حادثًا كهذا

على ان الامر الذي يزيد الناس قلقًا واضطرابًا من هذا القبيل هو انهم مع كل ما بذلوا من المساعي لم يظفروا بدواء شافٍ من هذا الداء المعضل فلقد بحثوا وتجادلوا ونظروا في كل الوسائط التي ارشدتهم اليها الحكمة البشرية ولم يجدهم كل ذلك شيئًا واصبح اعاظم رجال السياسة اليوم يتحاشون الدخول بهذه المسألة لاعتبارهم اياها مشكلًا غير قابل الانحلال



الرسالة التاسعة

بعد عودتي الى مكسيكو أجبت دعوة صديق لي باسم «سرّانو» كان قد سألني ان أزور مزرعة لهُ واقعة على مسافة من الحاضرة و بذلك تيسر لي الاطلاع على طرائق الزراعة في هذه البلاد

والمزرعة هنا تدعى «هثيندا» (١) فلا ترادف كلمة «عودة» في اصطلاح عامة اللبنانيين التي يراد بها ملك يسير يعتني بهِ الشريك بوجه المساقاة ولكنها كناية عن اراضٍ متسعة تختص بمالك واحد وربما بلغت مساحتها في بعض الاحيان مساحة متصرفية ويكون فيها مستغلّ اي موضع تودع فيهِ الغلال وهو بناية حصينة حولها قرية مؤلفة من منازل الخدَمة والفلاحين . فعند هذه البناية التي يسكن فيها صاحب الملك تتلاقى جميع الطرق والمسالك متوجهةً اليها جميعاً كتوجه الخطوط الى نقطة الدائرة. وبالقرب اليها تقام اسواق البيع كما تبنى على مسافة يسيرة من القرية حظائر واسعة ليلجأ اليها الرعاة بمواشيهم اذا خشوا غارات المتلصصين من الهنود . وها أنا ذا اصف لك مزرعة صديقي المقدم الذكر لتقف من ذلك على حالة سائر المزارع بهذه الديار فاقول:

ان الجانب الاكبر من مسكن صاحب الملك عبارة عن بناية متراصة ذات طبقة واحدة بهندسة بسيطة لكنها على غاية المتانة وفي داخلها غرفة متسعة يليها بضع حجرات ليس فيها الا سروج وبواريد معلقة في الجدران مع قليل من الاثاث كموائد وكراسي وخزائن. وخلف المسكن فسحة كبيرة مبلطة وعن يمينه مخبز وعن يساره اصطبل للعربات ووراء الفسحة مسرح للخنازير مع بركة تصب فيها عين ماء جارية . وقد اندهلت من تهافت الخنازير على الاغتسال في هذه البركة وما اكسبها ذلك من العبالة والجسامة لان جميعها بسمن مفرط واكتناز ليس عليه من مزيد حتى ان الشحم

---

(١) hacienda

ليرى له بريق من تحت جلودها

وقد قال لي صديقي المرقوم ان الخنازير من ذات طبعها تبغي النظافة ولكنها ان كانت تتمرّغ في الوحول فذلك عن اضطرار لعدم قيام اصحابها بتنظيف مزاربها . ومع اني كنت على خلاف رأيه لم اعارضهُ فيما زعم وقلت لعل لهُ اسباباً تدفعهُ الى ذلك

و بعد ان زرنا البنايات الكبيرة وما خلفها عدنا الى زيارة ما هو امامها فرأينا باحة بغاية الفساحة بُنيت في اطرافها اكواخ الفلاحين (١) والعملة القائمين بخدمة المزرعة وحراثتها وما بين هذه الاكواخ شاهدنا منزلاً ممتازًا عنها ببعض الامتياز وهو منزل الخوليّ او الوكيل المكلف بادارة الاعمال

وجميع البيوت المذكورة مبنية بشكل دائرة من ورائها حقول متسعة يشقها بعض الجداول التي تسقي المزروعات. وبجذائها مكبس وافران وعدة خلاقين لصنع قصب السكر مع بستان حافل باصناف الاشجار المثمرة. والقسم الاوفر من المزرعة مفلوح ولم يُترك فيها الا قسم صغير لتربية المواشي

وتوجد مزارع غير هذه مسيرة يومين الى ثلاثة ايام مخصوصة بتربية الأنعام حتى انهُ يكون فيها قطيع وافر من البقر لا يقلّ عن اربعة الاف مع قطيع من الغنم نحو خمسة الى ستة آلاف راس

وقد ذهلت عن اخبارك ان الخواجا سرّانو صاحب المزرعة رغبة منهُ في تسهيل الامور الدينية على مزارعيه شيد لهم كنيسة في الساحة الواقعة امام المنزل الذي تقدم وصفه ولمزيد تقواه يجمعهم اليها كل مساء لتلاوة المسبحة حتى اذا فرغوا منها انشدوا بعض الترانيم في مديح سيدة غوادلوب و بعد ذلك يقبلون يد مولاهم بل ابيهم ثم يتفرقون الى منازلهم . ويوم الاحد يأتي احد الكهنة فيقيم لهم القداس الالهي و يوزّع عليهم الاسرار المقدسة كلما دعت الضرورة

(١) ويطلق عليهم اسم peones

والان هلمّ بنا لنبحث عن احوال المزارعين الذين يقومون بفلاحة هذه الاملاك الواسعة وحراثتها. فاعلم ان الملاك (١) يقيد بخدمته العائلات الفقيرة ويعطيها في بادئ الامر من الاجرة ما هو دون الطفيف. واعظم من ذلك هو انه يفتح حانوتاً ويملأه من كل ما يفتقر اليهِ المنزل من زيت وصابون ونسيج وبقول وغير ذلك

وبما ان الفلاح لا يستطيع ان يتناول حاجاته من محل آخر لبعد المدن عنه يقبل على شراء ما يلزمه من الحانوت المذكور بوجه النسيئة ولكنه لا يشعر بعد زمان الا وقد تراكمت عليه الديون حتى يعجز عن وفائها. وحينئذٍ يفرض عليهِ مولاه اجلاً مسمى يشتغل بـهِ من دون اجرة حتى يفي آخر فلس عليه

ولعلك تقول ان هذه المعاملة اشبه شيء بالعبودية فلا أُخالفك في ذلك بل ازيدك انها اغلظ أصناف العبودية ولاسيما اذا كان الملاّك قليل الديانة لانهُ حينئذٍ يستجيز كل المحرّمات فيبيع الفلاّح أخس الاشياء باثمان فاحشة حتى يضطره الى التقيد بخدمته مدة الحياة بطولها. وقد تداخلت الحكومة اكثر من مرة في هذه المسألة ولكن المزارع لما كانت بعيدة عن المدن استمرّت النظامات الموضوعة في هذا الشان بدون تأثير

غير ان هذه المعاملات السيئة ليست بموجودة عند الملاكين الكاثوليك مثل الخواجا سرّانو لان هولاء يعاملون مزارعيهم كما ينبغي ان تُعامل الكائنات العاقلة لا كما تعامل العجماوات ويهتمون فوق ذلك بتحسين احوالهم واذا مرض احدهم عادوه واستقدموا لهُ الطبيب واحضروا الادوية على نفقتهم كما يفعل الخواجا سرّانو مع مزارعيه ولذلك كانوا جميعاً يحبونه محبة يستحقها

ولا تظن انهُ ليس في المكسيك الا مزارع لكبار الملاّكين بل فيها ايضاً املاك صغيرة تدعى عندهم باسم «رنكو» يستغلها بعض الفلاحين ولكنها قليلة لا تتجاوز

(١) بالاسبانية haciendado اي صاحب «هثيندا»

مساحتها ٦٥ الف هكتار بينما ان المزارع تبلغ ثلاثة ملايين و ٩٣٥ الف هكتار

غير ان اتساع الاملاك التي قد يسير فيها الماشي نحو ٥٠ ميلًا دون ان يجد مسكنًا مهد السبيل لتوافر اللصوص الذين كثيرًا ما عاثوا في البلاد وحتى الان لم تمح آثارهم ولاسيما في النواحي البعيدة

هذا وصف الاماكن التي رأيتها بنفسي وقد بقيت بعض ولايات بعيدة عن مكسيكو ليس من سكة حديدية تؤدي اليها . ومن جملتها مقاطعة «كاليفورنية السفلى» وهي قليلة الاهمية ومعدَّل السكان فيها واحد في كل ٣ كيلومترات. ومع ذلك تشتمل على معادن خطيرة جاءها الاميركيون اكثر من مرَّة واستخرجوا ركائزها دون ان يستأذنوا حكومة المكسيك

وفي سنة ١٨٨٤ كشف بعض المعدّنين من اهالي المكسيك بقايا معمل كبير كان الاميركيون قد اقاموه هناك مع مستودع وسكة حديد واعمال اخرى تشغل جميعًا مسافة ٦ كيلومترات فمن هذا يُستنتج ان المشروع كان كبيرًا والفعلة عديدين ومع ذلك فانهُ لم يجرِ مطلقًا اعلام حكومة مكسيكو بوجوده

ولبث الاسبان مدة ١٥٠ سنة دون ان يتمكنوا من استيطان هذه الناحية بسبب توحش الهنود سكانها فاستقدموا اليهم حينئذٍ جماعة من اليسوعيين الذين مات الاولون منهم قتلًا بايدي البرابرة فخلفهم آخرون تمكنوا بفطنتهم ودرايتهم من الامتزاج بالسكان واستمالتهم لان منهم من احترفوا التجارة وغيرهم البناء والحياكة وآخرون الزراعة وأدخلوا عدة انبتة منعت من ذلك الوقت تجدد المجاعات التي كانت تفتك بالبلاد في بعض السنين فتكًا ذريعًا

وقصارى القول ان كاليفورنية نالت اوانئذٍ حظًا وافرًا نضبت عنها موارده من حين ما غادرها هؤلاء المرسلون الافاضل بدسائس بعض اعدائهم الذين حرّضوا ملك اسبانية على اخراجهم منها . ومذ ذاك عادت كاليفورنية الى خمولها ورجع الهنود الى سابق بربريتهم

وفي كاليفورنية هذه مناجم من الذهب يمكن ان يستخرج منها سنويًا بقيمة اثني عشر مليونًا واهل السواحل فيها يصطادون اللؤلوء والاسفنج. ولو انها كانت تحت ولاية حكومة حسنة النظام لكانت بلغت بوقت قليل درجة رفيعة من اليسار والغنى

وتجاه كاليفورنية مقاطعة اخرى باسم « سونورا » منفصلة عن الاولى بمضيق بحري. ومع كون مساحتها تعادل نصف مساحة فرنسة لا يكاد سكانها يبلغون عدد سكان بيروت

واحسن الثغور البحرية في هذه المقاطعة انما هو ثغر « غويماس » وقد التقيت ببعض السوريين المتعاطين المبيع فيهِ كسائر امثالهم في اميركة وتكرَّم عليَّ بالتفاصيل الآتية التي انا راويها لك. قال:

ان اراضي البلاد نهاية في المحولة والجدب لا ينمو فيها شجر ولا ترشح قطرة ماء ومدينة غويماس مكتنفة من جميع جوانبها بجبال يضرب لونها الى الشقرة تخترقها المضايق والمهاوي المخيفة. ومن دخلها يرى فيها آثار الحزن بادية وعلامات الكمد ظاهرة نظرًا لشدة حرّها وفقدان كل صنف من الخضر والبقول فيها. اما ابواب المنازل والشبابيك فتكون مقفلة طول النهار بسبب وغرة الحرّ ولا تفتح الا مساء والسكان ينهضون قبل الفجر ويبادرون الى الرقاد في اول الليل وكثير منهم ينامون كبعض اهل الشرق على السطوح التي يسمونها بلغتهم azotea وهي كلمة اسبانية منقولة عن السطح في العربية

وليس في ارباض المدينة عيون جارية ولهذا يضطر الاهالي ان يأتوا بالماء من ناعورة في احدى القرى المجاورة. وعندهم لنقل الماء حمَلة مخصوصون يكونون دائمًا من الهنود لكنهم يختلفون عن السقائين في مكسيكو بكونهم لا يحملون الماء على ظهورهم بل يأتون بهِ على ظهور الحمير. والحمير عندهم صغيرة الاجسام هلباء جرباء تمشي منكوسة الرؤوس ومسترخية الآذان ولا غرابة في ذلك لان بلادًا كبلادهم معدومة من الحشائش والبقول ينبغي ان تكون فيها هذه الحيوانات باسوإ الاحوال

هذا وان السقائين يأتون بالماء في ضمن قِرَب باوبارها يلقونها على ظهور الحمير

ومتى وصلوا بها الى المنازل يفرغونها في الجرار لكي تزول سخونتها قليلاً ويركد عكرها . وحينئذٍ يتناولون سيكارات من وراء آذانهم او من ضمن برانيطهم فيشعلونها ثم يركبون حميرهم ووجوههم الى اذنابها لتقوم لديهم مقام سوط وسند معاً وهكذا يعودون الى الناعورة لاستئناف جلب الماء

لكنه اذا كانت المدينة بادية عليها سمات الاكتئاب والكمد الا ان مرفأها من اجمل مرافئ المكسيك لان مياهه هادئة وراكدة كل الركود . ومن اجل هذا اخذت السفن تكثر من غشيانه حتى ارتفعت منزلة التجارة بعض الارتفاع وشرعت تسير في سبيل النجاح . وقد انشئت مؤخرًا سكة حديدية وصلت الثغر بمدينة « هرموسيلو » وهي اكثر مدن المقاطعة عمراناً وسكاناً واوفرها اهمية وخطارة نظرًا لثروتها الزراعية وما أُودعت ارضها من مناجم الفضة

اجل ان جميع مقاطعة سونورا مع مملكة « سينالوا » الواقعة في جنوبيها مشتملتان على عدد وافر من المناجم الا انهما لسوء الحظ لبثتا مدة طويلة من الزمان مجالاً لغارات قبائل الاپاش من الهنود فوقفت من ثم هذه الامور مع ما حدث من البلابل والقلاقل في المكسيك حاجزًا حصيناً دون تقدمها المادي

ولولا ذلك لكانت الولايات المكسيكية بلغت مبلغاً عظيماً ووصلت الى درجة رفيعة اولاً لان الطبيعة قسمتها الى اقسام ثلاثة متميزة من حيث الهواء يُعد اولها في المنطقة الحارة والثاني في المعتدلة والثالث في الباردة ولا يخفى ان بلادًا بهذه الصفة يمكن ان يستخرج منها كل ضرب من المحاصيل . ثانياً لان باطن تربتها يضم من المعادن ما لا يفي بهِ الوصف ومن فكر في ذلك لا بد ان يأخذه العجب كيف انها حتى الان لم تنتفع الاَّ قليلاً جدًا مما اخصها الله بهِ من الفوائد الجزيلة

وفي شمالي المكسيك ولاية تدعى « شيهواهوا » ليس فيها على التحقيق الاَّ مدينة واحدة باسمها وكانت هذه المدينة في القرن الماضي وقت الاشتغال بتعدين المناجم التي تجاورها حاوية ٧٥ الفاً من السكان . اما الان فانها سقطت عن منزلتها الاولى واصبح

سكانها اقل مما كانوا بستة اضعاف . ولكنه من بضع سنوات استؤنف العمل في مناجمها وضربت دار سكتها في مدة ١٠ سنوات ٢٧٠ مليوناً

وقد علم الان ان الحجارة التي بنيت بها منازل المدينة تتضمن في الاقل مليارين من الفضة . ومن مراد بعض اهل الصناعة ان يهدموها لكي يستخرجوا منها هذا المعدن الثمين . اما اكبر بناية في «شيهواهوا» فهي كنيستها العظيمة التي كلفت ٨٠٠ الف قرش مكسيكي تبرع بها اصحاب المناجم

واخص مناجم هذه المقاطعة موجودة في «سنتا اولاليا» قرية على مسافة ٣٠ كيلومترًا لجهة الجنوب ونظرًا لخلوها من العيون الجارية حفر الاهالي في مضيق الجبل بئرًا عظيمة يجمعون اليها مياه الامطار . غير ان هذه المياه تتوافر فيها الاملاح والعناصر المعدنية ومع رداءتها كثيرًا ما تُحرم منها القرية فيحصل الاضطرار وقتئذٍ الى استجلاب الماء من الاماكن البعيدة

وفي الجهة الشمالية من شيهواهوا ولاية تلقب بولاية «دورنغو» لها قاعدة باسمها وهي مدينة كبيرة حازت درجة رفيعة من الاهمية نظرًا لوفرة ما حوت تربتها من المناجم . وعلى مسافة كيلومترين من شماليها جبل من الحديد بارتفاع ١٩٦ مترًا يشتمل على اكثر من ٤٦٠ مليون طن من المعدن المذكور اي ما يربي على مقطوعية اميركا جمعاء مدة قرن كامل

وكانت دورنغو تسمى من قبل مدينة العقارب وفي سنة ١٨٦٥ وعدت الحكومة كل من يقتل واحدة من هذه الهوام المؤذية بجائزة خفيفة فلم يمض شهران حتى حُمل الى المجلس البلدي خمسة وخمسون الفًا منها

اما سائر المدن في الولاية المذكورة فان وجودها ورفاهها يتوقف كلاهما على ما في تربتها من مناجم الفضة التي تشتمل ايضًا على كميات من معادن اخرى كالذهب والرصاص والقصدير ولكنها يسيرة

وجميع هذه البلدان مهملة كل الاهمال من حيث الديانة . أجل ان اكثر الاماكن

فيها مشتملة على كنائس ولكن الكنائس محرومة من الكهنة ومن جراء هذا دخل ما بين الهنود سكان القرى خرافات عديدة وفي بعض المواضع كادت الديانة تمحي آثارها

اما ولاية « كواهويلا » التي قاعدتها « سلتيلو » فلم يتيسر لي ان افوز بالمعلومات اللازمة عن احوالها. وغاية ما عرفت عن مملكة « لاون الجديد » هو ان قاعدتها تدعى « مونتيري » وان الزراعة فيها بنماء ونجاح وهذا الذي آل الى زيادة اهاليها حتى صار يُعدّ منهم اربعة سكان في كل مسافة كيلومتر اي بزيادة اربعة اضعاف عما في سائر ممالك المكسيك الشمالية ،

ومن حيث اني لم اسافر ايضاً الى داخلية البلاد اضطرّ ان اخبرك بوجه الاختصار عن ولايتي « تاكاتيكاس واغواس كالينتس » فاعلم ان ولاية تاكاتيكاس كثيرة العيون والجداول ولهذا كانت أشهى للاقامة من سائر الاقاليم التي مر ذكرها وما عدا ذلك فيها من مناجم الفضة ما لا يقل قيمةً عن مناجم بقية النواحي المكسيكية. وفيها كذلك عيون معدنية الاَّ ان العيون النابعة في اقليم « اغواس كالنتس » هي اوفر شهرة حتى ان الاقليم تسمى باسمها لان معنى « اغواس كالنتس » المياه الحارة (١) . وفي هذا القدر عن هذه النواحي كفاية

اخص مدن الولايات الغربية والشمالية مع عدد سكانها

سنة ١٨٧٧

ولاية كاليفورنية السفلى

لاپاث	٣٧٢٠	ساكن
سان انطونيو	٣٩٠٠	«

---

(١) Aguas Calientes

ولاية سونورة

هرموسيلو	١٥٠٠٠	〃
الاموس	٧٠٠٠	〃
غويماس	٣٠٠٠	〃

ولاية سينالوا

كولياكان	١٩٦٠٠	〃
ماثتلان	١٧٤٠٠	〃
سينالوا	١٥٤٠٠	〃

ولاية دورنغو

دورنغو	٢٨٤٥٠	〃
مشكيتال	٩٠٥٠	〃
ناثاس	٦٥٢٥	〃

ولاية كواهويلا

سلتيلو	١٨٥٠٠	〃
پاراس (Parras de la Fuente)	١٢٦٠٠	〃

ولاية لاون الجديد (Nuevo Leon)

مونتري	٣٥٤٦٠	〃
لينارس (Linares)	١٠٨٥٠	〃

ولاية ثاكاتيكاس

ثاكاتيكاس	٣٠١٢٠	〃
فرسنيلو (Fresnillo)	٢٨٦٠٠	〃
پينوس	٢٣٥٠٠	〃

ولاية مار لويس پوتوسي

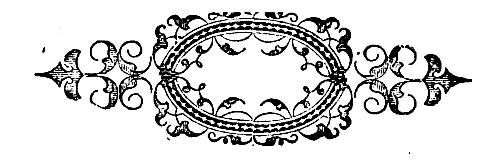
مار لويس پوتوسي	٧٠٠٠٠	〃
ريو ڤيردي (Rio-Verde)	٢٦٠٤٠	〃

ولاية غواناخواتو

لاون (Leon de los Aldamas)	٨٠١٠٠	〃
غواناخواتو	٥٨٣٠٠	〃
دولوريس (Dolores-Hidalgo)	٤٤٩٨٠	〃
سيلاو	٣٢٧٤٠	〃
سلامنكا	٢٤٠٠٠	〃

ولاية خاليسكو

وادي الحجارة (سنة ١٨٨٨)	١٠٥٠٠٠	〃
لاغوس (Lagos de Moreno)	٤٢٤٠٠	〃
سيولا	٢٦٤٠٠	〃
لابركا	٢٣٠٠٠	〃



الرسالة العاشرة

بعد ان صرفت اكثر من شهرين في هذه الجهة يتيسر لي ان اكلمك عن جغرافية البلاد الطبيعية مضيفاً الى ذلك ما عنَّ لي من الملاحظات عن حالتها الحاضرة ومستقبلها فاقول:

قد علمتَ من رسائلي السابقة ان المكسيك بلاد ذات جبال عالية فلو مثلتَ لذهنك قرية مبنية فوق قمة صنين لجزمت انها حتى في قلب الصيف لا تكون حسنة المقام لحرمانها من كل اصناف الخضرة وخلوّها من المياه. اما في الشتاء والعياذ بالله فانها تصير الى اسوإ حال اذ تندفن بالثلوج حتى يمتنع على كل مخلوق بشري ان يعيش فيها ولكن ما تعذَّر وجوده عندنا في سورية وجد متحققاً هنا فمدينة مكسيكو تكاد تكون بارتفاع جبل صنين وكثير غيرها من المدن والقرى هي اوفر منهُ ارتفاعاً بل ان هنالك ايضاً مزرعة يبلغ علوّها نحو اربعة آلاف متر اي ما يزيد على أعلى جبال لبنان ارتفاعاً (١)

واكثر الجبال في المكسيك ان هي في الاصل الا براكين قديمة انطفأت نيرانها في الوقت الحاضر ولكن بعضها لم يزل مضطرم السعير ويقذف على الدوام دخاناً وابخرة مائية. وفي سنة ١٨٨٥ كان جبل «كوليما» يقذف بكوم من الرماد

وفي اواخر القرن الماضي انفتح احد هذه البراكين في منبسط من الارض فسيح مزدرع بقصب السكر وقد سبق ظهوره قصيف كتصيف الرعود استمرّ دويّه مسموعاً مدة اشهر تحت الارض

واشهر البراكين في المكسيك بركان يسمى «بوبوكاتيبتل» وهو اسم هندي معناه جبل الدخان ويبلغ ارتفاعه ٥٢٠٠ متر بحسب تقدير البعض و ٥٤١٢ متراً بحسب تقدير غيرهم ولا يزال دائماً مغشى بالثلوج البيضاء. وفي قمته فوهة محيطها كيلومتر وعمقها ٧٥ متراً ولا تزال مملوءة بالثلج

غير ان مقذوفات البخار تحدث في الثلج صدوعاً كثيرة حاملةً الى سطحه كميات من

الكبريت تُرى من بعيد كالبقع الصفراء وكل يوم يأتي أناس (١) ليجمعوها . وينزلون في شبه زبابيل تنخفض وترتفع بقوة آلة يقيمونها على فم الفوهة ويبلغ ما يجمعونهُ في طول السنة من الكبريت المذكور ٤٨ طناً ولو انهم بذلوا اجتهاداً اوفر لكانوا يجمعون ١٠ اضعاف فوق ذلك لان البركان يخرج كل يوم نحو طن في الاقل

ثم ان البركان المذكور يقوم عند سكان القرى المجاورة بمثابة مقياس لاحوال الجوّ فمتى كانت الجزتهُ حالكة السواد متجهة نحو الشمال استدلوا على وشك وقوع الامطار . ومتى صعد دخانه مستقيماً استدلوا على هبوب ريح عاصفة او زلزال في الارض. وقبل ان تثور العاصفة بساعتين او ثلاث يتصاعد من الفوهة كمية وافرة من الحمَم والحجارة . اما جيرة البراكين المذكورة وان كانوا من زمان طويل لا يخشون ثورانها الا انهم لا يزالون على الدوام عرضة للزلازل

ولما كانت ارض المكسيك كثيرة الجبال لم يكن فيها من انهار عظيمة واكبر انهارها نهر « براڤو » الذي يدعى ايضاً « غراندي دلنورتي » (٢) ومياههُ ليست جزيلة الغزارة ولكن طول مجراه يبلغ نحو ١٢٠٠ كيلومتر وهو الحد الفاصل بين الولايات المتحدة والمكسيك . ومما لاحظتهُ هنا على وجه الخصوص ان الينابيع تدعى « عيوناً » (٣) كما في العربية تشبيهاً لاماكن خروج الماء باماكن ظهور البصر . وهواء المكسيك بالاجمال من الاهوية التي يعرض لها التباين الشديد في مسافة قصيرة

وقد اخبرتك سابقاً اني في يوم واحد مدة سفري من ڤيرا كرووث الى مكسيكو تقلبت عليَّ اهوية ثلاثة حارّ ومعتدل وبارد

والمنطقة الواطية من الساحل تشتمل على المستنقعات والرمال والسهول مع سفوح الجبال حيث المزروعات بنماء خارق العادة . وبعض هذه الاماكن تُعد من اوفر اجزاء الارض حرّاً فبصواب اذاً سميت هذه المنطقة بالارض الحارة (٤)

---

(١) ويسمونهم volcaneros
(٢) Rio Grande del Norte, Rio Bravo
(٣) ojos
(٤) tierras calientes

ويلي هذه المنطقة الواطية الاراضي المعتدلة (١) التي اقل ارتفاعها الف متر واعظمه ألفان وعلى ذلك فهي تشبه اسبانية وايطالية وجنوبي فرنسة سواء كان من جهة محاصيلها وملاءمتها للبيض او من جهة اعتدال حرّها الذي لا يزيد متوسطه على الدرجة الخامسة عشرة

وبعد هذه المنطقة تأتي المنطقة الباردة (٢)وهي قسمان اوطى واعلى فالاوطى الذي اقل ارتفاعه من ٢٠٠٠ الى ٢٥٠٠ متر هو اوفر نواحي المكسيك عمرانًا . والاعلى يقرس فيهِ البرد الى حد لا يطاق ولذلك يسمى بالارض الجليدية (٣)

وتشتد ريح الشمال في سواحل المكسيك كل الاشتداد وفي بعض الاحيان تستمرّ اسبوعًا بكامله ومتى انذرت بهبوبها تسارع البحرية بسفنهم الى المرافئ خوفًا من أذاها . والويل لكل سفينة لا تجد لها مأمنًا منها فانها ولا شك تستحيل حطامًا . والاعاصير هي اقل وقوعًا من ريح الشمال ولكنها اذا ثارت احدثت اتلافًا جمة وخسائر مهمة وفي سنة ١٨٣٩ غرّقت اثنتي عشرة سفينة في ميناء « ماتاتلان » وسنة ١٨٨١ هدمت مدينة « منثانيلو» بكاملها

ولا تقع الامطار في المكسيك الا في شهور حزيران وتموز وآب وايلول وتكون شديدة الوقع الا انها قصيرة المدة فلا تتجاوز بوجه الاجمال ساعة من الزمان . ومتى جاء تشرين الاول تنقطع الامطار ويبتدئ الشتاء غير انهُ يكون هنا قائظًا خلافًا لشتاء سورية ولهذا يسمونهُ صيفًا او فصل القيظ (٤) . وفيهِ تتناثر الاوراق لحرمانها من الرطوبة لا من تأثير البرد . وفيهِ ايضًا تتعمم الجبال العالية بالثلوج ومن جرّائها قد يسقط المطر في بعض الاحيان رذاذًا

اما جنوبي المكسيك فتغزر فيهِ الامطار بحيث يقع سنويًا متران الى ثلاثة امتار . واما شماليها فهو في غاية الجفاف ولهذا كانت الكهربائية فيهِ كثيرة الانتشار

(١) tierras templadas
(٢) tierras frias
(٣) tierras heladas
(٤) tiempo de secas

بحيث لا يُستطاع مسّ حجرٍ من حجارتهِ حتى ينبعث منهُ الشرَر

وقد بان لي بوجه الاجمال ان احسن محل للاقامة في المكسيك هو اراضيه المعتدلة حيث يكاد المقيم يتمتع بربيع دائم لعدم اشتداد البرد وتلطف الحرّ . اما تلطف الحرّ وان لم اكن قد جرَّبته بنفسي لكوني وصلت الى المكسيك بعد انقضاء زمنه ولكني عرفته من تقاويم الاحوال الجوية التي وقعت بين يدي

وكما ان هواء المكسيك متباين كما تقدم القول كذلك انبتتهُ متباينة ومجال الكلام عليها متسع واعظم شيء ادهشني هو اني كنت ارى اينما ذهبت أنبتة لحيمة كبيرة تشبه الصبير في بلادنا بغزارة مائيته وتوافر شوكه ونموّه في الاراضي الجدباء

غير ان صبير المكسيك يتميز عن صبير سورية بكبره وارتفاعه. وقد رأيت منهُ ما يزيد علوه على ١٠ مترًا وقيل لي انهُ يدرك اكثر من هذا الارتفاع ايضاً وهو ينتصب مستقيماً في الجو كالاعمدة واغصانه تتفرَّع من الجذع على شبه زاوية مستقيمة ثم تتصاعد موازية حتى يتخيل الناظر انها شماعد عظيمة بفروع متعدّدة

ثم ان المكسيك بلاد غنية بنباتاتها المختلفة الاصناف وقد جادت على اوربة واسية بانواع عديدة فمنها جاءت الشوكولاتا التي تصنع من اثمار شجر يقال لهُ « كاكاوو » والشجر المذكور يكون بارتفاع خمسة امتار واوراقهُ مستطيلة ومحددة وازهاره صغيرة بلون احمر الى الصفرة واثماره تشبه القثاء الحمراء. ومتى نضجت الاثمار المذكورة تترك على الارض لتختمر بعد ان تُغطى بغطاءٍ ثقيل ثم تستخرج منها البذور التي تكون بعدد اثنتي عشرة في كل ثمرة وتجفف في الشمس وتعرض للبيع

فالشوكولاتا اذًا ما هي الاَّ بذور الكاكاوو تُحمَّص وتسحق كالبن وتُخلط بالسكر. وهذا هو تركيبها الاصلي غير ان ما يرسل منها الى سورية يُغش ويُدخل فيهِ يسير من الكاكاوو وكثير من المواد القليلة الكلفة مخلوطةً مع السكر وذلك لان الكاكاوو الحقيقي غالي الثمن وبقعة صغيرة تشتمل على الف شجرة منهُ لا يقل دخلها في السنة عن ٥٠٠ دولار بعد كل المصاريف. فزراعتهُ اذًا تعود بنفع جزيل على اصحابها

ولكنهـا تقتضي نفقات وافرة في البداية لان الشجر المذكور لا يأتي بغلة الاَّ بعد ٦ او ٧ سنوات من زرعهِ . وارض المكسيك تخرج ايضاً الاناناس والبطاطا التي اتخذها ملايين من النـاس مأكلًا اعتياديًا ووقفت حاجزًا حصينًا دون عودة المجاعات التي كثيرًا ما كانت تفتك في القديم بسكان اوربة فتكًا ذريعًا

ومن المكسيك جاءت ايضاً البندورة المعتبرة في الشرق كل الاعتبار وكان الهنود يزرعونها في حقول الذرة(١) . ومنها كذلك اتخذ الاوربيون زهرة « دهليا » زينة الجنائن وكثيرًا غيرها من الازهار الجميلة المنظر . وما عدا نبتـة « خلاپ » التي مرَّ الكلام عليها يخرج في هذه البلاد كذلك عدة غيرها من النباتات المستعملة في الطب

وكما ان النباتات جزيلة الاصنـاف في المكسيك هكذا الحيوانات ايضاً وعلى الخصوص في نواحيها السفلى التي هي اقل عمرانًا من سواها . فان غاباتها تشتمل على عدد عديد من القرود والنمورة وفيها كذلك طير صغير يدعونهُ « كوليبري » وكان الهنود يسمونهُ قديمًا «شعاع الشمس» لصغره ولاسيما لريشه الذهبي المشوب بالاحمرار

وفي هذه الاماكن ايضاً اصناف كثيرة من الحيات والضفادع السـامة والبرغش ولهذا الاخير لسعات موجعة للغاية حتى انهُ اذا وقع على الثور يضطر ان يغطس في الماء تخلصاً من الاذى ولا يترك خارجاً عنهُ الا طرف مخطمه فيأتي ويقع عليهِ طير جميـل يدعى « كومندور » معروف بنهمه في التهـام البرغش . ومن المكسيك استجلب الاسبان الديكة الهنـدية وبواسطتهم انتشرت في سائر الدنيا

والعقارب هنا من جملة الجائحات في البلاد كما ذكرت اكثر من مرة . ومتى قبل الليل كنت ارى ملايين من اليراع اي الذباب الكبير الذي يطير في الظلمة ولهُ بصيص كانهُ نار . وقد لاحظت هنا نوعًا من النمل يحفر مساكنه في الصخور الصلدة

وفي الاسـابيع الاولى لاقامتي بمكسيكو كنت اظن لما تمتعت بهِ وقتئذٍ من

(١) وسموها « tomatl » ومنهُ اشتق لفظة tomate في الافرنسية

الطراءة الشائقة ان هواء هذه الحاضرة مع ارباضها ينبغي ان يكون في غاية الملاءمة للاوربيين حتى سكان الشمال منهم لعدم وجود حرّ مفرط. ولكنني بعد مدة رأيت ان الاغراب ولاسيما الصغار مصفرو الوجوه عليهم سيماء الضعف

وكنت انا كذلك في اول الامر صحيحاً معافياً ولكنني ما رجعت من تجوالي في شمالي المكسيك حتى اصابني دوار شديد لم املك معهُ ان اثبت واسكن وكثيراً ما كنت اتخيل ان الارض تهتز تحت قدمي. واذ ذاك ذهبت الى منزل طبيب فرنسي الاصل مقيم هنا من مدة طويلة فقوّى قلبي قائلاً:

«ان هذا حصل لك من تأثير الهواء واكثر الغرباء يصيبهم مثل ما اصابك واعلم ان الارض التي انت نازل فيها الان تزيد ارتفاعاً على الفي متر. أجل ان حالة الطقس مستحبة غير ان هذا ليس بكافٍ للصحة لان ثقل الهواء الجوّي يقلّ نحو الخمس عن الهواء الذي كنت تتنسمه في السواحل البحرية. ولهذا كانت الرئتان تتناولان كمية اقلّ من الاوكسيجين اي من ٣٠ الى ٣٥ غراماً في الساعة. وعلى كل فاحمد الله لكونك لم تأت هذه البلاد في فصل القيظ فانهُ وقتئذٍ ينقطع بخار الماء الضروري للتنفس»

ثم اخذ يبين كون ذلك سبباً لعلة ضعف الدم التي تفتك اشد الفتك بالمهاجرين واعلمني ان امراض ذات الرئة تتكاثر في هذه الناحية تكاثر الدوسنطارية والتيفوس وان داء السرطان من العلل الفاشية التي تسير سيراً سريعاً للغاية ومهما اطال المهاجر اقامته في هذه الجهات العالية لا يقوى على ان يتعوّد هواءها بل يزداد ضعفاً عن مقاومة الادواء

ومع كل هذا لم يُسمع مطلقاً ان احداً من الوطنيين أُصيب بداء السل. ومن الامور الغريبة ان المهاجرين اذا مُنوا بمرض في خارج المكسيك يمكنهم ان ينالوا الشفاء مما هم بهِ اذا اقاموا مدة في مكسيكو. وعليهِ فبشر كل من يشكو داء في صدره ان السفر الى مكسيكو من انجع العلاجات لدائه

غير اني اعترف لك ان السفر اليها يقتضي كلفة كثيرة ومن دونه مشقة ناصبة.

وعلاوة على ذلك يتعرَّض المسافر لخطر الاصابة بالحمى الصفراء في ڤيرا كروث ولغيرها من الامراض التي هي اشد هولاً من السل ان لم نقل انها تضاهيه

واعلم ان الحمى الصفراء هي مرض فاشٍ في سواحل المكسيك وقد سبق لي الكلام عليها مطوَّلاً في رسائلي الماضية . اما في الجبال فلا تتخطى ما كان منها بارتفاع ١٠٠٠ متر وتقل اصاباتها ايضاً فيما كان بعلو ٧٠٠

غير انهُ اذا كانت قد علقت جراثيمها بالمسافر وهو في الساحل لا تلبث ان تظهر فيهِ اعراضها بعد ايام قلائل من وصوله الى الجبال ومع ذلك لا تكون في هذه الحال اقل شدة وخطرًا . وقد اكد لي احد الاطباء هنا ان البعض يستعملون التلقيح للوقاية من الحمى الصفراء فيصيبون نجاحاً وانهُ هو نفسه قد جرَّب الامر فافلح الا في حوادث قليلة

اما سواحل المكسيك من جهة البحر الباسيفيكي فليس للحمى الصفراء فيها من وجود ولكن يقوم مقامها هناك نوع آخر من الحمى يقال لهُ الحمى الصفراوية

ثم ان في المكسيك مرضاً آخر غير معروف في غيرها وهو يتسبب عن ضرب من الحشرات مختلف عن حشرة « شيك » التي سبق الكلام عليها . وهذا الضرب يخدش الجلد خدشاً خفيفاً ويودع فيهِ بيوضه فتغور في اللحم ويتكوَّن عنها خرَّاج بقدر بيضة الدجاجة . غير ان هذا المرض من حسن الحظ قليل الانتشار

وقبل ان أنهي رسالتي أُنجز ما وعدتك بهِ سابقاً فاقول :

اني لما وصلت الى كوبا سمعت الاسبانيين يسمون منزل المسافرين « fonda » (١) ورأيت ان لهذه الكلمة مشابهة كلية مع لفظة « فندق » العربية . واذ كنت مرة آكل في النزل مع جماعة من المسافرين طلب احدهم ان يقدَّم لهُ « aceyte » ورأيت انهم اتوه بزيت وبان لي ان لفظتي « aceyte » الاسبانية « والزيت » العربية تتشابهان كثيرًا وبعد مدة بينما كنت مارًّا في ڤيرا كروث امام بياع برتقال سمعته ينادي قائلاً

(١) ويقال لهُ ايضاً alfondeca, alfondega, alfondeca, alfondec, fondaca

« naranja » واظنها ما هي الا النارنج في العربية

ولما اخذت اتعلم الاسبانية حفظت عدة الفاظ اخرى بان لي ايضاً انها ذات اصل عربي . وقد تعجبت وقتئذٍ وقلت في نفسي كيف وصلت هذه الالفاظ الى هنا حالة كون ابناء العرب في المكسيك قليلين جداً ونسبتهم الى السكان كنسبة الشعرة البيضاء الى اللمة السوداء . ولكني اخيرًا تذكرت ما تعلمته من التاريخ في المدرسة وتنبهت ان العرب استولوا على اسبانية مدة تزيد على ٧ قرون . وبعد اقامتي ثلاثة اشهر في هذه البلاد تمكنت ان اجمع عدداً يسيرًا من الالفاظ الاسبانية المأخوذة عن العربي

وها اناذا الآن مورد لك بعضها مثل noria من ناعورة و papagayo من ببغاء و albaricoque من البرقوق و badeha من بطيخة و almagacen من المخزن و almadia من المعدية و tahona من طاحونة و calanes اي البرانيط من قلانس جمع قلنسوة الى غير ذلك من الالفاظ . ثم ان البغَّال يسمّى في الاسبانية almocreve ويسمى ايضاً almoqueire وكلا الاسمين مأخوذان من دون ريب عن لفظة « المكاري » عندنا . وكذا يسمى مشايخ القرى alcalde ولهذا الاسم بعض المشابهة مع كلمة « القاضي » (١)

واختم الكلام راجياً منك ان تعلمني عما يظنهُ علماء بيروت في هذه التقريبات وما اذا كنت انا اول من لاحظها (٢)

---

(١) راجع الفهرست بآخر هذه الرسالة (٢) هذه هي اهم الكتب في هذا الموضوع :

1. *Glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'arabe*, par R. Dozy et W. Engelmann. *Leyde*, 1869.
2 *Glosario etimologico de las palabras espanolas de origen oriental*, por L. de Eguilaz. *Granada*, 1886.
3 *Oosterlingen. Verklarende lijst der Nederlandsche Woorden die uit het arabisch ...afkomstig zijn* door R. Dozy. *La Haye*, 1867.
4 *Remarques sur les mots français dérivés de l'arabe*, par Henri Lammens S. J. *Beyrouth*, Imprimerie Catholique, 1890.

فهرست

بعض الفاظ اسبانية مشتقة من العربية

١ aceituna وهو شجر الزيتون مشتق من الزيتونة

٢ acemila اي الدابة من الزاملة

٣ acemite من السميد

٤ acerola من الزعرورة

٥ acetre من السطل وفيه صارت اللام العربية r وهو كثير في كل اللغات مثل تنكار وتنكال , شلوق وشروق في العربية العامية و apostolus = apôtre و altare = autel الخ

٦ acibar من الصبار

٧ adalid ويكتب في الاسبانية القديمة adalil من الدليل

٨ adobe من الطوب

٩ aduana (بالفرنسية douane) من الديوان

١٠ alcaide من القائد

١١ algebra من الجبر (علم الجبر والمقابلة)

١٢ almaden من المعدن

١٣ almud من المُدّ

١٤ arracife من الرصيف

١٥ arroba من الربع

١٦ berengena (بالفرنسية mélongène, aubergine.) من باذنجان

١٧ bugia (بالفرنسية bougie) من اسم مدينة « بجاية » في جزائر الغرب

١٨ cafe من قهوة

١٩ cifra من صفر

٢٠ elixir من الاكسير

٢١ fulano من فلان

٢٢ girafa من زرافة

٢٣ jasmin من ياسمين

٢٤ limon من ليمون

٢٥ quintal من قنطار

٢٦ sorbet من شربة

٢٧ tarifa (فرنسي tarif) من تعريف

٢٨ trujaman (فرنسي dragoman, drogman) من ترجمان

٢٩ zalema من سلام



الرسالة الحادية عشرة

ان كنت قد ابرمتك في التطويل عن حالة المكسيك فارجو منك صبرًا وطول أناة اذ قد بقيت أُمور مهمة لا اجد بدًّا من اطلاعك عليها واقصر رسالتي هذه على بيان سكان المكسيك وشرح احوال التجارة فيها

وقبل الشروع في الكلام اقول انك سألتني مرارًا عن سبب اطلاقي اسم «الهنود» على سكان اميركة الاصليين فاجيبك انهُ ليس لهم من اسم غير هذا بما ان كريستوف كولب لما ان كشف البلاد توهم انهُ وجد الطرف الشرقي من الهند والصين ثم مات وهو متوهم هذا التوهم

ولما ان عرف العلماء خطأه كانت قد فاتت المدة وصار اسم الهند والهنديين منتشرًا معروفاً ولم يبق من سبيل الى استبداله. ومن ثم فلاجل التفرقة اطلقوا على اميركة اسم «الهند الغربية» وبعد هذا البيان ابدأ في الكلام على السكان

ان السكان لم يزد عددهم بحسب ما كان مأمولاً وسبب ذلك انهُ قد توالت عليهم جميع اصناف النكبات وضروب البلايا في مدة هذا القرن فاشتبكوا في الحرب اولاً مع اسبانية ثم مع الولايات المتحدة ثم مع فرنسة وبعد ان كبحوا هياج الهنود الوطنيين وكسروا شوكتهم وفرغوا من الحروب مع الاجانب عادوا فاقتتلوا مع بعضهم متخاصمين على السلطة والمناصب . وكل هذه الامور لم تكن من مسهلات الزيادة في السكان . ولكنهُ بالرغم عنها تضاعف عدد الشعب من اوائل القرن الحاضر وصار نحوًا من ١٢ مليونًا. نعم اذا قوبلت المكسيك من هذه الحيثية الى بلجكة والصين كان هذا العدد قليلًا ولكنها بالمقابلة الى سائر اميركة تُعتبر من اوفر اجزائها عمرانًا

والقسم المتوسط في المكسيك هو أعمر اقسامهِ ومع ان سكان السهول في سائر البلدان اوفر من سكان الجبال رأيت الامر هنا جاريًا بالعكس اي ان السكان

متوافرون في الجبال اكثر من السواحل . وعلى كل حال لا يمكن القول بان المهاجرة هي التي افضت الى زيادة عددهم لان المهاجرة لم تبلغ قط مبلغاً مذكوراً واليك بيان السبب

ان النواحي غير المأهولة في المكسيك عبارة عن اراض قاحلة وبيئة الهواء تصعب فيها المعيشة . اما سائر الاماكن فانها جميعاً ملك مخصوص بكبار الملاكين وعليهِ لم يكن من سبيل للعامل الاجنبي ان يزاحم الهنود في الحراثة طالما انهم يقبلون باجرة دون الطفيفة ومن ثم فان جميع ما بُذل من المساعي في زراعة الارض بواسطة مستعمرين اجنبيين ذهب كله باطلًا من دون طائل

غير انهُ اذا كان باب الحراثة مقفلًا في وجه الاجانب فان باب الصنائع والتجارة مفتوح لهم لان البلاد نظرًا لجزيل اتساعها تفتقر الى سكك حديدية واسلاك تلغرافية ومعامل جمة وهذا الذي يحمل الالوف من مهندسي الاميركان وصنّاعهم الى غشيانها وهذا الذي يحدو العملة والتجار من الايطاليان على قصدها . ومن حيث ان المكسيكيين يتكلمون الاسبانية كان المهاجرون الاسبان اوفر عدداً من سائر المهاجرين من امم اخرى . وبعد المهاجرين الاسبان في الكثرة المهاجرون الفرنسيون والايطاليون

وفي مكسيكو قاعدة البلاد عدد غفير من الفرنسيين لهم فيها بيوت تجارية بالغة غاية النجاح . واهم ما يتعاطون الصياغة ومبيع البضائع المستجدة والازياء والروائح العطرة وما شاكل ذلك . ولهم ايضاً لجان عديدة مثل لجنة « صندوق الاقتصاد » يبلغ المودع فيها اكثر من ٣ ملايين و ٣٢٠ الف فرنك . ولجنة أُخرى تدعى « الشركة الخيرية الفرنسية والسويسرية والبلجكية » تنفق اكثر من ٤٠ الف فرنك سنوياً . ولهم كذلك عدة جرائد تُنشر بالفرنسية اعرف منها جريدتين . وفي مكسيكو ايضاً جرائد أُخرى بالانكليزية والالمانية وبقية الجرائد بالاسبانية

اما السوريون فلم ارَ الا القليلين منهم وما اظن انهم يستطيعون ان يجرّوا لهم مغنماً يوفي بغربتهم وسبب ذلك ان من قصد المكسيك طلباً للنجاح لا بد لهُ ان يكون صاحب راسمال كافٍ للتجارة او يكون مهندساً او يعرف صنعة ما مفيدة حق

المعرفة. والحال ان المهنة التي يتعاطاها السوريون قد قطف الايطاليان زهوتها فضلًا عن ان الملاكين لا يتركون صنفًا الا يبيعونهُ للفلاحين بحيث لم يتركوا وسيلة للباعة الدوارين لمباشرة مهنتهم. نعم انهُ يوجد شغل كثير في المناجم ولكن لا اظن السوريون يُقبلون على الارتزاق منهُ.

اما حالة الاغراب هنا فحسنة للغاية لان البلاد تمتعهم بجميع الحقوق ما عدا الحقوق السياسية اي انهم لا يستطيعون ابداء آرائهم في الانتخابات ولا يمكن ان يُنتخبوا للوظائف. ولهم ان يتاجروا ويتكسبوا بكمال الحرّية ويشتروا مناجم واملاكًا ويستغلوها بشرط ان تكون ابعد من مسافة ٢٠ ميلًا عن حدود اليابسة و٥٠ اميال عن البحر. وجميع الاغراب الذين اشتروا املاكًا في المكسيك ورزقوا فيها اولادًا يعتبرون كالمكسيكيين ما لم يعلنوا صريحًا رغبتهم في المحافظة على جنسيتهم

والان قد فرغت من الكلام على السكان فانتقل الى الكلام على الزراعة واقول ان الذرة هي اهم المزروعات في المنطقة المعتدلة وفي قسم من المنطقة الباردة ومن الذرة يصنعون الطعام المحبوب عندهم المسمى «تورتيلا» ويهتم باعداده يوميًا اكثر من مليون من النساء وتبلغ قيمة حاصل الذرة سنويًا نحو ٦٠٠ مليون فرنك واما حاصل الحنطة فلا تتجاوز قيمته مئة مليون

ومع ان المكسيك هي مصدر البطاطا في الاصل ترى اهاليها غير حافلين بهذا الصنف ولا عارفين قيمتهُ لان اعز شي يتوخونهُ في طعامهم بعد الذرة واللوبياء انما هو اثمار الموز الذي وصل اليهم من آسية. وسرنبٌ اي جماعة من اشجاره مؤلفة من اربع الى خمس سوق تثمر من خمسة عشر الى ثمانية عشر عنقودًا لا يكون فيها عادةً اقل من ٦٠٠ الى ٧٠٠ موزة وكل اثنتي عشرة منها تكفي لاشباع انسان في اليوم. ومن ثم فان كلاً من اهالي البلاد يزرع من شجر الموز فسحة ذات خمسة عشر مترًا مربعًا لمداركة قوته ولو انهُ اراد الحصول على مثل هذه النتيجة بزراعة القمح للزمه في القليل مسافة ١٢٠ مترًا مربعًا

اما شراب المكسيكيين الاعتيادي فلا يتخذونهُ من الكرمة التي تنجح مع ذلك نجاحاً عظيماً في بعض نواحي بلادهم ولكنهم يتخذون شرابهم الذي يدعونهُ « پولكه » من شجرة يسمونها «ماغاي» او المقر الاميركي ويزرعونها في منحدرات الاراضي المعتدلة او الباردة وخصوصاً في التربة المرملة

ومتى حان لزهرها ان يتفطر يثقبونها في وسطها ثقباً بالغاً ويعصبونهُ باوراقها وحينئذٍ فكل المائية التي كانت مزمعة ان تتكوَّن عنها الساق العظيمة مع الازهار تهوي الى الثقب وتجتمع فيهِ فيمتلئ في وقت قليل حتى يضطروا لافراغهِ من مرتين الى ٩ مرات في النهار على مدة خمسة اشهر . ومن هذه الاشجار ما يرشح عنها في النهار الف كيلو من المائية ومنها ما يرشح عنها الفا كيلو يمكن ان تُشرب وقتئذٍ اذا قُتلت اي مزجت بقليل من الماء . ولكنهم عادةً لا يشربونها الاَّ بعد استحضار مخصوص واليك كيفية ذلك

يأتون بظرف ويضعون احد طرفيه في السائل والآخر في فم رجل يسحب العصير بقوة النفَس الى بواقيل مستحضرة لذلك. وبعد هذا يصفقونهُ اي يروقونهُ في قصاع من الخزف ثم يضيفون اليهِ قليلاً من الشراب القديم فلا يلبث ان يختمر ويصير صالحاً للشرب ويتم الاختمار في يومين او ثلاثة

وهممت ذات مرة ان اذوق الشراب المذكور الاَّ اني لم استطع ان اجرع منهُ غير جرعتين لكوني وجدت لهُ طعماً كريهاً كطعم الجبن العتيق او اللحم الذي دبت فيهِ النتانة والفساد وقد قيل لي ان الطعم المذكور عرض لهُ بسبب قدمهِ واحضر اليَّ من المصنوع حديثاً ولكنني لم استطع ان اقاوم النفور الذي استشعرتهُ لاتناول منهُ ثانيةً . ومع هذا فقد سمعت كثيرين من الاطباء والاجانب يمدحون منافعهُ الصحية ويقولون انهُ مرطب للغاية ويشبه في تركيبهِ خاصةً ألبان الخيل

اما المكسيكيون فانهم يشربونهُ بلذة ولفرط محبتهم لهُ يسمونهُ « الشراب الالهي » وهو يسكر كالخمر ويبعث الى الخصام والمنازعة ومن اجل هذا ترى رجال الشرطة في شغل شاغل ايام الآحاد . وفي كل يوم تنقل منهُ السكك الحديدية الى مكسيكو

وسائر المدن الكبيرة كميات جزيلة حتى ان مقطوعيـة سكان العاصمة وحدها تبلغ سنويًا عشرين مليون لتر والحكومة تجني من رسوم مبيعه دخلًا وافرًا

وما عدا هـذا الشراب يستخرج المكسيكيون من شجر « ماغاي » اشربة أُخرى منها حلو ومنها حامض وبعضها مسكر وبعضها غير مسكر . ويصنعون كذلك اكثر من سبعـين صنفًا من الاشربة التي يخمرونها بنباتات مختلفة منهـا شراب يخمرونهُ بثمر الصبير ولونه كلون الدم

ولشجر « ماغاي » عندهم استعمالات أُخرى ايضًا فقد كان قدماؤهم يتخذون منهُ ورق الكتابة والآن يستخرجون منهُ الصمغ والصابون ثم الالياف التي يصنعون منهـا الحبال والامراس مع بعض المنسوجات . ومما تقدم يتبين سبب تسميتهم لهذا الشجر « شجر الغرائب والعجائب » (١)

ثم ان اهالي المكسيك يزرعون ايضًا قصب السكر وشجر البن وكلا الصنفـين يقبلان اقبالًا وافرًا واما التبغ فقد تقدم القول انهُ يضاهي تبغ هافانا جودةً وقد ادخلهُ في هذه البلاد بعض الزراع المبعدين عن كوبا

وتنجح في هذه النواحي ايضًا كل النجاح زراعة نبات يسمونهُ « ڤانيل » وكانت المكسيك قديمًا ترسل الى الخارج اجود اصنافهِ واحسنهـا ولكن مستعمرة « ريونيون » الفرنسية في افريقية قد فاقت المكسيك بالوقت الحاضر وفاتتها بمراحل في زراعة النبات المذكور . واما اشجار التوت التي يقال ان فرنان كورتث هو اول من ادخلها فقد تكاثرت تـكاثرًا كليًا بهذه الايام الاخيرة (٢)

(١) planta de las maravillas

(٢) جدول اخص مزروعات المكسيك وقيمتها السنوية :

	كمية		قيمة	
ذرة	٤٧،٠٠٠،٠٠٠	هكتولتر	٥٥٠،٠٠٠،٠٠٠	فرنك
حنطة	٤،٠٠٠،٠٠٠	«	١٠٠،٠٠٠،٠٠٠	«

على ان اخص غنى المكسيك وثروته انما يتوقف على ما أُودعت ارضه من المعادن الثمينة والمعادن المذكورة اكثرها من الفضة واما الذهب فقليل ونسبته الى الفضة كنسبة ٣ الى ١٠٠ وقد بلغ مجموع المعادن الثمينة التي استخرجت من مناجم المكسيك منذ افتتاحها الى سنة ١٨٩٠ عشرين مليارًا اي اكثر من خمس ما استخرج اثناء هذه المدة في سائر جهات الدنيا . وكل هذا ما خلا الخَبَث المركوم في الوقت الحاضر حول المعامل فانهُ يتضمن لا اقل من ستة مليارات فرنك . وزد على ذلك ان فتح المناجم الجديدة لم ينقطع لهُ سياق الى هذه الازمنة المتأخرة حتى انهُ في سنة ١٨٨٩ وحدها ادرك المفتوح منها ٢٠٧٧

وتبلغ كمية المستخرج منها سنويًا من الذهب مقدار طنين بقيمة ٧ ملايين . ومن الفضة ٦٠٠ طن بقيمة ١٣٥ مليونًا . اما الان فنظرًا لما طرأ على الفضة من النقصان والانحطاط قلَّ المستخرج منها كثيرًا

ويمكن القول ان تربة المكسيك بكاملها تقريبًا هي مملوءة من المعادن وبعبارة اصرح ان المناجم تعادل اربعة اخماس التربة فانها ما عدا الذهب والفضة تتضمن كذلك معادن اخرى كثيرة مثل الزئبق والبلاتين والنحاس والفحم الحجري والكبريت والرخام وغير ذلك وفيها ايضًا كمية وافرة من الكهربا في غاية الصفاء والشفوف بلون ذهبي جميل . على ان هذا الصنف يتكاثر جدًّا في داخلية البلاد حتى ان السكان

لوبيا	٣،٠٠٠،٠٠٠	هكتولتر	٤٠،٠٠٠،٠٠٠	فرنك
مافاي	٢،٠٠٠،٠٠٠	«	١٨،٠٠٠،٠٠٠	«
قطن	٤٥،٠٠٠	طن	٥٨،٦٤٠،٠٠٠	«
سكر	١٣٤،٧٠٠	«	٤٨،٠٠٠،٠٠٠	«
بن	٧،٠٠٠،٠٠٠	كيلو	١٨،٠٠٠،٠٠٠	«
تبغ	٧،٢٠٠،٠٠٠	«	١٤،٠٠٠،٠٠٠	«

يستعملونهُ لاشعال النار. واكثر هذه المناجم يستخرجهـا جماعة من اغنياء الانكليز اصحاب الرساميل الوافرة

اما الصنائع وان كانت قد اتسعت دائرتها بعض الاتساع فانها لم تبلغ درجة مهمة لكونها لم تزل قاصرة عن ارسال المصنوعات البلدية الى الخارج كما انها لم تزل مفتقرة ايضاً الى استجلاب شيء كثير من البلاد الاجنبية. واما التجارة فانها قد زادت فوق ما كانت عليهِ ثلاثة اضعاف من بداية القرن الحاضر

واوفر البلدان علاقةً مع المكسيك من حيث التجارة هي الولايات المتحدة وتأتي بعدها انكلترة ثم فرنسة ثم المانية ثم اسبانية. ولا نكير ان الرسوم المضروبة في جمارك المكسيك على البضائع هي باهظة للغاية

هذا وقد استمرت المكسيك في تأخر مدة طويلة من حيث السكك الحديدية غير ان ما اضطرها الى ايقاف كل اعمالها من هذا القبيل الى امد مديد انما هو القلاقل الداخليـة مع صعوبة الخط الاول الذي انشأتهُ من ڤيراكروث الى مكسيكو وقد سبق لي كلام مطول عن هذا الخط في رسائلي الماضية. ومع ذلك رأيت في هذه البلاد خطاً آخر يمرّ في ارتفـاع ٣٠٤١ متراً وهو اعظم من الارتفاع الذي يمر فيـهِ خط مكسيكو ويكاد يضاهي ارتفاع جبل الكام مع اعلى قُنن لبنان

والان اصبحت مكسيكو موصولة بسكك الحديد مع اكبر مدن الولايات المتحـدة مثل نيويرك وسن لويس وسن فرنشيسكو. وسنة ١٨٨٩ تمكن بعض المكسيكيين بسفرهم في السكة الحديدية المؤدية الى نيويرك ان يصلوا الى معرض باريس بعدة احد عشر يوماً وذلك انهم سافروا من مكسيكو الى نيويرك رأساً دون ان يغيروا القطر فانتهوا اليها في خمسة او ستة ايام ومنها ركبوا السفن الى مرسيلية

وفي اواخر ايلول الماضي اكدت المعلومات الرسمية التي نشرتهـا الحكومة ان الخطوط الجاري تشغيلهـا واستثمارها في المكسيك تبلغ ١١٢، ١١ كيلومتراً خلا الخطوط المشروع في مدها

واذا كان مد الخطوط الحديدية قد حصل بتباطوء وتقاهل فان الاسلاك التلغرافية قد مدَّت بغاية السرعة في جميع انحاء البلاد ويبلغ طولها ٤٤٫٨٦٥ كيلومترًا منها ٢٫٠٩٤ كيلومترًا ممدودة في البحر. وتقدر الرسائل البرقية كل سنة ما بين ٦٠٠ الى ٧٠٠ الف رسالة

اما ادارة البريد فيعدل ما ترسله سنويًا من المكاتيب بنحو ٣٠ مليونًا اي عبارة عن ثلاثة مكاتيب لكل شخص. ومن الغريب هو ان هذه الادارة تخسر سنويًا نحو نصف مليون بينما ان سائر ادارات البرد في بقية العالم تربح ارباحًا وفيرة

واذا نظرنا الى المعارف رأينا انها سائرة في سبيل النجاح السريع . وقد علمت ان اكثر مقاطعات البلاد اقترعت على التعليم الالزامي فأتت بذلك حماقة منكرة مخدشة لوجه الحرّية . وانما قلت « حماقة » لان الرجل يمكن ان يتقن الحرف والزراعة دون ان يكون لهُ المام بالجغرافية والحساب فضلًا عن ان المعارف الناقصة تفضي باصحابها الى النفور من الاشغال اليدوية وتدفعهم الى غشيان المدن . غير انهُ لحسن الحظ لم يجرِ تحقيق هذا الالزام فعلًا ولم يزل الشعب مستعملًا ملء حرّيته واختياره من هذا القبيل .

اما الجرائد التي تطبع في جميع انحاء المكسيك فتبلغ جميعًا ٣٩٠ الى ٤٠٠ جريدة منها ١٢٠ في مكسيكو وارباضها

ولندع الان كل هذا ونخبرك عن هيئة الحكومة في هذه البلاد قائلين

ان نظام الجمهورية الذي ابتدأ سنة ١٨٢٤ وحُوّر سنة ١٨٥٤ أُعيد تنقيحه سنة ١٨٩٠ . اما الحكومة فمرتبة على مثال حكومة الولايات المتحدة اي ان كل مقاطعة من الجمهورية تعتبر بصفة مملكة وحدها غير ان جميع هذه الممالك متحدة بالتعاهد . ولكل مقاطعة مجالس وقوانين وميزانية خاصة غير انها لا تستطيع ان تعالن بحرب او تعقد صلحًا من عند نفسها ولكن جميع العلاقات مع الدول الاجنبية ينبغي ان تجري على يد الحكومة التعاهدية التي هي بمنزلة الصلة بين الممالك المختلفة. وهذه الطريقة هي عين

الطريقة التي جرت عليها البرازيل من ٤ سنوات اي من حين ما خلعت الامبراطورية وبدلتها بالحكومة الجمهورية

وكل رجل يعرف من الكتابة رسم امضائهِ يحق له الانتخاب بشرط ان يكون بالغاً الثامنة عشرة ومتزوجاً . واما الاعزاب فلا يرخص لهم في ابداء الاصوات الاَّ بعد ان يدركوا الحادية والعشرين . على اننا اذا تفقدنا شرائع جميع الامم لم نجد فيها قانوناً يجيز لمن كانوا في حداثة سن كهذه ان يبدوا اقل صوت انتخابي . فالامر اذاً من خصائص المكسيك

ولكل اربعين الفاً من السكان حق بان يختاروا لهم نائباً لمدة سنتين من بين المرشحين الذين تزيد اسنانهم على الخامسة والعشرين . وبسبب هذا كان مجلس النواب مؤلفاً من ٢٢٧ نائباً . اما رئيس هذا المجلس مع مجلس الشيوخ فانهُ ينتخب لمدة شهر واحد ويُبدل في نهايته ويكون انتخابه من اعضاء المجلس

واعضاء مجلس الشيوخ ينبغي ان يكونوا قد ادركوا في الاقل سن الثلاثين وهم ينتخبون لمدة اربع سنين من كل مقاطعة اثنان . ولكل من النواب والشيوخ رواتب سنوية . وبما ان مجلسي النواب والشيوخ لا يحق بمقتضى القوانين ان يجتمعا في اراضي احدى المقاطعات اعتبروا مكسيكو مع مسافة عشرة كيلومترات حولها بصفة ارض حائدة وانزلوا فيها المجلسين المذكورين وسموها قضاء التعاهد

اما رئيس الجمهورية فينتخب لمدة ٤ سنوات وينبغي ان لا يقل عمره عن الخامسة والثلاثين . ومنذ عام ١٨٨٧ صار يمكن تجديد انتخابه واما الرئيس الحالي فانهُ قلد الرئاسة لمدة الحياة وهو الجنرال دون پورفيريو دياث انتخب لاول مرة سنة ١٨٨٤ واظنه من شيعة الماسون غير انهُ يتظاهر بالاعتدال

واذا نظرنا الى حكومة المكسيك من الجهة الدينية وجدناها على غير ما يشتهيه قلب كل كاثوليكي صادق لانها سلبت جميع الاوقاف الكنائسية وبلغ من استبدادها انها حظرت اقامة الاحتفالات الدينية جهاراً وساعدت البروتستان كل المساعدة حتى

شيدوا اكثر من مئة هيكل تختص باثنتي عشرة شيعة مختلفة

وها انا ذا الان ذاكر لك خلاصة مقال احدى الجرائد البروتستانية المطبوعة هنا فتعلم منها فوق ما اعلمتك فاصغ لمقالها وهو:

«تقدم شعب المكسيك في مدة ٢٠ سنة تقدماً عجيباً وادلة ذلك كثيرة:

«الاول وجود مدارس الحكومة في كل قرية وارباب الحكومة انفسهم يمدون مدارس الانجيليين بالنفقات بشرط انها تعلم عدداً معيناً من التلاميذ مجاناً

«الثاني ان الحرّية التامة أُطلقت لجميع الاديان وقد مُنعت الاحتفالات الدينية في الاسواق كحمل الاعلام والصلبان وغيرها

«الثالث ان الكنيسة الرومانية كانت لها املاك كثيرة ولكن جميع هذه الاملاك استولت عليها الحكومة

«الرابع ان الانجيليين في الولايات المتحدة قد اجتهدوا في اذاعة بشارة الانجيل في المكسيك اذ ارسلوا ١٧٧ مبشراً ومعهم ٥١٢ من المعلمين والمعاونين الوطنيين وتحت ادارتهم ٤٦٩ جماعة من المؤمنين و ١٦٠٠٠ من المشتركين و ٥٠٠٠٠ من اولاد الطائفة الانجيلية. ولهم ٧ مدارس يُعلم فيها اللاهوت و٢٣ مدرسة داخلية و ١٦٤ مدرسة للاولاد فيها ٧٠٠٠ تلميذ ولهم ١١ جريدة مسيحية و١١٨ كنيسة قيمتها ٨٠٠٠٠ ليرة. ولجان التوراة تبيع نحو ٣٠٠٠٠ نسخة من الكتاب المقدس سنوياً. فالشكر لله لنعمته على شعب المكسيك»

ولا شك ان من قرأ هذه السطور يتخيل ان المكسيكيين كانوا غرقى في لجج ظلمات الوثنية وان الانجيليين البروتستان بعد ان بذلوا المساعي الوفيرة تمكنوا من ان يروهم ضياء البشارة ساطعاً. فيا للعجب

ومن عرف ان الامور لدى ترتيب الجمهورية كانت في قبضة الماسون يتصرفون كيف شاؤوا وارادوا بان له سبب تكاثر البروتستان في هذه الديار. وفي يقيني ان شيعة الماسون الخبيثة لم تزل حتى الان مستولية على ازمة الاحكام وهي التي ألهبت

من محافلها نيران الثورات التي قد طالما ضرجت البلاد بدماء العباد ووقفت حاجزاً حصيناً دون تقدمها ونجاحها

ومع ان الكاثوليك فائزون بالاكثرية العظمى في المكسيك تراهم محبين المسالمة محترمين حقوق السلطة وخاضعين لها كل الخضوع ولهذا اغتنم الماسون المهيجون سكينتهم وهدوءهم وهبوا الى الاحكام فقبضوا على ازمتها ولا تزال في ايديهم. فانظر وتأمل ايها الحبيب كيف ان هذا الشعب العريق في الكثلكة يتولى اموره جماعة قليلة من الماسون ليس من همهم الا ثل عروش الدين الكاثوليكي

اما جيش المكسيك مع ما فيهِ من حرس الحقول ورجال الشرطة والجندرمة فيبلغ ٢٧ الى ٢٨ الف جندي بينهم ٣٠٠٠ ضابط وذلك عبارة عن ضابط واحد على كل تسعة انفار. واذا ضمّ الى هذا العدد العسكر الاحتياطي اي الرديف بلغ مجموع الجيش ١٦٠ الفاً

وان سألتني هل للمكسيك مراكب حربية اجبتك انها لا تملك سوى اسطول صغير يتألف من سفينتين من طرز الكورڤت مع سفينتين مدفعيتين

واليك الخبر عن اصل البحرية المكسيكية :

اعلم انهُ في سنة ١٨٢٣ قبل ان يخمد سعير الحرب مع اسبانية كانت المكسيك تتمنى لو امتلكت بعض السفن لتستعملها في مقاومة البحرية الاسبانية فما عتم بعض الخوَنة من الاسبان ان حققوا لها امنيتها.

وتفصيل ذلك ان سفينة تدعى « اسية » بعد ان غادرت سواحل بيرو سافرت الى احدى الجزائر المريانية لامتيار الميرة والظاهر ان بحارتها كانوا قد عانوا مشقات كثيرة لم يُقابلوا عليها بالمكافآت اللازمة فكانوا يتذمرون ويتشكون حتى آل امرهم اخيراً الى المجاهرة بالتمرّد وشق عصا الطاعة. فحاول وقتئذٍ الدون غوثوارتي قبطان السفينة مع بعض الضباط ان يرتقوا الفتق ويحوصوا الشق

غير ان البحارة والعساكر وقفوا موقف القتال في مؤخر المركب ودفعوهم بضرب

السيوف وبعد ان اثخنوهم جراحاً خطرة دهوروهم جميعاً في غرفة الشورى وهمَّ فريق منهم ان يذبحوهم ويمحوا اثرهم من بين الاحياء عملاً بالمثل الاسباني السائر « ان الميت لا يقوى على التكلم »

ولكن الفريق الآخر قالوا بوجوب نقلهم الى احد السواحل المقفرة وهكذا فعلوا. فقيض الله لهولاء سفينتين انكليزيتين لصيد الحيتان مرَّتا من هناك فنقلتاهم الى مدينة مانيلية قاعدة الجزائر الفيلبينية

وكان بصحبة السفينة « اسية » الكبيرة سفينة اخرى صغيرة تدعى « كونستانسية » لم تلبث ان حذت حذو رفيقتها فسارت الاثنتان نحو سواحل المكسيك تحت امرة القائمقام مرتينث الذي كان عازماً ان يكشف القناع عن الخيانة و يستسلم لجمهورية تلك البلاد

ولما ان وصلتا الى خليج مونتيري ابلغ مرتينث مقصده السيء الى القومندان العسكري واعدًا انهُ يسلم السفينتين لجمهورية المكسيك مع جميع ما فيهما من الذخائر والسلاح ويبقي البحارة في خدمتها على شرط ان تدفع في الحال جميع الرواتب المتوجبة للجنود والبحارة من ساعة خروجهم من اسبانية

ولا حاجة الى القول بان حكومة المكسيك بادرت اذ ذاك لتلبية هذا الطلب بغاية المسرَّة والفرح لكونها فازت على هينة بما طالما قد كانت تمنته

هذا هو اذًا اصل البحرية المكسيكية وهي تتألف في الوقت الحاضر من طليعتين اي سفينتين من طرز « اڤيزو » محمول الواحدة ٩٠٠ طن وقوة آلتها ١٢٠٠ حصان ومدافعها ستة . ومن سفينتين مدفعيتين قوة الواحدة ٩٥٠ حصانًا ومدافعها اربعة. ثم من سفينة واحدة لتعليم الطلابة البحرية محمولها ١٢٠٠ طن وقوة آلتها ١٣٠٠ حصان ومدافعها ثمانية. فجملة البحرية اذًا خمس سفن ذات ١٨ مدفعاً بقوة ٣٤٥٠ حصانًا

الا ان الحكومة آخذة الان في تعزيزها وهي تبني في الوقت الحاضر سفينتين لنقل العساكر واربع سفن مدفعية لحراسة السواحل وخمس مغرقات من اول طبقة .

وفوق ذلك فقد اوصت ايضاً في فرنسة على طليعتين بطول ٤٥ متراً وعرض ٧ امتار وستجعل فيهما من البحارة ٧٠٠ مع ٥ مدافع. ويبلغ الآن مجمل العساكر البحرية ٥٠٢ منهم ٨٦ ضابطاً

على ان جيش المكسيك واسطولها وان لم تكن لهما اهمية كبرى الا ان الحكومة تنفق عليهما نحو السبعين مليوناً اي عبارة عن ثلث نفقاتها في سبيل البلاد كلها

ولاكثر الدول سفراء وقناصل في مكسيكو وسائر المدن الكبرى حتى الممالك الصغيرة ايضاً مثل الدانمرك وجزائر هاواي

اما الموازنة بين دخل الحكومة ومصروفها فامر لم يتم لها الا من ٤ او ٥ سنوات فمن ذلك الحين اخذت تسد ابواب العجز شيئاً بعد شيء. كانها قصدت ان تثبت كونها تستطيع البقاء جمهورية مع المحافظة على السلام والسكينة

هذا ما اردت الان بيانهُ لك في هذه الرسالة خاتماً اياها باعلامك اني عزمت مغادرة المكسيك لاذهب الى مضيق بناما وانما عدلت عن التجول في جنوبي المكسيك لقلة سكك الحديد في هذه الجهة ومشقة الاسفار

وعليهِ فان رسالتي الآتية قد يحتمل ان تصل اليك من بناما او من مدينة اخرى في اميركة المتوسطة



سكان الولايات المكسيكية

اسماء الولايات	مساحتها	سكانها	السكان في كل كيلومتر مربع
كاليفورنية	١٠٩ع١٥١	٠٠٠ع٣٥	٢ع٠
سونورا	٠٠٠ع٢٠٠	٠٠٠ع١٦٠	١
سينالوا	٣٠٠ع٨٧١	٠٠٠ع٢٣٠	٣
شيهواهوا	٤٦٨ع٢٢٧	٠٠٠ع٣٠٠	٣ع١
درنغو	٤٧٠ع٩٨	٠٠٠ع٢٦٦	٣
كواهويلا	٦٩٠ع١٦٤	٠٠٠ع١٧٨	١
لاون الجديد	١١٨ع٦١	٠٠٠ع٣٤٥	٤
تاَموليپاس	٢٣٤ع٨٢	٠٠٠ع١٦٨	٢
ثاكاتيكاس	١٣٨ع٦٤	٠٠٠ع٥٢٧	٢ع٨
اغواس كالينتس	٩٦٤ع٧	٠٠٠ع١٢٢	١٦
سان لويس پوتوسي	٥٨٦ع٦٥	٠٠٠ع٥٤٧	٣ع٨
غواناخواتو	٤٥٨ع٢٩	٠٠٠ع٠٠٨ع١	٢ع٣٤
خاليسكو	٥٠٣ع٨٢	٠٠٠ع١٦٢ع١	١٤
تيپيك	٢١١ع٢٩	٠٠٠ع١٥٣	٥ع٣
كوليما	٨٨٧ع٥	٠٠٠ع٧٠	١٢
ميشواكان	٢٦١ع٥٩	٠٠٠ع٨٠٢	٥ع١٣
كيريتارو	٢١٥ع٩	٠٠٠ع٢١٤	٢ع٢٣

سكان الولايات المكسيكية

اسماء الولايات	مساحتها	سكانها	السكان في كل كيلومتر مربع
مكسيكو	٢٣٬٩٥٧	٧٨٠٬٠٠٠	٣٢٬٥
المقاطعة التعاهدية	١٬٢٠٠	٤٦٠٬٠٠٠	٣٧٩
تلاكسكلا	٤٬١٣٢	١٥٨٬٠٠٠	٣٦
هيدلغو	٢٣٬١٠١	٥٠٠٬٠٠٠	٢٢
پويبلا	٣١٬٦١٦	٨٤٠٬٠٠٠	٢٧
ڤيرا كروث	٧٥٬٦٥١	٦٤٠٬٠٠٠	٩
موريلوس	٧٬١٨٤	١٥٢٬٠٠٠	٢١
غيريرو	٦٤٬٧٥٦	٣٣٥٬٠٠٠	٥
اواكسكا	٩١٬٦٦٤	٧٠٠٬٠٠٠	٩
شياپاس	٧٠٬٥٢٤	٢٧٠٬٠٠٠	٤
تابسكو	٢٦٬١٩٤	١١٥٬٠٠٠	٤٬٣
كامپش	٤٦٬٨٥٥	٩٢٬٠٠٠	٢
يوكاتان	٩١٬٢٠١	٢٨٠٬٠٠٠	٣

مستعمرة هندوراس
الانكليزية

الرسالة الثانية عشرة

في

مستعمرة هندوراس

اعلمك ايها العزيز اني لما عزمت مغادرة المكسيك كما سلف لك مني الخبر ركبت القطار السريع من مكسيكو الى ڤيراكروث حيث انتظرت يوماً ونصف الآخر لاجد سفينة تنقلني الى حيث اردت فقيض الله لي باخرة انكليزية كانت مسافرة الى مواني اميركا المتوسطة فجاء ذلك طبق ما كنت اشتهي وارغب لاني موقن بان السفر الى البلاد المذكورة يسهل لي الوقوف على احوالها والاطلاع على مجمل شؤونها بجلاء ووضوح ومتى انتهيت اليها لا البث ان اكتب لك باخبارها لعلمي انك تسرّ بمعرفة تاريخ البلدان ولاسيما ما كان منها بعيداً ولا يُعرف من امره الاّ القليل

ولما ان ركبت الباخرة المذكورة استمرّت نحو اليومين دائرة حول شبه جزيرة يوكاتان. وبما اني قد اسلفت لك وصفها لا اجد الان في الاعادة افادة. ومن ثم ابدأ باخبارك عن مستعمرة الانكليز في « هندوراس » لان الباخرة وقفت بنا اولاً امام مدينة « باليز » قاعدتها :

اعلم ان هذه الناحية كانت في القرن الماضي تحت ولاية الاسبان ولكن الانكليز اخذوها منهم في القرن المذكور ولا اعرف ما اذا كان استيلاؤهم عليها درّ لهم بفوائد تذكر في الماضي. غير ان الدلائل الحاضرة لا تشعر بكون المستعمرة في حالة حسنة. ولنبدأ في الكلام اولاً عن مدينة باليز فنقول:

انها مدينة وبيلة الهواء جزيلة الرطوبة مكتنفة بالعيون والانهار والمستنقعات يكثر فيها البرغش كثرة عجيبة حتى ينعقد في الجو كالسحب وهو الان متناقص بعض التناقص بسبب الريح الشمالية التي بدأت تهب هنا من اسبوع وتنقي الهواء بعض التنقية

اما ارضهـا فواطية للغاية حتى مست الضرورة الى تعليتها بواسطة اثقال السفن وجذوع الاشجار ومع كل هذا فان اقل هياج في البحر يدفع المياه على المنازل فتغمرها وهي كلها بالتقريب من الخشب بما ان الحجر والآجر لا يصلحان للبناء هنـاك لان التربة اسفنجية فيغوصان فيها

ويلي المدينة المذكورة مباشرةً كثير من الغدران والمستنقعـات تخرقها سدود يُجتاز عليها الى البيوت المتفرقة. ومن ثم كانت الحميات فيها مستمرة فلا يعرض لهـا انقطاع ابدًا

اما من جهة الاقوات فليس منها في باليز الا السمك البحري نظرًا لتعذر الزراعة في اراضيهـا بسبب انغمارها بالمياه فيضطر الاهالي الى استجـلاب ميرتهم من الولايات المتحدة . ولا سبيل فيها ايضاً لتربية البهائم مع صلاحيتهـا لذلك بسبب القذّان اي البراغيث المؤذية التي تنفذ تحت جلودها وتميتها

ومن جراء هذه الاسبـاب اخذت المدينة في التقهقر وبعـد ان كان سـكانها ١٠٫٨٠٠ نسمة سنـة ١٨٤٤ اصبحوا الان اقل من ستـة آلاف والمنتظر ان تزداد احوالها تأخرًا ايضاً متى ترتبت المواصلات مباشرةً بين ثغور جمهوريات اميركة المتوسطة وسواحل اوربة والولايات المتحدة فحينئذٍ تنقطع البواخر عن غشيانها

والهنـدوراس مستعمرة « ملكية » اي انها متعلقة رأساً بالحكومة الانـكليزية وفيها اربعة الاف من الاوربيين بين شعب من الهنود او السودان يبلغ ٣١٫٧٤١ نفساً ويلي منطقـة المستنقعات في سواحلها ارض كثيرة الخصب والريف تنمو فيها المزروعات كل النماء وتأتي بغلات وفيرة



جمهورية غواتمالا

الرسالة الثالثة عشرة
في
جمهورية غواتمالا

اقلعت بنا السفينة مساء النهار من باليز ومرت صباح اليوم التالي قبالة سواحل «غواتمالا» وكلها ليست بذات شان يستحق الذكر ما خلا قصبة «ليڤنستون» فانها فائزة بنصيب يسير من الاهمية وقد سميت بهذا الاسم اكراماً لاحد مشترعي الانكليز الذي وضع قوانين البلاد

ومن حيث ان السفينة لم تقف في مياه ليفنستون الا ريثما افرغت ما كانت شحنته لها من براميل العرق لم استطع ان انزل الى البر فأكتب لك ملاحظاتي الخصوصية. غير اني انقل الان جلّ احوال هذه الجمهورية التي هي اهم الجمهوريات الخمس في اميركا المتوسطة عن كتاب اسباني كنت اشتريته من مكسيكو وعما افادنيه احد رفقاء سفرتي فاقول:

تبلغ مساحة غواتمالا ١٥٠ الف كيلومتر مربع وسكانها مليون و ٥١٠ آلاف نفس منهم نحو الثلث من سلالة البيض وهم يتكاثرون ويتوافرون بسرعة ولكن بغير واسطة المهاجرة لانهُ لا يدخل البلاد في السنة من المهاجرين الا نحو الالفين. وهولاء المهاجرون اكثرهم من شمالي ايطالية يذهبون اليها ولا يأنفون اي عمل كان مهما بلغت درجته من الدناءة والحطة. وهذا هو السبب الذي آل بهم الى غاية الازدراء والاحتقار في بادئ الامر من قبل الهنود الذين تعوّدوا ان يروا البيض بصفة موالٍ مترفعين عن المهن الحقيرة

اما المزروعات فمن اخصها في الوقت الحاضر شجر البنّ أُدخل الى البلاد سنة ١٨٥٩ وتكاثر فيها بوقت سريع نظرًا لما بُذل من العناية في شأنه. وفي سنة ١٨٩٠ قدّرت الغلة الحاصلة من نحو الخمسين مليونًا من اشجاره بثلاثين مليون كيلو قيمتها

٧٥ مليون فرنك. ومن ثم كانت صادرات البن بنسبة ٩ الى ١٠ من مجموع تجارة هذه الجمهورية

اما سائر اصناف تجارتها بحسب اهميتها فهي السكر والجلود والكوتشوك والفضة والموز. اما البلدان التي تستبضع هذه الاصناف من غواتمالا فهي اولاً انكلترة وتأتي بعدها الولايات المتحدة ثم فرنسة ثم المانية

وقاعدتها الان مدينة «غواتمالا الجديدة» وسكانها ٧٤ الفاً وهي ذات موقع في غاية الحسن والرونق لكونها قائمة على سطح جبل يبلغ قطره مسافة ٥ ساعات وارتفاعه ١٥٠٩ امتار على بعد عشرين كيلومترًا او ازيد من الاوقيانوس الباسيفيكي وفيها عيون عديدة تكسب المزروعات غاية النمو

وبما ان المدينة المذكورة بُنيت سنة ١٧٧٣ فقد تشيدت على اسلوب جميل وجعلت طرقاتها فسيحة ومبلطة حتى صار لها منظر بهيج يروق النواظر و يشرح الخواطر نظرًا لما اشتملت عليهِ مبانيها من النظام والرونق والنظافة التامة. اما المنازل فلا تكون فيها اكثر من طبقة واحدة بسبب الزلازل الارضية. وهي تشتمل على ثمان وعشرين كنيسة وكاتدريتها وان كانت صغيرة غير كاملة لكن طرزها انيق

وفيها ما عدا ذلك بعض شركات ادبية ومدارس مع مكتبة مهمة تعرّف الغريب انها اجمل مدينة في اميركة الاسبانية بعد ليما (١) ومكسيكو. وتشتمل ايضاً على مدرسة جامعة وطنية مع مرصد لرصد حركات الكواكب وحوادث الجو. والمدرسة المذكورة مشيدة في موقع دير قديم كان للرهبان اليسوعيين استولت عليهِ الحكومة ثم كافأت هؤلاء الرهبان بعد سلبهم بالنفي والابعاد مع انهم والحق يقال لو تُركوا وشأنهم لكانوا وطدوا دعائم الديانة

وفي غربي المدينة بركانان «فويغو واغوا» (٢) انتصبا في الجو كانهما يريدان القاء

(١) قاعدة جمهورية بيرو (٢) fuego و agua

الظل على رونق البلدة كما يقال في اصطلاح المصورين وقد فتحا فوهتيهما اللامعتين ببروق الوعيد لكي لا يذهب عن افكار السكان ان ثترهم قد تهدم مرتين بقوة الزلازل الشديدة

اما غواتمالا الاولى فقد اسسها رجل يدعى الفارادو . وذلك انهُ بعد ان كسر قبائل « كيشي » من الهنود الذين كانوا قد تعرضوا لهُ في مسيره دخل ارض قوم يلقبون « كاشيكل » فاحسن ملكهم استقبالهُ واكرم مثواه فاستأنس وقتئذٍ بما لاقى من اكرام الملك واختار موقعاً جميلًا للغاية قائماً بين جبلين لكي يؤسس فيهِ مدينة . وما لبث ان احتفل بوضع الحجر الاول على غاية الابهة في ٢٥ حزيران سنة ١٥٢٤ واخذ بعد ذلك يشيد المباني الظريفة بمعاونة السكان الاصليين

ولكن هذه المدينة البهيجة كانت قصيرة العمر لانهُ في ١١ ايلول سنة ١٥٤١ اخذت احدى الفوهات البركانية المشرفة عليها تقذف بغتة سيولاً من المياه المندفعة جرت معها من الصخور وجذوع الاشجار ما هدم البيوت عن آخرها واتلف السكان جميعاً الاّ النزر اليسير الذين تمكنوا من الهرب . ولم تزل آثار هذه البلدة المنكودة ماثلةً الى الان وتسمى « ثيوداد ڤييخا » (١) اي المدينة القديمة

غير ان الاسبان لم يدخلهم اليأس ولكنهم شيدوا المدينة في موقع آخر على مسافة يسيرة من الاولى في وادٍ رائق بين ذروتين خضراوين . وما عتمت ان تشيدت ايضاً بالقرب من المدينة المذكورة قرًى في غاية الظرف يأهلها الفعلة والبناؤون وصانعو الآجرّ والجزارون والزراعون ومن شاكلهم . ولما كانت الحقول التي حولها ذات جدولين غزيرين يسقيانها لم تلبث ان صارت في قليل من الزمن اشبه بجنة تفترّ عن رياحين وازهار وخضرة ناضرة ١

وقصارى القول ان هذه المدينة اي غواتمالا الثانية كانت من اولى امرها وفيرة الثروة عظيمة الرونق متنعمة بكامل الهدوء والسكينة مأهولة باربعين الفاً من السكان .

(١) Ciudad vieja

وكانت ايضاً بمنجاة من طوفان البراكين كالذي سبق الخبر انهُ دمر في الليل شقيقتها الاولى. ولكنها كانت قريبة من بركان « فويغو واغوا ». ومن ثم توالت عليها الهزات سنة ١٥٦٥ و ١٥٧٧ و ١٦٠٧ و ١٦٥١ و ١٦٦٣ و ١٦٦٩ و ١٧١٧ و ١٧٥١ واحدثت فيها اضرارًا طفيفة الاَّ انهُ في ١٧٧٣ اهتزت ارضها هزَّةً هائلة قضت بخرابها تماماً ووقتئذٍ اختيرت وادي « ميكسكو » وبنيت فيها غواتمالا الجديدة

وما وقفنا في ليفنستن غير وقت قليل اغتنمتهُ للجولان في بعض طرقاتها وشوارعها فوجدتها بلدة حقيرة وخالية من سكك حديدية تربطها بسائر البلاد وعلمت ان الجمهورية باسرها ليس فيها سوى ١٧٠ كيلومترًا من سكك الحديد بحالة الاستثمار مع ٢٩٩ كيلومترًا بحالة الانشاء. والنواحي المجاورتها مع الاراضي الواطية في سواحلها كلها وبيلة الهواء وخيمة المقام ومن ثم كانت قليلة العمران بخلاف الجهة الداخلية فانها اوفر اهلًا وسكَّاناً

اما الهنود فان اكثرهم خدام لكبار اللاكين لا بل عبيد لهم. ومن مدة سُنَّ نظام جديد من مقتضاه ان يعطى لكل من هؤلاء السكان الاصليين ملك مسافتهُ ٣٦٠٠ متر مربع وحرّم عليهِ لعشر سنوات ان يبيعه او يأجره او يرهنهُ. ومؤخرًا وضعت سنة مآلها ان كل غريب يشتغل مدة سنة في انشاء سكك الحديد يصير لهُ حق بامتلاك ١٢ هكتارًا من الارض في احدى الولايات الشمالية. ولكن هذه الولايات ما هي الاَّ اراضٍ مقفرة قليلة الخصب وعلى ذلك فيكون ما تبرعت بهِ حكومة غواتمالا غير ذي بال وليس من شأنهِ ان يشوّق الغرباء الى قصد بلادهم والاقامة فيها

وقاعدة البلاد متصلة مع البحر الباسيفيكي بسكة حديدية صغيرة اما مع البحر الاتلنتيكي فليس من سكة تصلها بهِ ولكن البضائع التي ترسلها غواتمالا اليهِ تُنقل جميعًا على ظهور الدواب. ولاجل هذه الغاية أُصلحت الطريق التي كانت قبلًا عبارة عن وهاد ومسايل ومستغدرات خطرة حتى صار السفر فيها ميسورًا بعد ان كانت القوافل عرضةً من قبل لخسارة جميع دوابها اثناء السفر المذكور الذي قد كان يستغرق بعض

الاحيان مدة شهرين الى ثلاثة

اما داخلية البلاد التي توشك ان تكون قفرًا بلقعاً لتشتت قراها القليلة فان مصلحة البريد لم تزل جارية فيها على الطريقة التي كانت لها في ايام الملك مونتيزوما اي انهُ يقوم بها عداؤون وسعاة يسيرون من موقف الى آخر ناقلين الرسائل او الاخبار الشفاهية الى بعضهم. وهم يسرعون سرعة عظيمة في نقل البريد على هذا الوجه لانه بالرغم عن رداءة الطرق وحزونتها ومشقة وهادها ونجادها ووفرة غبارها المتطاير لا يقل متوسط المسافة التي تُقطع يومياً عن التسعين كيلومترًا

غير ان ما يرى الان من الاهتمام بتوسيع دائرة الاسلاك التلغرافية والتليفونية ايضاً لا يلبث ان يبطل الطريقة البريدية المذكورة ويقوم مقامها بنوع افضل. ففي سنة ١٨٨٨ كانت قد بلغت هذه الاسلاك الى «كوبان» وكانت الهمة مبذولة لابلاغها الى «بيتين» (١)

اما المعارف هنا فانها للان لم تزل ضيقة النطاق لانهُ ليس في البلاد كلها سوى ٣ مدارس للتعليم الثانوي. ولو ان الماسون القابضين على ازمة الاحكام في غواتمالا يرغبون حق الرغبة في نشر لواء التهذيب والعلوم لكانوا تركوا فيها اليسوعيين ليعنوا في انارة العقول وتثقيف الاذهان فانهم كانوا يخرّجون نخبة شبان الوطن دون ان يطالبوا الحكومة لقاء ذلك بفلس واحد

ومن حيث ان القسم الاوفر من التجارة بين ايدي الاميركيين والانكليز جعلت معرفة اللغة الانكليزية الزامية في الدروس العالية

اما نظام هذه الجمهورية فقد اعتراه التبديل والتغيير مرارًا لان الحرّية المطلقة في هذه البلاد كما في سائر البلاد الاميركية هي التي آلت الى تسعير الحروب الاهلية وايقاد جذوتها فكان كل قائد يسعى ليتولى الرئاسة. وكلما قام على الجمهورية رئيس

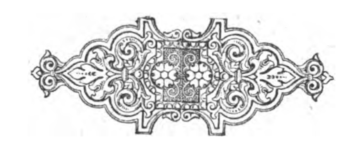
(١) Coban و Peten, من اهم مدن جمهورية غواتمالا

يحدث في نظامها شيئاً من التحوير على حسب ما يلائمه. ونظامها هذا مأخوذ من نظام الولايات المتحدة

وكأني بهذه الجمهوريات الصغيرة تخيلت انها متى اختارت نظام اميركا الشمالية وصلت الى ما وصلت اليه تلك من الاقتدار وسعة الثروة. على ان آخر التحويرات التي ادخلت في النظام كان ادخالها في سنتي ٧٩ و٨٩

ورئيس الجمهورية ينتخب لمدة ست سنوات والرئيس الحالي هو الجنرال يواكيم ثوفالا الذي كان انتخابه في شهر نيسان سنة ١٨٩٣ الماضية والان قد سلبه الرئاسة رجل يدعى « رينا برّوس » فض عقد المجالس واستأثر بالاحكام واخذ يتصرف على ما يشاء فيسجن من اراد سجنه ويبعد من اراد ابعاده بلا معارض

وبما ان رجال الحكومة قوم خلعوا كل ديانة بادروا فوضعوا ايديهم على جميع الاوقاف واملاك الاديار وحباً في ان يستميلوا العامة اليهم خصصوا قسماً يسيراً من دخلها للمدارس والباقي سرى الى جيوب كبارهم فاحرزوا باختلاسه ثروة وافرة. اما الان فقد ترتبت الموازنة في برنامج الجمهورية المذكورة لان الحكومة وضعت رسوماً فاحشة على البضائع الاجنبية واحتكرت تجارة العرق والبارود والملح



جمهورية هندوراس

الرسالة الرابعة عشرة

في

جمهورية هندوراس

اقلعت بنا السفينة في اوائل الليل من ليفنستون وصباح اليوم الثاني القت المراسي باكرًا جدًّا في مياه « پويرتو كورتث » اعظم مرافئ جمهورية هندوراس على الاتلنتيك وانما سميت بهذا الاسم لان كورتث مفتتح المكسيك هو الذي اسسها والمرفأ جزيل العرض وله منظر حسن ·

وفي البلدة عدد من تزالة الانكليز واهالي الولايات المتحدة ولها سكة حديدية تسير في وجهة الجنوب حتى تصل الى مدينة « سن بدرو » ولهذه السكة تاريخ غريب ساقص عليك ان شاء الله خبره

فبغية ان ارى البلاد واتجوّل فيها يسيرًا عزمت ان اذهب الى المدينة الثانية لان الباخرة التي اقلتنا كانت مزمعة ان تبقى في بويرتو كورتث يومًا كاملًا لتسافر في غده صباحًا

واول شيء رأيتهُ فيها سرب من العقبان الكبيرة كالتي رأيتها في ڤيرا كروث حيث يسمونها « ثوبيلوت » اما هنا فيسمونها « غاليناثو » وهي نهمة كل النهم بحيث انها تلتهم جثة ثور في بضع ساعات ومع كونها قذرة للغاية وتملأ السطوح التي تأوي اليها من اوساخها الكريهة ترى الاهالي صابرين عليها لمنافعها بل انهم فوق ذلك يحمونها ويدفعون عنها كل مضرة ويغرّمون كل من يزعجها او يؤذيها لانها تستقل في المدن بالتهام الاقذار ولولاها لكانت تختمر في الزوايا والشوارع وتفسد الهواء وتولد الاوبئة الخبيثة

وفي بعض نواحي المدينة ايضًا عقبان اكبر من هذه يسمونها « رَي دي لوس غاليناثوس » اي ملك الغاليناثو فمتى كانت مجتمعة على جيفة وجاء عقاب كبير تتفرق عنها في الحال هيبة ووقارًا وتجتمع حوله بشبه حلقة الى ان يفرغ

والبلاد بوجه الاجمال ذات ارض خصيبة الا انها لسوء الحظ توشك ان تكون كالبرية المقفرة لان جميع سكان المقاطعة لا يتجاوزون الثلاثة والثلاثين الفاً مع انها يمكن ان تسع ٣ ملايين وازيد وتقوم بكفايتهم

ولما خرجنا من بوبرتو كورتث اجتزنا في غابات كثيفة رأينا فيها شيئاً من شجر الكابلي الثمين ولكنه اصبح الان نادراً لان القاطعين يقطعون منه كميات عظيمة ولاسيما انهم لا يراعون في القطع قاعدة ولا يبالون بنماء الغابات بل غاية ما يرغبون هو ان يقطعوا اشجاراً كثيرة ليجنوا ربحاً وفيراً . وحينئذٍ تذكرت اننا حذونا حذوهم في جبل لبنان فقد كان من قبل مزيناً بغابات كبيرة من الارز والصنوبر على مدى النظر ولو انها تركت لليوم لكانت تأتي بدخل لا يُقدَّر وكاننا اردنا في الاول ان نكسب بعض دريهمات فضحينا لها مستقبلنا

ثم ان السكة الحديدية غير واصلة الاَّ الى مدينة سن بدرو المتقدم ذكرها والاهتمام الآن جارٍ بايصالها الى مدينة « كومايافوا » التي استمرت قاعدة للجمهورية الى سنة ١٨٨٠ وهي صغيرة حقيرة اما القاعدة الحالية فهي مدينة « تاغوثيغلبا » وفيها من السكان ١٢ الفاً . وأعظم شيء يتعجب منهُ من يمرّ في هذه البلاد انما هو إقفارها وقلة سكانها حتى ان المسافر يتخيل انها ديار بلاقع ليس فيها نافخ نار مع ان كل ما فيها من شانه ان يشوّق الى استيطانها

غير ان القلاقل التي لا يخمد لها سعير في هندوراس كما في سائر جمهوريات اميركة المتوسطة قد وقفت حركات الاعمال. اجل ان البلاد متمتعة الآن ببعض السكينة الاَّ انهُ يخشى ان لا يكون لهذه الحال دوام . وبناء على ما تقدم فقلما يقصد المهاجرون هذه الجهات لان عدد الاغراب فيها لا يكاد يبلغ الخمسمائة نفس

وقلما يوجد في جهات اميركة بلاد خصتها الطبيعة بمثل ما خصت هندوراس من خصب التربة ووفرة الثروة المعدنية امرين يمكن ان ترتقي بهما الى مصاف الامم الاولى في اميركة

اما حاصلاتها الزراعية التي يمكن ان تزاد اضعاف ما هي عليهِ في الحاضر فهي خاصةً التبغ والسكر والذرة والبن والبطاطا وجوز الهند والموز والكوتشوك. وكانت من قبل تصدر كميات وافرة من اخشاب الكابلي الى اوربة والولايات المتحدة. غير ان تجارتها بهذا الصنف قد ضعفت من بضع سنوات

ويُقال ان تبغها احسن اصناف التبغ في جميع اميركة المتوسطة. ويزعم البعض انهُ يضاهي تبغ هافانا جودةً والاهالي يعتنون بزراعته من قديم الزمان وللآن لم تزل زراعته ناجحة عندهم ويرسلون منهُ سنوياً كميات عظيمة الى الخارج خصوصاً الى معامل هافانا

ومع ان جمهوريات اميركة المتوسطة القريبة تعنى جميعاً بزراعة البن ولتجارته عندهن اهمية كبيرة لم يصرف الهندوراسيون قط عنايتهم الى هذا الصنف لكونهم يجنون من الاهتمام بسواه ارباحاً اوفر

وهكذا القول ايضاً عن قصب السكر فانهم مع وجود احسن اجناسه لديهم في سواحلهم وجبالهم لم يلتفتوا الى توسيع نطاق زراعته وغاية ما تبلغ الاراضي التي يزرعونها منه ٣٢٠ هكتاراً لا غير

ويوجد صنف آخر من المزروعات ينمو نماء غريباً في هندوراس اعني شجر «الانديغو» اي العظلم ومن ثم قد اتسع نطاق زراعته وجاء هذه السنة بغلة وافرة أُرسل قسم منها الى فرنسة

اما الذرة التي هي مأكل اعتيادي للسكان من الهنود فانها تنبت في جميع اراضي البلاد. ومما لا ينبغي اغفاله هو ان الزراعة في هذه الجمهورية لم تزل في حالة ابتدائية بمعنى ان جميع فروعها تستلزم التحسين الكثير. هذا بخصوص الزراعة واما تربية الحيوانات ذوات القرون فان الهندوراسيين قد افلحوا فيها حتى انهم صدَّروا منها سنة ١٨٩٢ ما تبلغ قيمته ٩١٤٦ ليرة استرلينية. وفي سنة ١٨٨٢ قوّمت مواشيها بمبلغ ١٬٦٣٤٬١٢٠ ليرة استرلينية

غير ان تقويمها كان بعيدًا عن الحقيقة لان اصحاب المواشي خافوا ان ترتب الحكومة رسومًا على الرؤوس فاخفوا منها عددًا وفيرًا. ويقال انه لولا ذلك لما كانت قوّمت باقل من ٣ ملايين ليرة استرلينية او ٧٥ مليون فرنك

وفي سنة ١٨٩٢ بلغت صادرات هندوراس قيمة ٦٨٥ء٢٥٦ ليرة استرلينية منها ٤١٦ء٩١ للمواشي و ٠٣٢ء٢٩ لاثمار الموز و ٦٠١ء١٢ لجوز الهند و ٠٠٠ء٥ للبن و٧١٣ء٣ للتبغ المصنوع و ٠٤٢ء٣ للتبغ غير المصنوع و ٧٤٢ء٢ للحشيشة المغربية و ٣١٧ء٢ لبرانيط القش . اما الخارج من الذهب فبلغت قيمته ٦٩٢ء٢ والفضة ٢٨٢ء١٠٠ ليرة استرلينية. فتكون جملة الصادرات اقل من صادرات سنة ٩١ التي ادركت قيمتها ٣٨١ الف ليرة استرلينية

وقد اتخذت الولايات المتحدة من صادرات سنة ١٨٩٢ بقيمة ٠٧٢ء١٣٧ ليرة استرلينية وغواتمالا بقيمة ٣٧٥ء٦٩ وهندوراس الانكليزية بقيمة ٥٩٧ء١٢ وسلفادور بقيمة ٢٣٩ء١٥

وبعد هذه البلدان تأتي المانية اخذت بقيمة ٠٩٤ء٨ ليرة استرلينية ثم انكلترة بقيمة ٠٦٤ء٥ وكوستاريكا بقيمة ٠٢٣ء٤ ونيكاراغوا بقيمة ٨٨٩ء١ وفرنسة بقيمة ٠٩١ء١ واسبانية بقيمة ٩٥٩ ليرة استرلينية

ومما تقدم يتضح ان الممالك المتحدة في اميركة الشمالية هي اوفر الامم علاقة مع هندوراس في تجارتها الخارجية من حيث الصادرات والواردات وذلك اولاً نظرًا لقرب البلادين وثانيًا نظرًا للمعاهدات التجارية المنعقدة بينهما على صورة موافقة

وفي سنة ١٨٩٢ بلغ دخل جمهورية هندوراس ٧٦٣ء١٣٧ء١ دولارًا والنفقات ٦٥٣ء٦٠٣ء٢ وديونها تبلغ ثمانية ملايين ليرة استرلينية

وارضها كما تقدم القول غنية بالمعادن كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد والانتيمون وغيرها. اما الفحم الحجري فكثير فيها جدًا ويكثر على الخصوص في ساحلها الشمالي. وقد حفظت الحكومة لنفسها حق استخراجه فقط واذنت للرعية في استخراج

سائر المعادن ضمن دائرة نظـام مخصوص

هذا ولما كنت الآن قد رجعت من سفرتي الوجيزة بسكة الحديد حان لي ان اقص عليك خبرها الغريب الذي وعدتك بقصصه فاسمع لي بانتباه:

كانت الافـكار قد توجهت من زمان مديد الى انشاء سكة حديدية تخترق اميركا المتوسطة نظرًا لما يترتب عليها من تقصير المسافات وتقريب الابعاد وبناء عليهِ لما عرض على حكومة هندوراس مشروع السكة المذكورة مع جملة مشروعات اخرى خصته بالايثـار معتبرة اياه اسهل مما سواه . واذ ذاك اغتنم الفرصة بعض ذوي الاطماع ودفعوا الحكومة في ورطة الاستلاف والإستقراض فافلحوا في سعيهم

فيا عجبـا لهذا العصر الملقب بعصر الانوار مـا اسرع تسرُّب الخداع فيهِ الى الاذهان. حقًا ان اجدادنا كانوا اوفر منا حكمة وفطنة. اما نحن فان لنا نفوسًا تغلب عليها حب المال واكتسابه في وقت سريع حتى انها صارت تقع في اول حبالة تُنصب لها

وعليهِ ففي سنة ١٨٦٧ عقدت سلفة قدرهـا ٢٥ مليون فرنك وأُخذ في الانفاق منهـا على العمل. وفي سنة ٦٩٠ و٧٠ ادعى الموكلون نفاد المال وطلبوا من اصحـاب الاسهم في السنـة الاولى ٥٦ مليونًا وفي الاخرى ٦٢ مليونًا مع ان اول قسم من هذه السكة ليس من صعوبة فيهِ اصـلًا لمروره في اراضٍ مستسهلة

وبعد ان تم النجاح لارباب المصارف في مشروعهم السابق نشروا الاخبار بانهم عقـدوا العزم على انشاء سكة حديدية لنقل السفن بمعنى ان البواخر التي تصـل الى بويرتو كورتث توضع على عجلات كبيرة وتنقل على القواطر الى البحر الباسيفيكي وبهذه الوسيلة البالغة حد الاعجاز من الترغيب طلبوا ٣٧٥ مليون فرنك. غير ان الشعب المسكين تنبه هذه المرة الى الخديعة الجديدة ولم يترك السلبـة يسرقون من هذا المبلغ العظيم سوى بضعة ملايين لا غير

وكانت نتيجة ذلك كله اثقال هنـدوراس بدين باهظ قدره ١٣٠ مليونًا أُنفق

منها على انشاء سكة الحديد ١٧ مليونًا فقط واما الباقي فانهُ تسرَّب الى جيوب ارباب المصارف الذين غشوا البلاد ليوفروا ثروتهم الخصوصية . ولا ريب في ان هندوراس صارت بذلك الى حالة سيئة للغاية واصبحت عاجزة عن وفاء ديونها لانها من سنة ١٨٧٣ الى سنة ١٨٩٠ لم تستطع دفع شيء من الفوائض لمسلفيها. ويقول المضطلعون باحوالها انها لو خصصت جميع دخلها على مدة ٤٠ سنة لوفاء الديون المذكورة لما قدرت ان توفيها بتمامها

وكل فرد من سكانها يلحقه منها الف فرنك اعني بزيادة تسع على ديون فرنسة التي هي اعظم ديون الممالك. ولكن من اين للهندوراس ان تحرز الموارد العديدة التي في فرنسة

وحكومة هندوراس كحكومة سائر الجمهوريات التي تجاورها ولا تتميز عنها الا بتوافر الاضطراب فيها على ما سواها لانهُ من سنة ١٨٢٤ الى سنة ١٨٨٣ توالى عليها ٤٨ رئيساً ورئيسها الحالي هو الجنرال عبد الاحد قسكيث والاكثرية هنا تمدحه وتثني عليه ولكن في البلاد حزب يناقضه

مقابلة ديون الممالك

جمهورية ليبارية (افريقية)	٥،٠٠٠،٠٠٠	فرنك
هاواي	٩،٦٠٠،٠٠٠	«
نيكاراغوا	١٥،٠٠٠،٠٠٠	«
سويسرة	٣١،٠٠٠،٠٠٠	«
سلفادور	٣٥،٠٠٠،٠٠٠	«
كوستاريكا	٥٠،٠٠٠،٠٠٠	«
بوليفية	٧٤،٠٠٠،٠٠٠	«

خط الاستواء	٠٠٠ع٠٠٠ع٨٠	فرنك
غواتمالا	٠٠٠ع٠٠٠ع١٠٥	«
پاراغواي	٠٠٠ع٠٠٠ع١١٩	«
الصين	٠٠٠ع٠٠٠ع١٢٥	«
نروج	٠٠٠ع٠٠٠ع١٤٧	«
دانمرك	٠٠٠ع٠٠٠ع٢٧٠	«
الصرب	٠٠٠ع٠٠٠ع٢٨٠	«
كولومبية	٠٠٠ع٠٠٠ع٣١٢	«
هندوراس	٠٠٠ع٠٠٠ع٣٢٦	«
اسوج	٠٠٠ع٠٠٠ع٣٧١	«
اوروغواي	٠٠٠ع٠٠٠ع٣٦١	«
شيلي	٠٠٠ع٠٠٠ع٤٣٨	«
ڤينثويلا	٠٠٠ع٠٠٠ع٥٦٣	«
اليونان	٠٠٠ع٠٠٠ع٦٢٤	«
المكسيك	٠٠٠ع٠٠٠ع٦٥٣	«
رومانية	٠٠٠ع٠٠٠ع٨٥١	«
پيرو	٠٠٠ع٠٠٠ع٣٣٦ع١	«
الجمهورية الفضية	٠٠٠ع٠٠٠ع٤٢٤ع١	«
اليابان	٠٠٠ع٠٠٠ع٥٥٠ع١	«
المانية	٠٠٠ع٠٠٠ع٦٦٤ع١	«
هولندة	٠٠٠ع٠٠٠ع٣٣٧ع٢	«
بلجكة	٠٠٠ع٠٠٠ع٥٠٠ع٢	«
برتوغال	٠٠٠ع٠٠٠ع٠٧٦ع٣	«

برازيل	٠٠٠،٠٠٠،٠٧٧،٣	فرنك
الولايات المتحدة	٠٠٠،٠٠٠،٦٠٠،٥	〃
اسبانية	٠٠٠،٠٠٠،٧٠٠،٦	〃
ايطالية	٠٠٠،٠٠٠،٣٥٠،١١	〃
روسية	٠٠٠،٠٠٠،٨٠٧،١١	〃
اوسترية	٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،١٥	〃
انكلترة	٠٠٠،٠٠٠،٢١٠،١٧	〃
فرنسة	٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٣٣	〃

ما يصيب الرؤوس من الديون العمومية في كل مملكة

الصين	٠،٣٠	فرنك
سويسرة	١٠	〃
المانية	٢٩	〃
يابان	٤٠	〃
نيكاراغوا	٤٠،٥٠	〃
سلفادور	٥٣	〃
المكسيك	٥٥	〃
بوليفية	٧٤	〃
غواتمالا	٧٥	〃
خط الاستواء وكولومبية	٨٠	〃
الدولة العلية	٨٠،٧٥	〃

الولايات المتحدة	٨٩	فرنك
روسية	١٠٠	«
رومانية	١٢٠	«
دانمرك	١٣٥	«
الصرب	١٤٠	«
شيلي	١٤٦	«
برازيل	٢٢٠	«
كوستاريكا	٢٢٨	«
ايطالية	٢٧٨	«
اليونان	٢٨٤	«
اوسترية	٣٥٠	«
الجمهورية الفضية	٣٥٦	«
اسبانية	٤٠٠	«
بلجكة	٤١٦	«
هولندة	٤٦٨	«
انكلترة	٤٩٢	«
پيرو	٥١٥	«
اوروغاي	٦١٠	«
فرنسة	٨٣٦	«
هندوراس	٩٨٢	«

جمهورية نيكاراغوا

الرسالة الخامسة عشرة
في
جمهورية نيكاراغوا

لما ان سافرنا من بويرتو كورتث استمرَّت الباخرة تسير بنا مدة النهــار حول سواحل هندوراس المقفرة. وعند الظهر وقعت لنا حادثة مَضحكة وهي اننا بعد ان فرغنا من تنـــاول الطعام وحان احضار الفاكهة التفت الربان الى بعض الركاب الذين كان قد همَّ بعضهم بالنهوض فقال « اترغبون ان تروا انطونيو مباشرًا خدمته » قلنا ومن هو . قال « انهُ احد خدمي على انهُ ليس باقلهم لباقة » وما قال هذا حتى صفق بيديه فخرج للحال مخلوق غريب الشكل طوله متر وعشرون وكان يمشي محدودبًا مع غنج ودلال وهو لابس بنطلونًا ابيض وسترة حمراء وعلى رأسه قبعة حمراء ايضًا

واستفهمنا عنهُ فقال انهُ من جنس القرود من طائفة « الشمباتري » ولهُ من العمر ١٢ سنة ثم اشار اليـــهِ فاخذ منشفة بيده وجعل يمسح الصحـــائف باتقان وانتباه ويحضر الفاكهة بعجلة ولباقة. وكنا نحن ننظر اليهِ متعجبين وبالحقيقـــة انهُ كان يحسن الخدمة نظير الزنجيَّين اللذَين كانا في الباخرة ويزيدهما في السرعة. غير انه كلما رأى انهُ ليس من احد يرصده كان عند اتيانهِ بالصحاف ولاسيما السكريات لا يتمالك الاَّ ان يوغل فيهـــا لسانه

وما عدا هذه الخصلة الشنعاء كانت فيهِ خصلة ثانية اشنع . وهي انهُ لما فرغ الطعام ورفعت الالوان ناداه الربان وقد درى بقبيح ما فعل فضربه بالعصـــا ضربة مؤلمة ففهم السبب وقلب في الحال جيوبه فاذا هي ملأى بالمربيات والاثمار . واذ ذاك اغتنم الربان هذه الفرصة ونبهنا ان نسد سدًّا محكمًا كل ما لدينا من قنـــاني المشروبات لان قرده لا يحجم قطعًا عن تفريغ كل قنينة تصل اليها يده

وصباح اليوم الثاني بانت لنا سواحل جمهورية «نيكاراغوا » وكان بصحبتنا في الباخرة

كثير من مرسلي البروتستان الاميركيين ذاهبين الى « بلوفيلدس » وهو ثغر صغير من ثغور نيكاراغوا وقد وقفت بنا الباخرة عنده وقتاً يسيراً ريثما انزلت المرسلين المذكورين وامتعتهم العديدة. وكنت حادثتهم طويلاً وفهمت ان لهم في بلوفيلدس وجوارها مدارس كثيرة. والمتكلمون بالانكليزية وفيرو العدد في هذه الناحية اولاً لتكاثر المدارس المتقدمة الذكر وثانياً لقربها من الاملاك الانكليزية وتردد سفن انكلترة والولايات المتحدة اليها

وبعد هذا استأنفت الباخرة مسيرها متوجهة الى « سن جوان دل نورته » اي مدينة القديس يوحنا الشمالية فوصلنا اليها قبل الغروب بساعة. ولانها كانت مدة في حوزة انكلترة صارت تسمى ايضاً « غريتون » (١) وهي اعظم ثغر تجاري لجمهورية نيكاراغوا على البحر الاتلنتيكي

ومنازل السكان فيها من الخشب مطلية من الخارج باللون الابيض تحيط بها حدائق غناء وتظللها اشجار النخيل مع اشجار الخبز وغيرها من الانبتة الغريبة الاشكال. ومع ان موقع هذه المدينة في مستنقع من الارض لا يضرّ هواؤها بالصحة

وقد عزمت ان اتجول فيها غداً صباحاً واخبرك عن مشروع الترعة العظيمة لوصل الاوقيانوسين نقلاً عما افادنيه احد المهندسين الاميركيين الذي تعرفت بهِ في الباخرة . والمهندس المذكور بعد ان اقام سنة في نيكاراغوا متشاغلاً بمشروع الترعة لحساب شركة اميركية عاد بالرخصة الى وطنه ليصرف فيه بضعة اشهر ترويحاً للنفس من عناء الاعمال وهو الذي عرض عليّ ان يرافقني غداً الى المدينة ويشرح لي كل مبهم . . .

. . . .

صرفت عامة النهار في المدينة وجوارها بصحبة رفيقي المهندس وعلمت منهُ ان الخواطر كانت قد انصرفت من زمان طويل الى فتح ترعة في هذا المحل تصل الاوقيانوس الباسيفيكي مع الاتلنتيكي لان البرزخ قليل الاتساع وطوله لا يتجاوز

(١) San Juan del Norte و Greytown,

على خط مستقيم ٢٠٠ كيلومتر. وزد على ذلك ان وسطه مشتمل على بحيرة متسعة عميقة وليس في مسافته كلها سوى ذرًى قليلة الارتفاع ومن ثم تعددت المشروعات وتألفت عدة شركات لم تظفر بنجاح مدة بضع سنين

غير ان اخفاق ترعة بناما انعش آمال الاميركيين وابتدأوا الاشغال في اواخر سنة ١٨٩٠ وقد ذهبتُ والمهندس الى محل العمل فاذا الاشغال سائرة بغاية البطء وعدد الفعلة قليل. وبمقتضى حسابات المهندسين يلزم لاتمام المشروع ٣٧٥ مليونًا ويزعم غيرهم انهُ يلزم لهُ ضعف هذا المبلغ

ويدعي الاولون ايضاً انهم يقوون على انجاز الاعمال في ست سنوات ولكنه امر بعيد الاحتمال وسيكون طول الترعة ٢٧٣ كيلومترًا واكبر السفن حمولاً لا تصرف اكثر من ثلاثين ساعة لتجوز فيها من احد الاوقيانوسين الى الآخر

ويصب في ثغر سن جوان نهر كبير يمكن ان تسير فيهِ اعظم السفن ضخامة. ولدى روَّيته تعجبتُ من تقاعد الاهالي عن اجراء المراكب فيهِ واوضحت ذلك للمهندس رفيقي قائلًا انهُ يكفي لذلك اشغال يسيرة لتمهيد مجراه وازالة بعض التلال الرملية عن جوانبهِ فاجاب ان مجراه ليس على وتيرة واحدة فتارةً يعلو وتارةً يسفل بحسب الاماكن التي يمرّ فيها وعلاوة على ذلك يحمل كثيرًا من الصلصال والطين مما يمنع الانتفاع به على الاقل في مسافة الثلاثين كيلومترًا التي تفصله عن البحر. اما في ما وراء المسافة المذكورة فمن حيث ان مياهه اوفر سكونًا وهدوءًا يستطاع استخدام ٤٠ كيلومترًا منه بصفة قناة

وحينئذٍ اعترضت عليهِ قائلًا «سمعت ان بحيرة نيكاراغوا اعلى من مياه البحر بثلاثة وثلاثين مترًا فكيف السبيل الى تذليل هذه الصعوبة»

فاجاب على اعتراضي بقوله: تبني في الاقل ثلاث مسنيات لترتفع السفن بواسطتها الى مساواة البحيرة واذا ما انتهت اليها لا يبقى سوى تعميق الجهة الجنوبية التي تمرّ فيها السفن ثم تنشأ وراءها ترعة ذات طبقات متفاوتة لتوصل المراكب تدريجًا الى مرفا «بريتو» على البحر الباسيفيكي. فقلت ومن اين الدراهم لهذا المشروع الخطير. قال

ههنا الصعوبة الكبرى لان المساهمين لا يسخون بدفع الاموال وعلاوة على ذلك لا يبعد ان لا يكفي مبلغ الثلاثمائة والخمسة والسبعين مليوناً لاتمام العمل

ولكن ايقن ان مشروعنا يقصر من مسافة السفر على البواخر ١٥ الف كيلومتر ويكفيها موءونة الدورة حول اميركا الجنوبية وللان لم يقدم احد على عمل نظيره . فقلت : ما قولك في ترعة السويس قال انها ليست شيئاً مذكوراً بالنسبة الى ما نزيد. عمله وما استعظمها الناس الا لانها كانت اول مشروع من هذا الجنس . وزد على ذلك انها خلت من المصاعب والمشاكل التي عندنا

وبينما كنت اتجول مع المهندس المذكور على ضفة نهر سن جوان ابصرنا كثيراً من السلاحف الكبيرة كانت تغوص في الماء كلما دنونا منها وابصرنا ايضاً ضرباً من التماسيح يشبه التماسيح التي كنت قد رأيت جلودها محشوة بالعصيفة في بعض الدور بالقطر المصري . وهي بوجه الاجمال تركن الى الفرار كلما احست بدنو انسان ومع ذلك فقد رأينا واحداً منها بطول ٨ امتار ثبت امامنا غير حافل بنا فاضطر رفيقي ان يطلق عليه بندقيته فاصابه الرصاص وتزلج على حراشفه ولم يضرّه شيئاً الا انهُ اسرع الى النهر فغاص في مياهه

والتماسيح المذكورة تتكاثر في برزخ اميركا المتوسطة ولا تمكث في الماء الا لاصطياد قوتها من الاسماك وتحتفر عند الشواطئ ثقوباً ضيقة تدخل فيها مآخيرها قبل روءوسها وتختبئ راصدة بالصبر فرائسها حتى اذا شبعت وامتلأت خرجت الى الشمس ورقدت في الضح لكونها ميالة الى الحرارة

والصغيرة منها غير خطرة لانها لا تجرأ على مهاجمة الانسان واذا خرجت لترقد على الرمل تتجنب التماسيح الكبيرة لانها تبادر الى افتراسها بشراهة

ويقال ان الحيوانات المذكورة تعمّر طويلاً وتكبر كثيراً ومتى شاخت تنبت في اجسامها الثآليل ويعلوها شيء اشبه بطحلب الماء ضارب الى الاخضرار فيجعلها شبيهة بجذوع قديمة مغشاة بالطين والتراب . واذ تكون قد ثقلت وقتئذٍ حركتها واصبحت

عاجزة عن التقاف الاسماك التي تصادفها في طريقها تصير خطرة على المواشي والناس ايضاً

وقد اخبر بعضهم عن احد التماسيح انهُ الجأ قرية بكاملها الى الوقوف موقف الاحتراز ومع كل ما اتخذوا من التحوطات افترس منهم اثنين . وكان اذا تطوح احدهم بزورق وحده في النهر يطوف التمساح المذكور حوله حتى اذا امكنته الفرصة وضع قائمته في الزورق محاولاً انقلابه. واخيرًا توصل الاهالي الى قتله بالرصاص فتخلصوا من اذاه

على ان قتل هذا الحيوان في الحال ليس بالشيء الهيّن اذ ينبغي ان تصيبه الرصاصة بقرب عينيه او تنفذ في جلد بطنه. لكن ادنى جراحة تصيبه يصعب شفاؤه منها ومتى خرق الرصاص جلده ولو خرقاً خفيفاً كفى ذلك لان يميته في ايام قليلة واحسن الوسائل لقتله ان يؤخذ شص متين تعلق بهِ قطعة من لحم الخضاري ويشد بحبل الى شجرة في الشاطئ فمتى اشتم رائحة اللحم اقبل على التهامه فينفذ الشص في فمه ويسحب الى البرّ حيث يذبح كما تذبح الشاة

والتماسيح المذكورة تنام فاتحة افواهها على حين تكون فكوكها العليا منتصبة بهيئة عمودية غير انها تستيقظ لادنى حركة . ومتى ركنت الى الهرب او طاردت فريسة تسرع سرعة عظيمة وتتحول ذات اليمين وذات الشمال بكل سهولة وقلما ينجو منها انسان في الركض. اما في الماء فتسبح بغاية النشاط ولا تحرّك غير اذنابها لان قوائمها لاصقة باجسامها

اما السلاحف فتصرف اكثر اوقاتها في المياه وبعض اصنافها تقضي معظم حياتها في البر وفيها نوع كبير يدعى « موروكوي » يكبر جداً والاهالي يصطادونها ويأكلونها ويزعمون ان لحمها جيد ولكن قبل ان يميتوها يذيقونها الواناً من العذاب

ولا اكتمك ان ما رأيتهُ من ملاطفة رفيقي المهندس كان قد سحر لبي وفتن عقلي . وقد بان لبصيرتي العاجزة ان كل ما قالهُ في موقعه ومحله وان كنت لست مهندساً وليس لي نظر صائب في هذه الامور . ومما ينبغي ان تعلمه ان المهندس المذكور اميركي وان

الاميركيين يتفاخرون ان يتموا بدون اسعاف اجنبي هذه القنـاة ويظفروا بالنجاح حتى يبين فضلهم على الفرنسيين الذين اخفقوا في قناة بناما ولهذا اثبت المجلس الاعلى في الولايات المتحدة رسوم القنـاة المذكورة حالما عرضت عليهِ ولا يبعد ان يقترع الان على المبالغ اللازمة لانجاز الاعمال

ولما ان عدت مساء النهار الى السفينـة افضت في الكلام على قناة نيكاراغوا واطرأت المشروع بحضور جم من الركاب وما انتهيت حتى التفت اليَّ واحد منهم رأيتهُ في ما بعد قد نزل في «كولون» متوجهاً الى بناما وقال:

«ان محدّثك لم يُبيِّن لك سوى الجهة السهـلة في المشروع وكتم عنك مشاكله ومصاعبه العظيمة فاعلم ان طول القناة المحكي عنهـا جزيل يورث ضياع وقت عظيم ويزيد بنوع حسي نفقات المحافظة والاستثمار. ولا بد من اقامة مسنيـات اي سكور منعاً لما تجلبهُ بحيرة نيكاراغوا من الطين الذي يأتيها من سواعدها اي مجاريها المختلفة اما نهر سن جوان المراد اتخاذ قسم منهُ لهذه القناة فان فيهِ تعوجات كثيرة تجعل مسير السفن الكبيرة صعباً بل خطرًا للغاية

«ثم انهُ ابتداء من الموضع الذي تغادر فيهِ القنـاة مجرى النهر يجب ان تقام من الجانبين على مسافة ٤٥ كيلومترًا حواجز عالية جداً وقد دلت التجـارب ان مثل هذه الحواجز تستلزم الاصـلاح والترميم بدون انقطاع لاسيما في هذه النواحي التي تتوالى عليها الامطار كالسيول الجارفة

«وزد على ما تقدم ان ميناء «غريتون» لا يستطاع جعله صالحاً لرسو السفن الا عقيب اشغال طويلة تقتضي نفقـات وفيرة. والصعوبة كل الصعوبة ان الناحيـة المنوي اجراء القنـاة فيهـا انما هي عرضة للزلازل والهزات المتواصـلة. فكيف تقوى يا ترى السـدود والمسنيات والحواجز مهما بلغت متانتها على مقاومة طوفان البراكين الذي يدمر مدناً برمتها ويخرب بلادًا باسرها

« واكتفي الان ان اخبرك عما حدث من هذا القبيـل في النصف الاول من

سنة ١٨٨٠ فاعلم انهُ في ٢٩ حزيران قذف بركان « فويغو » بسيلين زاعبين من الحمم . وفي ٦ ايار برزت من الارض قمة بركانية في سلفادور فحدث عنها زلازل وهزات شديدة القت اعظم الرعب والخوف في النواحي المحيطة بها ثم انهُ من ٧ الى ١٢ حزيران تكررت الهزات الارضية في مدينة غرناطة (١) الواقعة على بحيرة نيكاراغوا

« وما خلا كل هذا فان اقامة السكور طريقة مربكة من شأنها احداث العاقة في مسير البواخر التي تضطر كلما دنت من سكر ان تتمهل شيئاً فشيئاً في مشيها وبعد ان تجوزه لا تستطيع ان تعود الى سرعتها الا بالتدريج

« ولا مراء ان ادارة السفن وهي على الحال المتقدمة امر في غاية الصعوبة لانها في وقت تباطيها تعاصي سكانها (دفتها) وتصير العوبةً بين ايدي الرياح . ولا يخفى ان الرياح العاتية يكثر هبوبها في اميركا المتوسطة فاذا ثارت احداها على السفينة فلا بد ان تلقي بها على احد جانبي القناة .

« ثم انهُ لا يتصور ان تمرّ سفينة بطول ١٠٠ متر في ١٥ سكراً دون ان يصيبها بعض التلف والتعطيل ولا بد ان يُضاف الى كل ما تقدم صعوبة المحافظة على الآلات التي تستخدم لرفع السكور الكبيرة في مناخ وفير الرطوبة كمناخ اميركا المتوسطة »

هذا مجمل الاعتراضات التي اعترض بها عليَّ الرجل المتقدم ذكره ولا اكتمك ان اعتراضاته احدثت فيَّ اولاً بعض التأثير لاسيما عندما اثبت لي ان الشركة الاميركية اعلنت افلاسها غب ان اتمت بضعة كيلومترات من المشروع . غير اني علمت بعد ذلك انهُ من مستخدمي الشركة الفرنسية العازمة على استئناف العمل لفتح ترعة بناما فادركتُ وقتئذٍ سرّ كلامه

وكانت باخرتنا قد رفعت المراسي ومخرت في العباب واطلت بنا على سواحل جمهورية « كوستاريكا » الا ان ظلمة الليل صدت ابصارنا عن رؤيتها

(١) بالاسبانية Granada

اما انا فقد اطلت السهر تلك الليلة رغبة في استماع احاديث الركاب الذين بصفة كونهم سياحاً او مهندسين قد جابوا اميركة المتوسطة كلها وعرفوها حق المعرفة وقد فهمت منهم ان البلاد المذكورة كثيرة الخصب والريف حتى ان الحبة الواحدة تعطي مئة حبة وفي بعض الاحيان يستطيع الزارع ان يستغل في السنة ٣ غلات من الشعير والهرطمان والارز والسمسم والحمص والعدس والفول وتنبت في جبالها بوفرة غابات اشجار البناء والاصباغ كالارز والبقم وغيرهما

وينمو في ظلال هذه الغابات كثير من الحشائش الطبية كالحشيشة المغربية والخزبق مع شجر البن وخيار الشنبر والحمر اي التمر الهندي. اما السكر واللوز الهندي والنيل فهي بعد الدودة القرمزية اهم حاصلات البلاد واوفرها دخلاً. ومن حاصلاتها ايضاً البلسم والصمغ ودم الاخوين والزعفران والفلفل والجلود والكبريت وملح البارود وملح النشادر والقطن والتبغ وفي جبال داخليتها كثير من المعادن الثمينة مثل الذهب والفضة والحديد وغيرها

ولما كانت هذه الناحية بالمنزلة التي تقدم ذكرها من الثروة والغنى توارد عليها الناس موءخوًا من كل الجهات ليصيبوا منها حظاً بين علماء وبحارة وطبائعيين وتجار ومهندسين ومفتتحين ومشعوذين وشذاذ . ومع كل ذلك استمرت للان قليلة السكان الى حدّ بالغ وقليلة الحاصلات كثيرًا بالنسبة الى ما سواها

وان قيل الى اي الاسباب يُنسب ذلك . اجبنا ان رداءة هوائها ووخامة مناخها هي العلة الاصلية في ما تقدم ويضاف اليها التحاسد والتضاغن اللذان اولدا الحروب الداخلية وحالا دون التقدم والعمران في هذه البلاد المنكودة الحظ . على انهُ من الممكن ان تنهض من هذه الورطة في وقت قريب وترتفع منزلتها الادبية والمادية اذا وطدت دعائم سياستها ووفرت اتصالياتها مع اوربة ولا شك ان خرق القناة الموصلة بين الاوقيانوسين ستكون من افعل الوسائل لادراك هذه النتيجة

وفيها ايضاً اجناس كثيرة من الحيوانات البرية اما الحيوانات الاهلية فهي كذلك

غير قليلة ولها عدوٌّ من الذباب يؤذيها اشد الايذاء . غير ان الثيران لحسن الحظ قد اوجدت العناية لها دواءها بقرب دائها وذلك ان اكثر السباسب في اميركة المتوسطة يتوافر فيها صنف من الشحارير يقع على الثيران المذكورة ويتشاغل دائمًا بتخليصها من اذى الذباب . وحيث لا وجود لهذه الشحارير يضطر البقارة ان يسعوا وراء الثيران النافرة ويوقفوها واحدًا بعد واحدٍ ويطردوا عنها الذباب بنفوسهم

والثيران في برزخ بناما حسنة القدود من حيث العرض ومع كونها ذات قرون حادة تراها قيدة ذلولةً ما لم ترَ لونًا احمر فتغضب ويخشى وقتئذٍ اذاها والبقارة القائمون على حراسة اسرابها لا يدنون منها الاَّ وفي ايديهم حبال مخصوصة لايقافها تنتهي بعقد محلولة واسعة

اما الخيل فهي صغيرة القوام رديئة الخلق ولكنها تصبر على التعب صبرًا عجيبًا وتمشي بسهولة الى ستة ايام متوالية بحساب ثمان عشرة ساعة كل يوم وهي تعيش هملًا في سباسب البرزخ

واعلم ان جميع هذه التفاصيل التي تقدم بيانها قد أخذتها من افواه الركاب اثناء مفاوضاتي معهم فبعثت اليك بخلاصتها . وقد كنت كلما اقبل المساء اجتمع واياهم للتسامر على ظهر السفينة لان الجو كان صافيًا والبحر هادئًا والجارية تمخر العباب بسهولة

وكنت اعد ذلك احسن الاوقات لمجاذبة اطراف الحديث لان سكينة الليل مع الوحدة في وسط الاوقيانس العظيم كانتا تستدعيان تطارح الافكار وتبادل الكلام لقضاء السهرات الطوال . والان اذ قد شعرت بالتعب من كتابة هذه الامور كما اظن انك ستشعر ايضًا بمثل ذلك لدى قراءتها اختم رسالتي داعيًا بحفظك ولا اعلم متى أُتبعها برسالة أُخرى

جمهورية كوستاريكا

الرسالة السادسة عشرة

في

جمهورية كوستاريكا

بعد ان سارت بنا السفينة بضع ساعات القت مرساها امام ثغر «ليمون» من جمهورية كوستاريكا. ومرفا الثغر المذكور امين والمدينة وان كانت حديثة النشأة الا انها تزداد نموًّا وعمرانًا لاسيما بعد ان مُدَّ خط حديدي وصلها بمدينة «كرتاغو» التي كانت قاعدة الجمهورية سابقًا. غير ان الخط المذكور اقتضى اشغالاً كثيرة وكلفًا جمة لاجل امراره في المستنقعات الواقعة بضواحي المدينة المذكورة

وقد رأيت البلاد جميلة وخصيبة وان كانت واطية التربة قليلًا. ويمكن القول عن عامة السواحل البحرية في اميركة انها رديئة المناخ وبيئة الهواء لاسيما اذا كانت واطية. ومما يزيدها وخامةً واضرارًا بالصحة مجاورتها للمستنقعات التي ان هي في الحقيقة الا عش الامراض الوبائية ومصدر الادواء الوبيلة

وقد كان بودي ان اسافر الى كرتاغو غير ان قصر اقامة سفينتنا في ثغر ليمون لم يأذن لي في ما اشتهي وفضلًا عن ذلك اني ذكرت لك في مراسلاتي السابقة ما به الكفاية لتعلم مجمل حالة البلاد

وقد جلتُ في ارباض ليمون جولة قصيرة المدة وفي اثنائها تمكنت من رؤية طائرها المشهور المدعو بلغة الافرنج «ڤامپير» وكنت قبل غشياني لاميركة كثيرًا ما اسمع الناس يتحدثون عن هذا الطائر المخيف الذي يمتص دماء بني آدم حتى اني بينما كنت على ظهر السفينة اكد لي عدَّة من الركاب انهم رأوه واخبروني عنهُ اخبارًا مرعبة. وهو بهيئة خفاش عظيم الجثة للغاية فمن ساقهُ نكد حظه الى الرقاد في الفلا يقع الطائر على صدره ويمتص من دمه دون ان يوقظه ومتى طلع الصباح ينهض الراقد مرعوبًا لرؤيته نفسه غائصًا في بركة من الدم. وفي بعض الاحيان لا يستيقظ غير يقظة الموت كما حدث

للمهندس « بروك » احد الذين كانوا يشتغلون بتخطيط ترعة بناما

وقد يتفق ايضاً ان تأتي هذه الخفافيش اسراباً وتنقض على الحيوانات الاهلية من ثيران وخيل ودجاج وهررة وكلاب ويضطر السكان وقتئذٍ ان يهربوا بمواشيهم اذا شاؤوا ان لا يخسروها جميعاً متربصين تحوّل الخفافيش الى ناحية اخرى من البلاد

والنجاح المادي في جمهورية كوستاريكا اذا لم يكن سريع الخطو كنجاح سائر الجمهوريات الاسبانية الاميركية الا انهُ ثابت وجارٍ على طريقة منتسقة وقانونية كما يتبين ذلك من تزايد السكان الذين بعد ان كانوا ٨٠ الفاً سنة ١٨٤٤ ارتقوا الى ١٢٠،٥٠٠ سنة ١٨٦٤ واربوا على ١٨٢،٠٠٠ سنة ١٨٨٣ وتقدَّر الزيادة السنوية فيهم باثنين ونصف في المئة عبارة عن اربعة او خمسة الآف نسمة . واذا اضفنا الى السكان لفيف الهنود العائشين الى الان بعزلٍ والبالغين ثلاثة او اربعة الآف نفس بلغ اهالي كوستاريكا اجمالاً ٢٢٠ الف شخص

اما عدد المهاجرين الاغراب فلم يزل حتى الان قليلاً . وفي سنة ١٨٨٣ بلغوا ٤٦٧٢ يجب ان يُطرح منهم في الحقيقة نحو الالفين من اهالي كولومبية ومتوسط اميركة لاتصالهم بكوستاريكا اتصال الجوار. فالمهاجرون الحقيقيون اذاً هم اولاً سودان جزيرة جمايكة ويبلغون نحو الالف ثم بعض من الاسبان واهالي الجزائر الخالدات واميركة الشمالية والالمان والصينيين والفرنسيس والالمان

ولجمهورية كوستاريكا شأن غير منحط في التجارة واهم حاصلاتها البن الذي أُدخل اليها سنة ١٨١٧ وتبلغ غلته في سني الخصب ١٥ الف طن وفي السنين الاعتيادية ١٠ الاف طن بقيمة نحو من ١٢ مليون فرنك على ان القسم الاعظم منهُ يرسل الى انكلترة. ومن تجارات كوستاريكا ايضاً السكر والكوتشوك واللوز الهندي والجلود والاخشاب غير ان كل هذه الاصناف تنحط قيمةً عما ترسلهُ من عثاكيل الموز الى الولايات المتحدة. وبما ان اصحاب الاراضي العالية يصرفون كل اهتمامهم الى زراعة البن لم يكونوا ليستغلوا كفائهم من القوت فيضطرون من ثم الى استجلاب الطحين من بلاد الشيلي

اما المواشي فليس عندهم منها الا القليل بالرغم عن وفرة المراعي الخصيبة . والاغنام والماعز نادرة الوجود وقد أُحصيت سنة ١٨٨٨ فلم تتجاوز الفي راس في كل البلاد

واخص ما تفضل بهِ كوستاريكا على نيكاراغوا وغواتمالا والمكسيك هو ان النصف من فلاحيها جميعهم ملاكون وذلك ان لكل منهم ملكاً صغيرًا من الارض يعنى بزراعته بكامل الارتياح والرغبة . وقد حُسبت الاملاك الصغيرة في كل البلاد سنة ١٨٨٦ فبلغت ٥٧٣٣٩ وبلغ مجموع قيمتها ٥٨٬٨٩٧٬٥٠٠ قرش اميركي ولكنها كانت مثقلة بعبء من الرهن قدره ٧٬٩٠٥٬٠٠٠ آلاف

ومنذ نصف هذا القرن زادت التجارة في البلاد نحو اربعة اضعاف لانها بعد ان كانت سابقاً لا تتجاوز ١٠ ملايين فرنك صارت حسب السنين بين ٣٠ او ٤٠ مليونًا بنوع انهُ يلحق الفرد منها ١٥٠ الى ٢٠٠ فرنك

على ان اعظم شيء افضى الى نجاح التجارة انما هو الخط الحديدي الذي تمَّ انشاؤه سنة ١٨٩٠ فوصل قاعدة البلاد بثغور الاوقيانوس الاتلنتيكي . وفي النية ايضاً انشاء خطوط اخرى حديدية تصل كوستاريكا بنيكاراغوا وقناتها المستقبلة وقد هيئت التخطيطات اللازمة مع الرسوم لتوسيع مجاري الانهر وامكان امرار البواخر فيها وقد عزم المتشاغلون بحفر قناة نيكاراغوا على اقامة سكر لنهر « كولوس » ليتمكنوا من اعلاء مياهه الى ١٦ متراً بحيث ان البواخر الكبيرة تستطيع ان تتقدَّم الى داخلية الاراضي حتى تتصل الى سفوح الجبال .

اما الطريق الموصلة بين الاوقيانوسين قد أُعطي امتيازها سنة ١٨٤٩ فلم يُباشر بها حتى الان مع ان صاحب الامتياز قد اخذ كضمانة ارضاً مسافتها ٣٤٤ ساعة مربعة مع ما فيها من الانهار والبحيرات والمعادن

ونظام كوستاريكا السياسي كنظام سائر الجمهوريات الاسبانية الاصل ما خلا بعض امور جزئية . وسلطة وضع الشرائع والقوانين مسلمة فيها الى مجلس يختار اعضاؤه بانتخاب ثنوي لمدة ٤ سنوات

وكذا السلطة الاجرائية معهودة الى رئيس ينتخب ايضاً لمدة ٤ سنوات على الوجه المتقدم وهو يختار كتبة اسراره ويولي من يشاء على المقاطعات وتدبير الجيوش. واذا انتهت مدته لا يسوغ تجديد انتخابه. اما اعضاء البلديات فانهم ينتخبون بالاصوات العمومية. وفصل الدعاوي في مسائل الخلاف كل ذلك موكول الى مشايخ الصلح ومحاكم الاقضية ومجلس التميز. وعقاب الاعدام قد أُبطل مع سائر العقوبات التحقيرية ولكل ملء الحرية في كتابة وصياهم على ما يشاؤون ويريدون. وفي سنة ١٨٧٠ نودي بحرية المذاهب وأُبطلت التعشيرات في السنين الاولى من عهد الاستقلال. واما الرهبانيات فممنوع دخولها في جميع انحاء البلاد

وقد كانت المعارف من قبل مهملة غاية الاهمال وحتى سنة ١٨٨٣ كان عارفو القراءة والكتابة قليلين جداً بنسبة ١٢ في المئة لا غير. لكنه لما صار التعليم الابتدائي الزامياً ومجانياً سهل انتشار المعارف في هذه البلاد وما جاءت سنة ١٨٨٦ حتى صار فيها ٢٦٠ مدرسة عمومية يقصدها نحو ٢٠ الفاً من الطلبة و٩٦ مدرسة خصوصية لا يقل تلامذتها عن ٣ آلاف بحيث كان مجمل المتعلمين نحو ثمن السكان

وفي ايام ولاية الاسبان بل حتى سنة ١٨٣٠ لم يكن في كوستاريكا ولا مطبعة واحدة ولكن ما اتت سنة ١٨٨٧ حتى صار فيها ١٠ مطابع. وبينما ان عدد الرسائل التي بُعثت مع البريد سنة ١٨١١ كان ٦٠٠ رسالة فقط تجاوز سنة ١٨٨٨ مليونين و ٩١٢ الف رسالة يُضاف اليها ١١٢ الف رسالة برقية

على ان كوستاريكا وان كانت ارضاً ضيقة المسافة فيما وراء سلسلة البراكين لجهة الجنوب الا انها ليست باحط رتبة من سائر جمهوريات اميركة المتوسطة بل هي ابعد من ان تكون ذات المقام الاخير فيهن

وقد مرَّ على كوستاريكا زمن كانت تباهي فيه مع مملكة السرب لا غير بانها ليست مديونة. ولكن تلك الحالة قد تبدلت الان لان هذه الجمهورية حذت حذو سائر اخواتها الاميركيات وتورطت على غير فطنة في ورطة الاستلاف والاقتراض. ففي

سنتي ١٨٧١ و ١٨٧٢ تعهدت بمبلغ ٨٠ مليون فرنك لم تقبض منهُ سوى الثلث . ومن ثم اقتضى الامر تحويل هذا الدين بنفقات باهظة وانصرفت مداخيل الجمهورية لمدة طويلة الى احدى الشركات التي استولت على الجمارك وتملكت لمدة ٩٩ سنة ثلثي اسهم السكة الحديدية الذاهبة من ليمون الى «ألاخويلا» واخذت فوق ذلك عدة اراض فسيحة . والدخل السنوي يبلغ تقريباً ١٥ مليونًا الى عشرين فيبذل سدسه لوفاء الدين وثمنه لنفقة العسكر الذي هو مؤلف من ألف نفر

مقابلة جمهوريات اميركة المتوسطة

	الدرجة الاولى	الدرجة الثانية	الدرجة الثالثة	الدرجة الرابعة	الدرجة الخامسة
المساحة	نيكاراغوا	غواتمالا	هندوراس	كوستاريكا	سلفاوور
عدد السكان	غواتمالا	سلفادور	هندوراس	نيكاراغوا	كوستاريكا
السكان في كل كيلومتر مربع	سلفادور	غواتمالا	كوستاريكا	هندوراس	نيكاراغوا
التجارة	سلفادور	غواتمالا	كوستاريكا	هندوراس	نيكارافوا
المعارف	كوستاريكا	سلفادور	غواتمالا	هندوراس	نيكاراغوا
المالية	نيكاراغوا	غواتمالا	سلفادور	كوستاريكا	هندوراس

جمهورية كولومبية

(ولاية بناما)

الرسالة السابعة عشرة

في

جمهورية كولومبية

سافرنا من ليمون قبل مغيب الشمس بساعة ولما طلع صبح الغد بانت لنا سواحل ولاية « بناما » التابعة لجمهورية كولومبية . على اني اذا تكلمت بمقتضى العلم الجغرافي وجدت اني لم اخرج من اميركة المتوسطة . اما بمقتضى السياسة فاحسب اني وصلت الى اميركة الجنوبية لوقوع جمهورية كولومبية في هذا القسم الاخير . . . .

. . . .

ولما انتصف النهار بانت منازل « كولون » حيث اردت النزول . وكولون هذه مدينة حديثة النشأة مبنية في مكان موحل وفير الرطوبة ولها مرفا غير امين بالرغم عن السد المشيد فيهِ . ومنازلها جميعاً من الحديد والخشب جلبت تامةً من الولايات المتحدة . وليس فيها الاَّ فنادق ومستودعات للبضائع

ومن نحو عشر سنوات اغار عليها طائفة من الشذَّاذ فنهبوها واحرقوها (١) ولم يسلم منها سوى بنايات سكة الحديد وبنايات القناة مع الدفاتر وبعض الدراهم . والان قد حصل الافتكار في تجديدها وبنائها بالحجر على وجه اوسع وفي بقعة اقل رطوبة

وكولون هذه منقسمة الى ٣ اقسام متميزة لكل منها اسم مخصوص اولها المدينة الانكليزية وتسمى « اسپنوال » (٢) نسبةً الى صرَّاف انكليزي سعى في انشاء سكة الحديد . والثاني المدينة الفرنسية وتسمى كريستوف كولومب والثالث المدينة الاسبانية

(١) افادت الانباء البرقية بتاريخ ١٢ نيسان سنة ١٨٩٤ ان مدينة كولون في اميركة المتوسطة حدث فيها حريق هائل امدتهُ ريح عاصفة سهلت انتشاره حتى تسبب عنهُ تلف عظيم

(٢) Aspinwall

وتسمى كولون (١) لفظة اسبانية بمعنى كولومب وعليهِ فالمدينة عبارة عن ثلاث مدن مدينة سكة الحديد ومدينة القناة ومدينة الكولومبيين اي السكان الاصليين

وكانت زيارتي الاولى للمدينة الفرنسية اي مدينة القناة والقسم الاعظم منها مبني في شبه جزيرة صغير يفصل مرفا كولون عن مصب القناة الشهيرة وفي طرفه تمثال لكريستوف كولومب يصوره ملتفتاً نحو البحر وعلى شماله امرأة هندية تشخص اميركا وهو باسط عليها يده

وعلى مسافة من التمثال المذكور دار خشبية للمسيو دي اسبس ولكنها بمكان من الظرافة حتى يتخيلها الناظر اليها قصرًا وعلى مسافة منها منازل خشبية ايضاً للمديرين الثانويين

وبمقدار ما يتسع طرف شبه الجزيرة تتكاثر مساكن مستخدمي الشركة وهي منفصلة عن بعضها بشوارع مغروسة باشجار اللوز الهندي والموز مما يكسبها منظرًا حسناً للغاية . اما الان فجميعها خالية فارغة وكأنها اقفاص جميلة طارت عصافيرها منذ تبدد مبلغ الالف والاربعمائة مليون الذي دفعهُ الفرنسيون

وبجانب هذه المساكن الفخيمة التي تجمعت فيها اسباب العيش الرغيد تصوّرتُ منازل الفلاحين الحقيرة الذين كانوا يحرمون نفوسهم اكثر الضروريات ليقتصدوا مبلغاً يسيرًا فيبذلوه مغترين بالمواعيد الكاذبة في هذه الصندوقة التي ابتلعت القناطير المقنطرة من الذهب الرنان

ثم انتقلتُ من المدينة الفرنسية الى المدينة الكولومبية التي يقيم فيها السودان والهنود والصينيون فرأيتها تختلف اختلافاً عظيماً عن الاولى لكونها منعزلة في ارض مستغدرة ومنازلها مبنية على اوتاد مغروزة في الارض بجانبي خط السكة الحديدية وما تلك المنازل غير اكواخ حقيرة مصنوعة باخشاب غليظة من صناديق الصابون او قناني الاشربة وفضلًا عن ذلك هي واهنة للغاية حتى ان اضعف ريح شمالية تهب عليها من البحر

(١) Colon

تزعزعها من امكنتها وتقلب على الحضيض اكثر من نصفها

والسودان يعيشون في هذه الاكواخ القذرة بالاختلاط مع كلاب جربى وخنازير وسخة واسراب العقبان المدعوة « غالينــاثوس » وقد اسلفت لك وصف هذه العقبان واخبرتك انها تلتهم الاوساخ من الطرق والشوارع

وفي وسط هذه المدينة بالوعتان حفرتا لتطييب هوائها وازالة وبائه وهما ملتصقتان بالبحر بواسطة قناتين تدخل فيهما التماسيح وتبتلع كل ما يلقي فيهما السكان من الاقذار

وقبل ان اخبرك عن حالة الترعة كما هي في الوقت الحاضر يجب ان اقص عليك تاريخ برزخ بناما وكيفية اكتشاف الاسبانيين للاوقيانوس الباسيفيكي فاقول :

ان الاسبانيين بعد ان استقروا في كولومبية بالقرب من برزخ بناما لم يفتكروا في اجتياز الجبال الحاجبة عنهم مرأى الاوقيانوس البـاسيفيكي لانهم لم يكونوا يتوهمون لهُ وجودًا . وكان عميدهم وقتئذٍ قائدًا شجاعًا يدعى « بلبوا »(١) وكان رجلًا عظيم الهمة جزيل الاقدام لا ينكص عن المشاق اذا ادّت للفوز بالثروة والغنى

ففي ذات يوم زار مع رفقائه احد وجوه رؤساء الهنود في تلك النـاحية وهذا بكل سلامة طوية اطلعهم على جميع ما عنـده من الكنوز واراهم ايضًا الغرفة التي اودع فيهـا جثث اجداده محنطة وملفوفة بالملابس المحبوكة بالذهب واصنـاف الحجارة الكريمة . على انهُ اذ رأى نيران الطمع قد تلظت في قلوب ضيوفه وزّع عليهم الذهب المخزون لديه فتبادروا لقبول هديته بنهم لا مزيد عليه . ولما آنس منهم بكر اولاده هذا الحرص الشديد الذي لم يعرف لهُ سببًا قال لهم

« اذا شئتم ان تشبعوا رغبتكم من الذهب ليس لكم الا ان تجتازوا هذه الجبال — واشار الى جبال « أند » — فان وراءها بحرًا لا قياس لهُ يوصلكم الى بلاد غنيــة بالذهب والمعادن الثمينة ولكنكم قليلو العدد ويزعمون ان تمرّوا في اراضي اقيـال وملوك قد طالما تعرّضوا لكم . وستطلع الشمس عليكم ست مرات قبل ان تصلوا

(١) Nunez de Balboa

الى البحر الذي اكلمكم عنه» واشار الى جهة الجنوب . وكان هذا اول المعلومات التي عرفها بلبوا عن البحر الباسيفيكي

وفي الحال عاد البطل المذكور وجمع من الاسبان المتفرقين في البرزخ مئة وتسعين شخصاً وفي غرة ايلول سنة ١٥١٣ سار بهم متغلغلاً في الغابات التي ينبسط وراءها البحر الباسيفيكي وقد كان مسيرهم متعباً شاقاً للغاية ونظرًا لثقل اسلحتهم واشتداد الحرّ وقلة الزاد لم يستطيعوا ان يقطعوا اكثر من ٣ فراسخ واخيرًا وصلوا الى ارض رئيس هندي يدعى «كاريكا» فتعرض لهم برجاله وانتشبت بينه وبينهم ملحمة شديدة حاز فيها الاسبانيون الغلبة نظرًا لافضلية سلاحهم وقتلوا من الهنود من قتلوا لكنهم خسروا من جيشهم القليل ١٢٠ رجلاً

وفي ٢٧ ايلول انتهى بلبوا مع العدد اليسير الذي بقي معهُ الى سفح رابية كان اكد لهُ الدواليل ان قمتها تشرف على البحر. فهناك وقف برجاله وتسلق الرابية فما وصل الى ذروتها حتى وقف مبهوتاً متحيرًا لانهُ رأى تحت اقدامهِ فضاء واسعاً ليس فيهِ غير صخور وغابات ومن وراء ذلك وقع بصره على مياه البحر المجهول الذي كانت امواجه تتلألأ لمعاناً تحت انوار الشمس

ولدى هذا المنظر خرّ المفتح على ركبتيهِ وذرفت عيناه دموع السرور وشكر الله تعالى على كونه حفظ لهُ هذا الكشف الجليل ثم نادى سائر رفقائه قائلاً «هلموا انظروا هذا المشهد الذي قد طالما طمعتم اليهِ . فنشكر الله تعالى اذ انهُ اختارنا لمثل هذا الشرف العظيم . ولنتوسل ان يهدينا ويقوّم خطانا لفتح هذا البحر وهذه الارض التي لم تدسها قط اقدام المسيحيين ولم تشرق فيها اصلاً انوار التعاليم الانجيلية . فبالثقة التي ابديتموها نحوي وبنعمة سيدنا يسوع المسيح ستكونون اشهر الاسبانيين الذين اتوا الهند وستبذلون للملكم اجلّ خدمة يمكن لرعية ان تبذلها لحاكمها وستحرزون شرفاً مخلدًا بكونكم كشفتم هذه البلاد الواسعة وافتتحتموها وهديتموها الى ديانتنا المقدسة»

ولما كان هذا الكلام قد ذهب في قلوب الاسبانيين كل مذهب عانقوا رئيسهم

واقسموا انهم يلحقون بهِ حتى الموت . وبعدئذٍ رفعوا صليباً على قمة الجبل وابتدأ كاهن كان معهم بترنيم تسبحة الشكر فاجابوه عليها باصوات الفرح والتهلل

وفي ٢٩ ايلول ادركوا ساحل البحر واذ ذاك دخل بلبوا في المياه بشكته وحمل باحدى يديه علماً مرسومة عليهِ صورة سيدتنا مريم العذراء مع الشعار الاسباني وحمل بالثانية سيفاً مسلولاً ولفظ بصوت جهوري الكلام الآتي وبمقتضاه حكم البابوات بملكية تلك البلاد لاسبانية وهو :

« عمر طويل وعيش مديد للملكَين العظيمين القديرين فردينان وحنة ملكي قسطيلية وليون واراغون (١) . اني باسمهما ولتاجهما الملكي اضع اليد على هذه البحار والاراضي والسواحل والمواني وجزائر بحر الجنوب وجميع الممالك والاقاليم التي تتعلق بهِ باي وجه كان وباي سبب كان في الماضي والحاضر والمستقبل دون ادنى معارضة ممكنة . فان نهض امير ثانٍ او قائد آخر مسيحي وادعى ان له حقوقاً على هذه الاراضي والبحار فانا مستعد ومتهيئ ان ادافع اليوم وكل يوم باسم ملكي قسطيلية الان وما استمرّ للعالم وجود حتى اليوم الاخير »

وحينئذٍ حلف الاسبانيون الذين سمعوا هذا الكلام انهم مستعدون ليدافعوا عن تاج قسطيلية مدافعة الرعايا الامناء وانشأوا بذلك كتابة وذيلوها جميعاً بتواقيعهم . وحينئذٍ استل بلبوا خنجره ورسم الصليب على شجرات ثلاث اصولها غارزة في الماء اشارة الى الاقانيم الالهية الثلاثة . وقد سمى الاسبانيون وقتئذٍ هذا البحر ببحر الجنوب لانهم ادركوه بمسيرهم اليهِ من الشمال الى الجنوب ولكن تسميته بالباسيفيكي قد تغلبت على الاسم الذي وضعوه لهُ

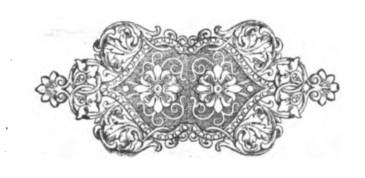
(١) من ممالك اسبانية الشمالية . اما قسطيلية فيسمونها العرب قشتالة . قال الشريف الادريسي « ما خلف الجبل المسمى بالشارات في جهة الجنوب يسمى اسبانيا وما خلف الجبل في جهة الشمال يسمى قشتالة »

ثم ان بلبوا عاد مع رجاله الى حيث كان اولاً ووصل في ١٩ ك ٢ سنة ١٥١٤ واتى معه ثمانمائة رقيق حاملين من الذهب ما تبلغ قيمتهُ اربعين الف ليرة

على ان هذه البعثة التي اكسبت اسبانية ولاية اميركة المتوسطة لمدة طويلة دون ادنى معارضة وحملتها على سوق تجارتها ورجالها الحربيين الى سواحل البحر الباسيفيكي تعتبر ولا شك من اعظم ما دوَّنهُ التاريخ . كيف لا وان بلبوا بقيادتهِ لنزر قليل من الرجال وتوغله واياهم في بلاد متوحشة كثيرة الوعور والجبال مأهولة بقبائل من ذوات الجلاد على القتال ثم بحذاقته في استمالة جنوده واغتنام انقيادهم قد اعرب عن براعة نادرة المثال ودراية حربية عزيزة النظير . وقد كان يتقدم الجميع في اقتحام الاخطار ويتأخر عن الكل في مغادرة ساحة الوغى ويعامل جنوده بغاية الرفق والمحبة ويشاركهم في كل عمل ويوزع عليهم عامة الغنائم بسخاء . ولكنهُ مع ما غنم لبلاده من الاراضي الواسعة اصابهُ ما اصاب كولومب وكورتث فمات منكود الحظ مثلهما

والان اذ قد فرغت من اخبارك عن كيفية اكتشاف البحر الباسيفيكي اعود الى ما كنت في صدده

اعلم ان ترعة بناما التي كثر الكلام عليها في هذه السنوات الاخيرة تبتدئ من كولون. وفي خاطري ان ازورها نهار غد واتفقد ما نجز منها . اما اليوم فلا استطيع حراكاً ولا اعلم أذلك ناتج عن تعب السفر في البحر ام عن رطوبة الهواء الوبيل هنا



الرسالة الثامنة عشرة

بعد ان كتبت لك آخر مرة اصابتني حمى نافض فاستدعيت الطبيب فصرّح لي انها غير خطرة ولكنهُ اشار عليَّ ان لا اطيل الاقامة في هذه البلاد مخافة ان ابتلي بالحمى الشديدة التي قد طالما ذهبت بكثير من المهندسين والفعلة الاوربيين الذين قدموا للاشتغال في ترعة بناما

ولا اظن انك جاهل قصة هذه الترعة التي جلبت الخراب على كثير من الفقراء والمساكين لاسيما وان الجرائد قد افاضت من نحو سنتين في أخبارها وبسطت الكلام عليها بسطاً شافياً . واعلم ان الافتكار في فتح ترعة تشق اميركا هو امر طالما كان يجول في الخواطر من زمان قديم نظرًا لما يترتب عليه من المنافع التي لا يختلف في شأنها اثنان

والحق يقال ان من امعن النظر في رسم تسطيح الكرة الارضية يرى ان اميركا قائمة من الشمال الى الجنوب — هذا اذا استثنينا مكاناً واحدًا اعني راس هورن — بمقام حاجز حصين دون مسير السفن . ومن ثم يتحتم على التجارة اذا ارادوا الوصول الى سواحل البحر الباسيفيكي ان يباشروا سفرًا طويلًا مخطرًا دائرين حول اميركا الجنوبية برمتها وبناءً عليهِ فالسفن التي تسافر بالوقت الحاضر من انفرس ولندن وليفربول الى سن فرنسيسكو تلتزم ان تقطع في مرورها براس « هورن » مسافة ٦٫٨٠٠ ساعة ولكنه لو كان لها مجاز في اميركا المتوسطة لما كان يقتضي لها الوصول الى الثغر المذكور اكثر من ٣٫٣٠٠ ساعة او في الكثير ٣٫٥٠٠ ساعة

وهكذا البواخر التي تقلع من انكلترة او انفرس الى فالباريزو بدلاً من ان تمخر في البحار مسافة ٥٫٤٠٠ ساعة كانت تقصر طريقها مسافة ١٫٤٠٠ ساعة كما ان السفن التجارية الذاهبة من اوربة الى ثغور الباسيفيكي الواقعة في خط الاستواء لو مرت في اميركا المتوسطة لكانت تنقص مدة سفرها ثلاثين يوماً والمراكب الشراعية ستين

يوماً الى سبعين يوماً وذلك عبارة عن نقص قدره ١٤ الف كيلومتر. وهكذا بالنظر الى اوسترالية واليابان تقصر مدة السفر ايضاً اثنا عشر الى خمسة عشر يوماً على البواخر و ٣٠ الى ٤٠ يوماً على المراكب الشراعية

فمما تقدم تتبين المنافع العديدة الناجمة عن فتح هذه الترعة للنواخذة والركاب. فمن جهة الاولين يتوافر عدد الاسفار وتخف مقطوعية الفحم واجور البحارة ومن جهة الاخيرين تقصر المدة وتخف نفقات السفر والخاطر المصاحبة بالضرورة لكل مسافة طويلة

وعليهِ فليس بعجيب اذا كان الاسبانيون اثر فتحهم للبلاد بقليل اخذوا في الاستقصاء عن موضع يمكن ان يجتاز بهِ من احد الاوقيانوسين الى الآخر فان فرنان كورتث بعد ان استوثقت لهُ الامور واطمأن بالاً على فتح المكسيك طفق يهتم بوصل انهار برزخ « تيهوانتبيك » (١) التي يصب بعضها في الاوقيانوس الاتلنتيكي وبعضها في الاوقيانوس الباسيفيكي

ومن سنة ١٥٣٤ اقترحت حكومة المستعمرات الاسبانية فتح ترعة تمرّ بقناة نيكاراغوا . وبعد ٢٠ سنة من التاريخ المذكور عرض بعض المهندسين فتح برزخ بناما وقدموا التخطيطات اللازمة غير انهُ لم يتم شيء مما عرضوه نظرًا لقلة المعارف في تلك الايام وعدم الآلات القادرة على القيام بمثل هذا العمل

وبعد ان أُلقيت المسألة في زوايا النسيان مدة طويلة بعثها « اسكندر همبلد » (٢) من رقدة الخمول في اوائل القرن الحالي . وفي السنوات التابعة اخذت الحكومات ذوات المصلحة توالي ارسال جمعيات العلماء لكي يبحثوا بحثاً مدققاً عن المواضع التي يمكن فتح ترعة فيها . وكانت حكومة المكسيك قد أرسلت سنة ١٨٢٥ لجنة من

(١) Tehuantepec في جنوب المكسيك

(٢) Alexander Von Humbold العالم الالماني الشهير

المهندسين للغاية نفسها . وبعد اثنتي عشرة سنة كانت حكومة نيكاراغوا مهندساً انكليزياً ان يفحص لها عن محل لشق ترعة تمرّ في البحيرة المنسوبة اليها . وفي سنة ١٨٤٦ اظهر البرنس لويس نابوليون الذي صار فيما بعد امبراطوراً باسم نابوليون الثالث مشروع ترعة تمر في البحيرة نفسها وشفعهُ بتقرير معتبر . وهكذا ايضاً ارسل بعض المتمولين وبعض اللجان العلمية اناساً من قبلهم الى اميركا المتوسطة لكي يبحثوا في الامر بحثاً مدققاً

الاّ ان الولايات المتحدة نظراً لرغبتها الشديدة في ان تكون لها السيادة على الترعة المستقبلة بذلت في شأنها نفقات وفيرة وقد قدرها المسيو دلسبس بمبلغ ٢٥ مليون فرنك وفي سنة ١٨٢٩ امر الجنرال « بوليفار » الشهير ان تقاس مياه الاوقيانوسين لاول مرة بالقادن ليعلم ما بين سطحيهما من ارتفاع او انخفاض . ولتعدد المشروعات وقع الكل في الحيرة ولم يعرفوا اي مشروع يختارونهُ

ولما كانت سنة ١٨٧٥ انعقد موتمر في باريس تقرّر فيهِ ابتداء القناة من كولون الى بناما واذ كان المسيو فردينان دي لسبس قد اشتهر وقتئذٍ باتمام ترعة السويس اختير رئيساً على المشروع

وحصل الاتفاق وقتئذٍ على ان يكون طول الترعة ٧٣ كيلومتراً ومتوسط عمقها ثمانية امتار وخمسين اي بزيادة خمسين سنتيمتراً على متوسط العمق في ترعة السويس وتعين عرضها ٢٢ متراً في القعر و ٥٦ متراً عند سطح المياه . اما الصخور الصلدة فتنحت جوانبها على وجه عمودي وتلبس من اسفل الى فوق بالخشب وقاية لقعر المراكب ان يلتطم بها . وفي كل مسافة عشرة كيلومترات تقام احواض لتصطف فيها السفن التي تلتقي في الطريق ويكون طول كل حوض ٥٠٠ متر في عرض ستين متراً

وقد قدّر ان الارض اللازم رفعها تبلغ ٧٢٫٩٨٦٫٠١٦ متراً مكعباً منها ٤٣٫٠٨٥٫٩٥٠ تراب وصلصال و٢٦٩٫٠٤٥٠٫١ صخور قليلة الصلابة و٢٨٫٤٤٩٫٧٩٧ صخور صلدة

وكان اصحاب المشروع قد خمنوا نفقة البناء بمبلغ ٤٧٥ مليونًا ونفقة الصيانة

والاستثمار سنوياً بمبلغ ٥ ملايين. غير ان مؤتمر باريس خالفهم في هذا التخمين وحسب انهُ يقتضي لحفر ٤٩ مليون متر مكعب ٥٠٦ ملايين ولبناء ستمائة الف متر مكعب لجوانب القناة بالحجر منعاً من التهدم ٣٦ مليوناً . ولتوسيع نهر « شغريس » وسكوره ٣٦ مليوناً. ولبناء مرفا على البحر الباسيفيكي ٢٣ مليوناً وعلى الاتلنتيكي ٥ ملايين. ثم اضاف الى كل هذا مبالغ أخرى لعدة اشغال ثانوية بحيث كان تقديره لمجموع النفقة ٢٠٠ع١ مليون

وفي عاشر كانون الثاني سنة ١٨٨٠ جرى الاحتفال بتدشين المشروع في بناما بحضور المسيو دلسبس الذي استصحب ابنة لهُ بسن السادسة فاطلقت بيدها اول لغم أشعل هناك

ومع ذلك لم يحصل الشروع في الاعمال بوجه نهائي الا سنة ١٨٨٣ وفي سنة ١٨٨٥ بلغ عدد الفعلة المشتغلين في الترعة ٢٠ الفاً. غير ان كل ذلك انتهى كما عرفت بحبوط تام جرّ الخراب على عدد عديد من الفرنسيين الذين اغترّوا بترأس المسيو دلسبس على العمل فبذلوا دراهمهم واثقين بالربح من حيث اتتهم الخسارة

وكانت وبالة الهواء ووخامة المناخ تذهب بحياة المئات من الفعلة والمهندسين وكان المتولون على الاعمال يعيشون بالدراهم ويسرفون كيف شاؤوا ولكنه لم يكن احد في فرنسة عالماً بشيء من ذلك لان الشركة بذلت مبالغ طائلة لارباب الجرائد حتى يلزموا جانب السكوت . وعلى هذا المنوال انخدع عددٌ غفير من الناس في هذا العصر الملقب بعصر الانوار والذي يزعم اهله انهم يعرفون كل شيء ولا يغيب عنهم شيء. وان شاء الله اصف لك في الرسالة التابعة ما تمَّ من الترعة وما هو باقٍ لنجازها

الرسالة الثامنة عشرة

شخصت من كولون الى بناما راكباً سكة الحديد . ولكني بدلاً من ان اقطع المسافة الفاصلة بين هاتين المدينتين وقدرها ٧٠ الى ٨٠ كيلومترًا دفعةً واحدة كنت اقف المدة بعد المدة في الطريق لاطلع بنفسي على ما صارت اليهِ الترعة وارى ما نجز فيها من الاعمال

والخط الحديدي في كولون وبناما ممدود في قارعة الطريق ودقة الناقوس لاول مرة تنبيه الى قرب ساعة السفر ودقته لثاني مرة اشارة الى انهُ على قدم الذهاب ودقته لثالث مرة ايذان بالسفر ليرتقي اليهِ من شاء الرقي. اما عجلاته فمستطيلة ومكشوفة من طرَفيها ومتى سافر القطار يدور المستخدمون على الركاب ويجمعون التذاكر ومتى وجدوا احدًا بدون تذكرة يوقفون القطار وينزلونه جزاء خداعه

ثم ان الخط غير مكتنف بحواجز تمنع الدنو منهُ ولهذا كان القطار مضطرًا ان يخفف السير لدى اقترابه من قطعان المواشي وان يوالي الصفير منبهاً اياها على الابتعاد والذي عصى التنبيه منها كان يُفرّقه يمنةً ويسرة بحديد مصنوع على شبه سكة الفدان دون ان يناله اذًى يذكر. وكثيرًا ما كان القطار يخرج عن الخط في اول الامر غير انهُ بعد قليل تعودت المواشي وصارت كلما سمعت صفيره تتباعد عن ممره

والسفر في مثل هذه العجلات الكبيرة المكشوفة مريح للغاية ولاسيما في ما هو مخصوص منها بامتعة الركاب حيث يجلس رئيس القطار. وقد اسعدنا الحظ بان ادخلنا احد المعارف عليهِ فجلسنا في كرسي كبير وهكذا استطعنا ان نشاهد مناظر البلاد من الابواب المكشوفة على الجانبين ثم من الباب الامامي الذي لم يكن يتقدمهُ شيء من العجلات واحضرت لنا قبل الجميع كؤوس الماء المبردة التي كانت الشركة تقدمها للركاب

ولما كان الخط الحديدي يسير دائماً بجانب الترعة تمكنت ان اقف على كل ما

جرى فيها من الاعمال . وها انا مخبرك عنها تفصيلاً فاقول :

ان الترعة من بداءتها حتى محطة « غاتون » كانت اشغالها مستسهلة فلم تكلف غير نفقة يسيرة والان تستطيع هناك البواخر الصغيرة ان تجري الى المحطة المذكورة والقوارب يمكنها السير بضعة كيلومترات بزيادة

وفي « غاتون » تجتمع النساء حول القطار لمبيع البيض والخبز والموز والجمة ايضاً وهن يبعنَ كل ذلك باثمان فاحشة ولكن دون الاثمان التي كانت تطلب قبلاً من معدّني كاليفورنية الذين كانوا يشترون البيضة الواحدة بعض الاحيان بخمسة فرنكات

وعندما جزنا غاتون مرَّ بنا القطار في مستنقعات جديدة ثم دخل بين جبلين واخذ يرقى في العقبات المسماة « عقبات الافعى » (١) ووقتئذٍ جيءَ بقاطر ثانٍ ليقوى على التصعيد . وبينما القطار سائر كنت ارى خنادق عظيمة قد حفرت في الجبال لمرور الترعة فهالني منظرها

ولما وصلت الى الكيلومتر الخامس والثلاثين عند محطة « سن پابلو » اي القديس بولس نزلت لازور اماكن العمل (الورشات) القريبة من هناك فلما انتهيت اليها احزنني مرآها اذ ابصرت من القواطر والعجلات والآلات المختلفة الاجناس ما لا تقل قيمته عن مليون فرنك وكله مهمل قد ركبه الصدأ وغطاه النبات

ورأيت كذلك كثيرًا من البيوت الخشبية الملبسة بالتوتياء واكثرها الان مهجور وبعضها يأهله قوم من السودان والصينيين وفي اكثر المواضع حفائر عميقة منفصلة عن بعضها وفي اقعارها آلات وعجلات مختلفة قد تكسرت جميعاً . فانظر ما صارت اليهِ حالة هذه الترعة التي افقرت خلقاً كثيرًا ولم تأتِ بالثروة غير المتحيلين الذين اختلسوا اموالها

وفي هذه البلاد غابات يمتنع دخولها لكثافتها ولما فيها من الحيوانات المفترسة .

---

(١) بالاسبانية Culebra

وبينما كنت اتجول متفقدًا اماكن العمل في سن بابلو وثب نمر بالقرب مني واخذ يسعى وراء قرد كبير. والنورة هنا تتخذ مساكنها في جذوع الاشجار المجوفة والصيادون يترقبون فرصة وجودها فيها فيأتون ويغرزون حول الوجار اوتادًا طويلة ويربطونها مع بعضها باغصان قوية من النبات المعرّش وحينئذٍ يأخذ الحيوان يتقبض ويتكبب ويموء مواء صحلًا ولكن دون ان يجسر على الخروج وبعد ان ينتهوا من هذا العمل لا يبقى عليهم الا ان يقتلوا النمر بضرب الحراب او بقذائف البنادق

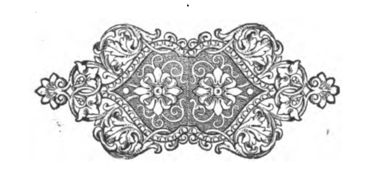
وقد اخبرني بعض من عاشرتهم هنا ان احد الهنود بينما كان مع زمرة يصطادون نمرًا على الوجه المشروح لمح ثقبًا فوق وجار الحيوان فخطر له ان يقفز الى الشجرة ويطعنه بحربته من الثقب. ولكنهُ لما لم يكن باقيًا من الجذع غير القشرة وقع الهندي على ظهر النمر الذي لما احس بوخز الحديد خرج حالاً من وجاره فوقع الهندي متخدشًا متجرّحًا وركض الحيوان فمات غير بعيد عنه

وبعد ان فرغت من الجولان في ضواحي سن پابلو ركبت القطار الذي اوصلني توًّا الى بناما وكان قد ركب معي في عربة واحدة بعض نساء سودانيات جميعهن يشربن الدخان. وان سألت كيف يشربنه اجيبك انهن يضعن الطرف الموقد في افواههن زاعمات انهُ لا لذة في التدخين الا بهذه الطريقة . ولا عجب من هذا لان الجميع هنا يشربون الدخان حتى اني رأيت بعض اطفال العبيد لا يتركون التدخين الا ليعودوا الى احضان امهاتهنّ

هذا واني كنت اينما مرَّ القطار يقع بصري على الآت مهمة واماكن أُبتدئ فيها بالعمل. وقبل ان اصل الى بناما ببعض كيلومترات رأيت قسمًا صغيرًا من الترعة كاملًا بحيث يمكن للبواخر الصغيرة ان تجري فيهِ من الان بغاية السهولة . وقصارى القول ان مسافة الترعة البالغة ثمانين كيلومترًا لم يتم منها سوى عشرين فقط . وتوصلًا الى هذه النتيجة الجزئية كان جمع اصحاب العمل مليارًا ونصفًا من الفرنكات انفقوا منها على الترعة ٤٣٣ مليونًا والباقي تسرب الى جيوب الطامعين

ويقال انهُ يلزم لا كمال باقي الترعة ٣ مليارات وصرف عشرين سنة في الشغل بلا انقطاع ويزعم آخرون انهُ لا يقتضي سوى نصف المبلغ المرقوم او اكثر منهُ بقليل . واعلم ان حكومة كولومبية قرّرت سنة ١٨٩٠ تمديد اجل امتياز ترعة بناما الى عشر سنوات اخرى بشرط ان تدفع الشركة خمسة عشر مليون فرنك وتبـذل غير ذلك ايضاً من الاموال

وبينما كنت غائصاً في بحر من الافتكار في مسألة هذه الترعة وصل بنـا القطار الى بناما فرأيت لها من الخارج منظرًا جميلًا وغدًا ان شاء الله اتجوّل فيها لارى ما اذا كان يتفق داخلها مع ظاهرها



الرسالة التاسعة عشرة

كانت بناما من نحو قرن او اقل اوفر مدن الدنيا ثروة وظرافة لانها كانت بالضرورة مستودع المراكب الناقلة للذهب من ناحية پيرو وممرّ المسافرين الى البحر الباسيفيكي· غير ان الحروب التي احتدمت نارها بين انكلترة واسبانية مع السياسة المجحفة التي سلكتها حكومة اسبانية آلت الى خرابها. والان قد رفعت السكة الحديدية منزلتها شيئاً ولو تمت القناة الموصلة بين الاوقيانوسين لكانت اولتها سعادة جديدة

ومع تواتر الحريق فيها بسبب تهامل اهاليها بقيت عدة بنايات مهمة مثل الكنيسة الكاتدرية التي هي غاية في الظرافة وابراجها تقوم مقام الفنارات لدخول الميناء فانها اعلى الابراج المبنية في ناحيتي اميركا المتوسطة والجنوبية . وقد تشيدت من نحو قرنين ومما يستحق الذكر عنها هو ان الزلازل البركانية لم تؤثر فيها شيئاً. وبناؤها على الطريقة المعروفة باليسوعية وقد كانت هذه الابراج مصفحة من قبل بفلوس لؤلؤية من سمك المحار واما الان فقد زالت تلك الفلوس ولم يبقَ سوى آثار بيضاء في مكانها

ومن ابنية بناما ايضاً اخربة كنيسة القديسة حنة فانها كبيرة قاتمة اللون . ثم دير القديس فرنسيس الذي لم تزل كنيستهُ صالحة للعبادة مع تهدم اكثر جهاتها . ومن خصائص هذه الكنيسة ظهور قرى النمل في آساسها وعدم استطاعة احد للآن على رد غارته ولو بصب زيت البترول · ثم كنائس القديس يوحنا الالهي والقديس فليب والقديس ميخائيل والقديس يوسف وغيرها ككنيسة اليسوعيين التي لم تزل رسومها الماثلة للآن منبئة بسالف شأنها

ومذ تلاشت شركة الترعة عادت بناما فانحطت منزلتها من جديد انحطاطاً عظيماً. والان يبلغ سكانها نحو ١٥ الف نسمة. اما من جهة هوائها فانهُ مشهور بوبالته ولذلك قلما تنقطع منها الحمى الصفراء· ومع ان مرفاها خطر يقصدها بسبب

سكة الحديد التي تجتاز كل البرزخ كثير من البواخر ومنها تتوجه نحو اميركة الشمالية والجنوبية على البحر الباسيفيكي

وقد ركبتُ باخرة انكليزية مسافرة الى سواحل كولومبية وخط الاستواء وبيرو وشيلي غير انها لم تكد تقلع من المرفا حتى ثارت ريح عاصفة ازعجت السفينة فصارت تتمايل كالنشوان وفي الحقيقة لا اعلم لماذا سمي هذا البحر بالباسيفيكي اي السلمي اما اليوم فانهُ لا يستحق هذه التسمية

وبعد قليل مررنا بجزُر يُصطاد فيها من اللؤلؤ كل سنة ما تبلغ قيمته مليوناً وخمسمائة الف فرنك. واللؤلؤ المذكور يرغب فيهِ التجار كل الرغبة لكونه غير مثقوب كاكثر الاصناف التي تأتي من اسية. اما الصياد فهم الآن قوم احرار ولكن معيشتهم في غاية التعاسة. على انهُ اذا كان اللؤلؤ ضرورياً للزهو والتفخل فالواجب ان تستعمل لصيد المحار اللؤلؤي تلك النظارات المخصوصة التي يُرى بواسطتها ما في قعر البحر على اعماق بعيدة (١) ثم آلات الغوص التي تمكن من الاشتغال نصف ساعة بل اكثر تحت المياه دون تعب (٢) . ولا شك انهُ يترتب تحسين مهم على هذه الطريقة لان الغائص يستطيع حينئذٍ ان يختار المحار البالغ سبع سنين او ثمانيا بدلاً من ان يقتلع كل ما يقع في يده اتفاقاً

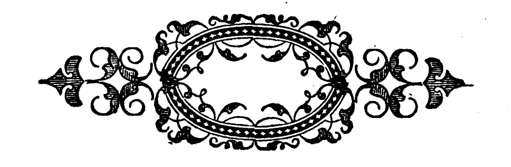
وبهذه الوسيلة تصان المنابت من التلف البطيء الذي يرى في جميع اماكن صيد المحار بكولومبية. ومن الممكن ان يستعمل لمحار اللؤلؤ في هذه السواحل نفس طرائق التربية التي اسفرت عن نتائج حسنة في محار الاكل

هذا وان ملتزمي اللؤلؤ يبيعون جميع ما يستخرجونهُ لتجار بناما وهؤلاء يشترونهُ بالجملة ما بين ابيض وذهبي واشقر ووردي واسود وغير ذلك ثم يرسلونهُ الى المدن الكبرى. ولهذا كانت اللآلي في بناما نفسها نادرة الوجود واغلى مما هي في اوربة

(١) lunettes sous-marines

(٢) وهي الالآت المسماة عند الافرنج scaphandre

وكولومبية مكتنفة بسلسلة من الجبال العالية تسمى «كورديليير» وهي تابعة شاطئ البحر الباسيفيكي في عامة اميركا الجنوبية . اما سواحلها فقليلة السكان . ومن مدة الى مدة كنا نرى قرى منفردة في بسيط من الارض فسيح . لا يدرك الطرف آخره فكنت اقول وقتئذٍ في نفسي ان البشر لا بد لهم ايضاً من قرون ودهور طوال حتى يمكنهم ان يعمروا كل الارض التي اعطاهم اياها الخالق



جمهورية كولومبية

(الولايات الشرقية)

الرسالة العشرون

في

جمهورية كولومبية

وفي اليوم الثاني دخلت بنا السفينة خليجاً ضيقاً عبقت فيهِ الروائح الطيبة. واذ ذاك التفت الى احد الرفقاء وكان كولومبي الاصل وسألتهُ عن السبب فقال ان ذلك العرف الطيب آتٍ من غابات الساحل التي تنبت فيها الفانيلية وهي صنف عطر بين اشجارها. وبعد ساعة القت السفينة مرساتها في ثغر «بوناونتورا»(١) وهو اعظم ثغر في كولومبية على البحر الباسيفيكي واقع في جزيرة صغيرة بقصا الخليج

وحالما وصلت سفينتنا احاطت بها القوارب المملوءة من الهنود وسمعنا في احدها فتى بسن الثانية عشرة يصيح قائلاً «بفرنك ارفس كلب البحر رفسة» وكان احد الكلاب البحرية الكبيرة يجول وقتئذٍ حول السفينة. فظننا في بادئ الامر انهُ يمزح ولكنهُ الحّ فوعدناه بالجزاء

ومع اني كنت قد رأيت فتياناً يدخلون قفص الاسد ويضربونهُ بالسياط لم استطع التصديق ان صبياً في سن الثانية عشرة يتجرأ على اقتحام اخوف حيوانات الاوقيانوس واشدها هولاً. الّا ان ذلك الفتى الهندي ما عتم ان القى بنفسهِ في البحر فغاص هنيهة ثم ظهر للعيان واخذ يتحرك بسهولة كيف شاء كأنهُ واقف في البر. ثم نهض براسه فوق الماء وناداني قائلاً «هو آتٍ» واشار الى الكلب البحري وتوجه سباحة نحو الشاطئ بالقرب من صخر هناك. ثم رأيت شيئاً ادهم اللون يسير بسرعة فحدقت النظر فاذا هو كلب بحري

ووقتئذٍ غاص الولد الهندي ورفسهُ رفسة بجنبهِ فولى هارباً. واذ ذاك صاح فرحاً

(١) Buenaventura

« خاف مني » وأخذ يتنقل من صخر الى آخر مسروراً. ولقد صدق الفتى في ما قال لان جميع الحيونات المفترسة تجتنب الانسان من ذات طبعها ولا تتعرض لهُ الاَّ اذا دفعها الجوع. وكلاب البحر بما ان اقواتها من الاسماك موفورة في الخليج لم يكن لها من داعٍ ان تتصدى للسابحين

اما التجارة الداخلية في كولومبية فاهم مركز لها مدينة بوناونتورا وهذه المدينة واقعة في سفح جبل جزيل الارتفاع متكاثف الغابات ومن ثم كانت المواصلات معها شاقة للغاية. غير ان هذه الحالة لا بد ان تحول عما قليل اذ قد شرع في انشاء سكة حديدية ومدت منها بعض كيلومترات وانعقد العزم على تمديدها ايضاً في عرض الجبل

ولما ان ألقت باخرتنا مرساتها تعجلت النزول الى البر وبما ان الحمى كانت قد لازمتني منذ دخلت برزخ بناما اشار عليَّ احد الركاب الكولومبي الاصل ان التجول في الجبال المحيطة بمدينة بوناونتورا زاعماً ان تبديل الهواء يقطع دابر الحمى. وقد رأيت ان مشورتهُ قرينة الصواب فعولت على العمل بها وركبت سكة الحديد متوجهاً الى ناحية « قرطاغو » او « رلدانيلو » (١)

ثم خرجت منها طائفاً في البلاد فرأيتها وفيرة الخصب والريف. والذرة تعطي فيها ٣٠٠ بدل الواحد. وقد ابصرت غاباً من اشجار اللوز الهندي المعروف بالكاكاوو والذي تصنع الشوكولاتا من اثماره وعلمت من رفقائي ان القرود هي التي زرعتهُ واليك كيفية ذلك

كان احد السكان قد زرع بعض شجرات من هذا الصنف وبما ان القرود تحب اثماره جداً كانت تتوارد كل ليلة تحت جناح الظلام فتسرق قسماً منها وتترك النوى في طريقها فنبت من كل نواة شجرة وهكذا تكوَّن الغاب. ويبلغ ارتفاع كل واحدة من

(١) قرطاغو Cartago مدينة في وادي كوكا (Cauca) من ولايات كولومبية الشرقية وعدد سكانها نحو ١٠٠٠٠

هذه الاشجار نحو اربعين مترًا وازيد. ومن عجيب ما فيها ان اثمارها تبقى كما كانت طعماً وجودةً وكبرًا ولا يعتريها الانحطاط من هذه الجهة كما يحدث لاثمار سائر الشجر من صنفها التي تنمو على الحالة البرية

وقد رأيت لا بل سمعت ايضاً بعض هذه القرود. لانها متى اجتمعت اسرابًا تسمع اصواتها من بعيد مثل دمدمة الرعود ولذلك يسمونها هنا « القرود العاوية ». ويبلغ طولها نحو ثلاثة اقدام واجسامها مزغّبة بزغب اسمر ضارب الى الشقرة ولها اذناب طويلة تتعلق بها متى رقيت الاشجار ووجوهها زرقاء الى السواد قليلًا ينبت فيها لحىً طويلة وهي بوجه الاجمال اليفة وتجتمع اكثر الاحيان اسرابًا عديدة لكنها تُرى دائمًا كئيبة حزينة بخلاف سائر انواع القرود الصغيرة الاجسام. ومتى ابدى رئيسها صوتًا لا تلبث ان تجيبهُ عليهِ كلها معًا معيدةً اياه بنغمهِ

وقد دلني رفقائي ايضاً على شجرة اللبن (١) التي تسمَّى هنا « شجرة البقر » (٢) واخبروني عنها اخبارًا معجبة فقالوا انها متى شدخت قشرتها شدخًا خفيفًا يرشح عنها عصير مغذٍ جدًّا طعمهُ كطعم الزبدة مع السكر وذلك بكمية تعادل ما تأتي بهِ بقرة حلوب في اليوم . وان العصير المذكور يقرب جدًّا من لبن البقر لتركيبهِ من السكر والالبومين والفوسفات ولكن بكمية تزيد ثلاثة اضعاف عمَّا في لبن البقر من هذه المواد . وان الاماكن التي تنبت فيها هذه الشجرة يقصدها الاهالي كل يوم صباحًا ويأخذون حاجتهم وحاجة عيالهم وهي تدرك عادةً من الارتفاع ١٦ الى ٣٠ مترًا

غير اني تأكدت اخيرًا انهم بالغوا في الخبر كل المبالغة وعلمت انهُ ليس من احد يشرب العصير المذكور الاَّ وقت الضرورة وقد حاولت ان اتناول منهُ قليلًا فلم استطع الاَّ بعد ان مزجتهُ بكمية من مغلى الشاي. وعليهِ فالشجرة ليست بذات فائدة عملية

---

(١) يسمى عند النباتيين galactodendrum utile (٢) بالاسبانية palo de vaca

ومن الاشجار الثمينة في هذه البلاد شجر « السدرون » جاء بهِ الهنود سنة ١٨٢٨ لاول مرة الى مدينة « قرطاجنة » (١) وزعموا ان مسحوق ثمره او صبغتهُ يشفيان من لدغات الحية وسائر الهوام السامة واثباتاً لاقوالهم كانوا يأتون باوفر الحيات سماً لتلدغ المواشي ثم يبرئونها بسهولة وكثيرٌ منهم ايضاً قد عرَّضوا نفوسهم للسعات الافاعي وبواسطة هذا الترياق الشافي لم يكونوا يشعرون باذًى

وكيفية استعمال العلاج المذكور هي ان تُستحلب خمس او ست حبات في ملء ملعقة من العرق تسقى للملسوع او تسحق الحبوب وتُذر على خرقة مبلولة بالماء وتوضع على محل اللدغة ويندر ان يحتاج الملدوغ الى جرعة ثانية

وقد شاهدت بنفسي عدة من الملدوغين واستعملت لهم الدواء المذكور فما عتم ان ابرأهم واتجهوا للنقه في وقت قليل. وبما ان الاهالي هنا يفتخرون بان لحبوب السدرون خاصة التقوية وازالة الحميات فوق خاصة ملاشاة السموم اردت ان اتحقق ما يقال عنه فاحمدت نتيجته في مداواة الزحير والامراض الخنازيرية وعلى الخصوص في معالجة الحمى المتقطعة العصبية وتبين لي انهُ افعل من الكينا لشفاء الحميات في الاراضي الحارَّة والرطبة لانهُ يزيل المرض من اصوله دون ان يحدث في الجسم اقل انزعاج

وبعد ما اجريته من التجارب المتعددة استطيع القول بوجه أكيد ان السدرون ذو خاصات ثلاث لا ريب فيها اعني مضادة السموم وشفاء الحميات وتقوية البنية. والان بما ان غابات شجر الكينا آخذة في النفاد وقد اجمع الكل على عدم كفاءة الكينا للحميات المتولدة في النواحي الحارة واطبقوا على سوء عواقبها اذا أُعطيت بكميات كبيرة يحسن بالجمعيات العلمية ان ترسل وفدًا من قبلها لكي يحقق فوائد « السدرون » حتى اذا ثبتت لديهِ ينتشر امرها في العالم ويعود بالنفع الجزيل على الانسانية

ثم اني رأيت هنا كثيرًا من التماسيح كالتي توجد في اميركا المتوسطة وقد اسلفت

---

(١) مدينة في جمهورية كولومبية على الاوقيانوس الاتلنتيكي

لك الخبر عنها. غير ان الاهالي لا يخشون هنا باسها وعندهم حيل كثيرة لاصطيادها منها انهم يتخذون قطعاً من خشب صلب بطول ثلاثين سنتيترًا وثخانة ثمانية الى تسعة سنتيترات ويحددون اطرافها فمتى ابصروا الحيوان تقدموا اليهِ بخفة ممسكين القطع بايديهم اليمنى التي يبسطونها ممدودة وحينئذ يفتح الحيوان خرطومهُ ويقبض عليها بقوة فتنغرز الأطراف في فكيهِ وعندما يحس بالالم يبادر الى المياه ولعدم استطاعتهِ ان يطبق خرطومه تدخل المياه الى جوفهِ ويموت مختنقاً

وعندهم ايضاً طريقة أخرى لصيد هذا الحيوان وهي انهُ يجتمع بعض انفار من السودان ويكمنون في المواضع التي يخرج اليها ويتخذون معهم حبالاً متينة ذات عقد محلولة فمتى ابصروا تمساحاً راقدًا خفَّ اليهِ احدهم ودغدغهُ في عنقهِ بكل لطف واذ ذاك يرفع رأسه ويحركهُ قليلًا ثم يعود الى سباتهِ دون ان يفتح عينيه . وبما ان الاسود يكون قد استفاد من تلك الحركة وادخل العقدة المحلولة في عنقهِ يأخذ رفقاؤه يشدون بكل قواهم ويسحبون التمساح الى البر حيث يقتلونهُ بضرب الحراب

وبما ان السكة الحديدية المشروع في انشائها لم يتم منها للآن سوى عشرين كيلومترًا من بوناونتورا اضطرني الامر ان اسافر راكباً دابة وكان في الامكان ان اتخذ لركوبي بغلًا او ثورًا . لان الاهالي هنا يستعملون الثيران ايضاً للركوب ومع كونها ضخمة الجثة وثقيلة الحركة يفضلونها على البغال وقلما تزلُّ في طرقات هذه البلاد الكثيرة الوحول والمردومة بالاشجار التي تجرها الامطار ولحسن الحظ كنت مزمعاً ان امرَّ في الجبال حيث الطرق في غاية الوعورة لكنها غير موحلة

ومن ثم اتخذتُ بغلةً لانهُ في آخر محطة لسكة الحديد يوجد دائماً كثير من هذه البغال مع بغالتها بانتظار المسافرين. ولهؤلاء البغَّالة زي وعوائد غريبة تشبه بعض المشابهة زي وعوائد المكارية في بلادنا وذلك انهم يرفعون بنطلوناتهم الى ما فوق الركب ويلبسون قمصانًا قصارًا يرخونها فوق البنطلونات ويتزرون عليها بالمناطق التي يعلقون فيها سكيناً طويلة. اما الراس فيغطونهُ ببرنيطة عريضة من سنبل الزرع ويجعلون فوقها

قرعة فارغة تغلفهـا تغليفاً محكماً ويستعملون القرعة المذكورة لكل حاجاتهم من اكل وشرب

ويمشون عادةً حفاة وقلما يوجد منهم من يلبس خفاً من الجلد وقايةً لرجليهِ ويحملون بايديهم عصياً تنتهي بحديد مرهف يبلغ عرضهُ اربعة او خمسة سنتيمترات لكي يسهلوا الطريق على بغالهم ولذلك تراهم على الدوام تارة يحفرون الارض وتارة يفرشون التراب على المنحدرات الوفيرة التصوب وقاية للدواب من الزلل. وهم بوجه الاجمال اصحاب عمل وامانة وادب ولم يسمع قط عن احد منهم انهُ اختلس لمسافر شيئاً

وقد مشينا مدة في السهل ولحسن الحظ ظفرت ببغّال لين العريكة عارف حق المعرفة بالبلاد ولما انتهينـا الى احد الجسورة قصَّ عليَّ خبره. اجل ان هذا الجسر لفي غاية البساطة لانـهُ مؤلف من الواح من خشب الغار مركوزة على عمد من الآجر. ومع بساطته ضرب المثل هنا ببديـع صنعه وهو من عمل احد البنـائين الالمانيين كانت الحكومة الكولومبية قد سألتهُ ان يرسم لها رسمه فبعد ان اتمهُ واجازتهُ وجد صعوبة لم يكن قد استدركها ورأى انهُ لا سبيل الى اقامة عمودين من الآجر في النهر دون تجفيفه وهو امر متعذر. غير انهُ اخيرًا توصل الى تحليل الصعوبة فبـدلاً من ان يبني الجسر فوق النهر بناه على اليابسة ثم حوَّل مجرى النهر حتى صار يجري بين العمودين

وقد كنت ظننت ان البغّال متى انهى هذا الخبر يسكت وتفرغ جعبتـهُ ولكن ظني كان في غير محله لانهُ كان غزير المادة جدًّا ولم يكن يفرغ من خبر حتى يبتدئ بآخر فكان لي مسلياً دائماً

وبعد ان اجتزنا الجسر وصلنا الى قرية ورأينا فيها كنيسة ذات شكل غريب واذ اشرت اليها باصبعي التفت اليَّ البغّال قائلًا:

«ان جرس هذه الكنيسة عظيم جدًّا حتى ان كولومبية برمتها لم يوجد فيهـا حبال قوية بالكفاية لتحريكه من موضعه ومن ثمَّ اوصي على حبـل متين في انكلترة بطول ثمانية باعات. وبمناسبة هذا الامر غير المنتظر استدعى المهندس والخوري هيئـة المجلس

البلدي لجلسة غير اعتيادية فاحتدم الجدال بين الاعضاء ايما احتدام وكان فريق يريد تعلية قبة الجرس والفريق الآخر يريد حفر حفرة بعمق ٨ باعات ليتدلى منها الحبل واخيرًا فاز الفريق الثاني وصدر الامر للمهندس بان يجري على موجب ما قرّروه»

وكنت قبلًا اذهل من وفرة مقطوعية السكر في اميركة غير اني في سفري هذا لاحظت ان المقطوعية هي اوفر مما كنت اتوهمه بكثير . وذلك انهُ لا يباشر كولومبي سفرًا ولا ينتقل من مكان الى آخر دون ان يحتمل كمية من السكر لكن لا من السكر المكرَّر عدة مرات كالذي نستعمله في سورية بل من السكر غير المكرَّر المصنوع بهيئة قوالب وزن الواحد منها نحو ليبرة . ويُقدَّم للعامل ايضًا كل يوم فوق اجرتهُ ٣٠٠ الى ٤٠٠ غرام من السكر. ويُعطى السكر كذلك للدواب وكان بغَّالنا «بدرو» قد احتمل منهُ كمية لبغلته ومتى رآها قد تعبت في صعود العقبات الشاقة يناولها قطعة منهُ فتنتعش قواها في الحال . وقد ازعجني في بادئ الامر تواتر استعمال السكر ولكني صرت اخيرًا استحسنه

اما الطرقات هنا ففي اسوإ الاحوال وبعضها ضيق للغاية لا يمكن ان يمرّ فيهِ سوى بغلة واحدة اذ يكون على جانبيه تلال جزيلة الارتفاع لا يبين منها غير القبة الزرقاء . ولما دخلنا احدى هذه الطرق جعل بغّالنا يصرخ باعلى صوته فسألتهُ عن سبب ذلك فاجاب انهُ يصرخ لتنبيه من يكون آتيًا من الجهة المقابلة ثم اخذ يقص عليَّ الخبر الآتي قال :

« اعلم يا سيدي اني كنت قبلًا في سعة من العيش وغير مضطر ان اسعى وراء البغلة كما تراني الان وبينما كنت مسافرًا مرّة في طريق غير مطروقة وصلت الى شعب ضيق فالتقيت بغتة براكب آتٍ من الجهة المخالفة لم ينتبه مثلي الى اتخاذ الاحتياطات المرعية فوقفنا كلانا مبغوتين وكل منا ينظر الى الاخر متعجبًا وبعد بضع دقائق قال لي :

— ها قد وقعنا في حيرة ما بين هذين الجبلين

— فقلت: قد جرنّا الى ذلك خطانا

— فقال: لا تأسف وها انا عامل على ايجاد مخرج لنا من هذا الارتبـاك فانزل عن بغلتك فاني اريد ان اعصب عينيها واربط رجليها وهكذا تمرّ بغلتي عليها دون ان تؤذيها اما نحن فنتعلق بجانبي الشعب هنيهة ريثما يتم الامر ففعل وتخلصنا بهذه الوسيلة مما وقعنا فيه »

والقرى قليلة في الجبـال التي مررنا بها ومن ثم اضطررنا ان نبيت اول ليلة على شاطئ نهر صغير وهو يجري على غاية من الهدوء بين صفين من شجر الموز البرّي فنصبنا خيمةً على احسن محل من ضفافهِ. غير ان المحـل الذي اخترناه مقصود من الحشرات التي تدعى « فارابات » وهي آفة المتجولـين واشد هولاً عليهم من التماسيح والنمورة والحيات لانها متى لسعت وحصل الاضطرار الى العلاج الذي سيأتي الكلام عليـهِ لاجل ابعادها او قتلها اذا كان ممكناً تسبب عن ذلك التهاب لا يطاق ونشأ عنهُ بعد ايام قروح في عامة الجسم

والحشرات المذكورة مفرطحة على هيئة البق لكلٍ منها ثماني ارجل لا يمكن نزعها في غالب الاحيان دون ان تخرج معها قطعة من الجلد . اما مماصهـا المسمومة فتبقى في اللحم ويتكون بسببها قرح مؤلم لا يندمل عادةً الا عقيب اسبوع. ومن عادتها انهـا تعض في الاماكن الطرية من الجسم كاصابع اليدين والرجلين ومطاوي السيقان

وبعد ان نصبنا كثيرًا لنتخلص منها تمددنا في سرير معلق وقد وطّنا النفس اولاً بالتجلد على الالم. غير اننا لشدة ما اصابنا منه لم نستطع امساك نفوسنـا عن التلفظ ببعض دعوات ولعنات . . . ثم انهُ زاد شدةً وعمَّ الجسم كلـه فاخذنا نحك اوفر المواضع وجعًا حتى قرب ان يخرج منها الدم ولم نتخذ قليلًا من الراحة الا لما ان اغتسلنا في نصف الليل بكمية من الكحول قد مُرث فيها التبغ

ولولا الحشرات المذكورة لاطلت الاقامة في هذه الناحية رغبـة ان اتمتع برؤية شعابها وظلال اشجارها الوارفة وانعم الطرف بغدرانها الصافية ذات الاسماك المختلفـة

الالوان بل لاشنف السمع بتغاريد طيورها الجميلة التي كانت كلما رأتني تبادر الى الهرب ثم تعود لتتأمل في هذا المخلوق الغريب. فكنت من ثم اقف بعض الاحيان بلا حراك فتأتي وتقع حولي محدقة بي حتى اذا ابديت اقل حركة طارت مسرعة الى اقرب الاشجار

وفي الليلة الثانية نزلنا في محل يدعى بالاسبانية «تمبو» وهو ضرب من الاروقة الكبيرة التي تشيد في الطرق المطروقة ليأوي اليها المسافرون على شبه الخانات عندنا

فمتى وصلها البغالة فاول شيء يبادرون اليه هو انهم يحطون الاحمال عن بغالهم وينزعون عنها الاجلال واذا فرغوا من كل ذلك يشرعون في تهيئة العشاء فيأخذ احدهم قطعة من الخيزران الذي يكبر هناك كثيرًا ويستقي بها ماء ويهتم الآخر بادناء الشعلة من الموقدة التي هي عبارة عن ثلاثة او اربعة حجارة ويقتدح بالزند على الصوفان فتشتعل النار وتوضع القدر حتى ينضج الحساء الذي يكون مؤلفًا من شحم الخنزير وقليل من ثمر الموز واذ ذاك يقبلون على احتسائه ويتخذون بدل المكابيس التي تتخلل الطعام قليلًا من السكر الخشن وبدل الفاكهة شيئًا من الشوكولاتا المخلوطة بطحين الذرة. اما البغال فتترك وتتشذ لترعى في ضمن دائرة معينة

ومتى ارادوا الرقاد يبسطون قطعة من النسيج المدهون بالقطران ويتمددون عليها واذا كان الجوّ باردًا يلتحفون بغطاء وعلى كل الاحوال لا بد لهم ان يعتنوا بتغطية ارجلهم . فان لم يتخذوا هذا الاحتياط الضروري عرضوا نفوسهم لامتصاص دمائهم من الخفافيش المدعوة « قمبير » وقد مرّ خبرها لانها تقع خاصة على الاباهم وتحرّك اجنحتها تحريكًا لطيفًا لتبريد الموضع الذي تنشب فيه ثم انها بواسطة اسنانها الرفيعة والقبيبات الخشنة التي في لسانها تنفذ الجلد لتمتص منهُ الدم

ولولا هذه الخفافيش والبراغيث التي تخزق الارجل وما يسمع من قشيش الحيات في سقوف الاروقة وزئير النمورة التي تخرج في الليل لطلب الصيد لما كانت هذه الخانات تتضمن شيئًا كريهًا

وفي اليوم الثالث ابصرت على علو ١٨٠٠ الى ٢٠٠٠ متر سربًا من النخل يشبه نخل سورية كل الشبه الا انهُ يرتفع اكثر منهُ حتى يبلغ ٥٠ مترًا. ولما ابديت تعجبي من وجود النخل في مثل هذا العلو اجابني رفيقي قائلًا ان هذا نخل الشمع . فدنوت ورأيت انهُ تخرج منهُ مادة الى الشهبة قليلًا من الشمع الخالص الذي يعادل بنقائه شمع النحل الا انهُ اقل منهُ جودًا ولذلك يصنعهُ اهل البلاد شموعًا ويستخدمونهُ للاستصباح

ثم اسعدنا الحظ في النهار نفسه بان مررنا في احدى المزارع الكبيرة (١) . ونظرًا لعدم معرفتي بصاحبها لم اشإِ التعريج اليها ولكن « بدرو » البغَّال الحَّ عليَّ بذلك قائلًا اننا سنلاقي عنده احسن استقبال واكمل ترحيب فذهبت اكرامًا لهُ

ودخلنا اولاً في بوابة كبيرة حتى وصلنا الى منزل صاحب المزرعة وكان الفعلة وقتئذٍ قد فرغوا من العمل واجتمعت العائلة تحت الرواق في ارض مفروشة بالخضرة واخذ الاولاد يلقون حب الذرة للدجاج والديكة الحبشية والخدام يفصلون صغار العجول عن امَّاتها والفعلة يعودون من الحقل حاملين اكداسًا من قصب السكر وعناقيد الموز بين اخضر واصفر مع سلال كثيرة من الاثمار وكان صاحب الملك وقتئذٍ يقدم قليلًا من الملح للبغال والخيل بينما ان سيدة المنزل كانت تهتم ببعض شؤون بيتية

فلما ان هرَّت الكلاب معلمة سيد المنزل بقدومنا جاء وانتظرنا على العتبة والحَّ علينا بالنزول عنده وبالغ في التلطف ورحب بنا كثيرًا قائلًا « البيت بيتكم » وفي الحقيقة صدق في ما قال لانهُ أحلنا محلًا عزيزًا للغاية . ثم انه اوعز الينا ان نجلس على بعض المقاعد في ممشى الدار فجلسنا وجاء بعض الخدام فخلعوا عنا طاقاتنا ومهاميزنا . وبعد ان علقوا الجلال في المشاجب الخشبية ووضعوا امتعتنا بغاية الترتيب نهض فدعانا لندخل الدار فتبعناه .

---

(١) اي hacienda وقد تقدم وصف بعضها في جمهورية المكسيك صفحة ١١١

ولما حان وقت العشاء قُدّم لنا الطعام وكان بسيطاً غير انهُ كافٍ وافٍ . ومن عادة كبار الملاكين انهم اذا اعتبروا ضيوفهم مساوين لهم جلسوا معهم على المائدة وجعلت نساؤهم وبناتهم يتلطفن في خدمتهم . ومن عادتهم ايضاً انهم يدلون ضيوفهم على اسرّتهم والاسرّة عبارة عن مقاعد خشبية تبسط عليها حصيرة ومقرمة (شرشف) مع غطاء . فان لم يكن للضيوف رغبة في الرقادِ ساهروهم حتى يدركهم النعاس . وهم يحكمون على منزلتهم بما يرونهُ من ظواهرهم مثل عدد حشمهم وهيئة امتعتهم وزواملهم وبريقَ لجمها الفضية الى غير ذلك

ولما كان حديثي قد سرّ اهل الدار الحوا عليّ غاية الالحاح لأبيت عندهم ليلة اخرى فرضيت بذلك

والحق يقال انهم قوم راتعون في بحبوحة السعادة ورافلون بمطارف الراحة والنعيم لان الارض تدر عليهم بغلاتها الوفيرة حتى لا تحوجهم الى شيء . أجل انهم لبعدهم عن المدن فاتتهم كياسة الحضارة غير انهم ليسوا حافلين بها . وبناء على ذلك يتركون اكثر الشبابيك بدون زجاج لان الطقس عندهم معتدل فضلًا عن كونهم تعودوا التعرض للهواء فتصلبت اجسامهم واصبحوا لا يخشون عليها من ملامستهِ

وفي ثاني يوم وصولي خرجت للصيد مع صاحب المنزل فرأيت الغابات ملأى بالطير وكنت كيفما اطلقت بارودتي اصيب طريدة . ثم وصلنا الى نهر جار بين الاشجار وبينما انا سائر معهُ على ضفته رأيت في الماء شيئاً غريباً فحسبت في اول الامر انهُ جذع نخلة التفت عليهِ احدى النباتات المعرّشة لكنني حدقت النظر فاذا ما تحمله المياه افعى عظيمة من جنس « بوا » احبت ان تكتفي مؤونة السباحة فالتفت على قطعة خيزران عائمة . والظاهر انها قد أنضبت موارد رزقها حيث كانت اولاً فهاجرت الى محل آخر تستطيع فيهِ ان تشبع نهمها من الطرائد دون تعب ولا مشقة

وفي اثناء تجوّلي للصيد علمت اموراً كثيرة عن الحيات في هذه البلاد فاحببت ان اقصها عليك لئلا تفوتك معرفتها

اعلم ان الحيات السامة هنا اقل عدداً من الحيات غير السامة. ولكن الاخيرة تشتمل على صنفين هائلين من حيث القوة الاول يدعى «عرّاف» والثاني «بوا» فالحيات التي من صنف العراف تدرك من الثلاثين الى الاربعين قدماً طولاً ولها افواه عظيمة ذات اسنان طويلة وقوية للغاية ومتى اصابت فريسة تخنقها وتعصرها اشد العصر بين حلقاتها حتى تصير طرية كالهبر الخالص من العظم ثم تقبل على ابتلاعها بجشع غريب

وقد رأيت احدى هذه الافاعي الخبيثة وكانت قد افترست ايلاً وتنتظر ان يحل بهِ الفساد لكي ينفصل رأسه وقرونه التي لم تقوَ على ازدرادها . اما الافعى التي من صنف بوا فهي اقل جسامة وشراهة واذا كانت متوسطة الكبر لا تستطيع ان تميت انساناً قوي البنية بالتفافها عليـهِ الا اذا وقع عنقه تحت ضغط حلقاتها

وفي البلاد اصناف كثيرة من الافاعي منها صنف يدعى «بوجوبي» وهو اجملها ظهره اخضر بلون مياه البحر مع بعض نكت بيضاء وبطنهُ اصفر فاقع. ومنها صنف يدعى «هيبوكا» وهو يصطاد النمل ولونهُ ابيض يتخللهُ نكت كثيرة بين حمراء وصفراء وخضراء وزرقاء . ومنها نوع يدعى «كورال» (١) ذو حلقات بعضها ابيض وبعضها احمر . ومنها «لورس» (٢) وبطنهُ اصفر وجوانبهُ زرقاء وظهره احمر . ومنها نوع اسمه «ذو الجلاجل» وآخر يلقب «بذي الخمس دقائق» (٣) اشارة الى ان لسعتهُ تقتل في خمس دقائق

وبمقدار الرقي الى النواحي المعتدلة والباردة تصير الافاعي الخطرة نادرة الوجود كما ان الافاعي السامة يخف تأثير سمها ايضاً . وبما انهُ لا بد من بعض الزمان لامتلاء المذخر الذي يمرّ منهُ السمّ في الحمة المخصوصة لافراغه في الجرح قد لا تسبب لسعات

(١) coral (٢) lurus

(٣) بالاسبانية «cinco minutos»

الحيات الشديدة الخطر اذًى يُعتد بهِ اذا ما كانت صبت سائلها القتال في فريسة سابقة. ثم ان تأثير اللسعات يختلف بحسب اختلاف العضو والبنية

على ان الملسوع في بادئ الامر لا يشعر الاَّ بالم العضة ولكنه بعد حين يحس بنمَل في اعضائه ويتلو ذلك خبل وتخدر عام مع اوجاع شديدة في الراس قد يتسبب عنها الاغماء والغشيان ثم يتضخم العضو الملسوع ويتمدد الورم بالتدريج الى سائر الجسم .

وبعد ظهور هذه الاعراض تبدو ايضاً علامات خصوصية تعين جنس الحية اللاسعة لان كل نوع من الحيات يحدث اثرًا مخصوصاً فبعضها يخرج الدم من الفم والمناخر وبعضها يولد آلاماً شديدة في العضل وغيرها يورث وجعاً في الخاصرة الى غير ذلك

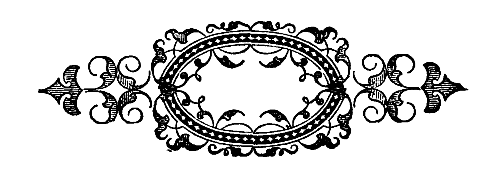
وبعد ان فرغنا من الصيد ذهب بي مضيفي الى قرية للهنود لنشاهد كيفية استحضار السم الذي يطلون بهِ سهامهم. وحالما وصلنا كانوا شرعوا في استحضاره على الطريقة الآتية وهي انهم جمعوا حطباً للنار وسحقوا اصول نبتة معرشة مع قشرها وغب ان استخرجوا عصيرها برمتهِ ملأوا منهُ عدة آنية خزفية ووضعوها على النار. ثم القوا في كل اناء عناكب كبيرة من اجناس لا اعرفها مع حمات افاعٍ واشياء اخرى غيرها ولما ان غلى المزيج مدة ساعة تناول الرئيس انبوبة من الخيزران كان طرفها الاسفل مسدودًا بالياف النخل حتى تقوم مقام مصفاة وجعل يصب فيها بتمهل ما في كل اناء بمفرده فيخرج صافياً نقياً الى مرجل كبير تحتهُ . واثر هذا صرفوا عدة ساعات في تبخير الخلاصة المذكورة. وفي هذه المدة ذهب البعض منهم الى القنص وما لبثوا ان جاؤوا بقرد وبعض طيور فاتخذوا من دمها قليلًا ووضعوه في قرعة مجوفة وصبوا عليهِ نقطة من الخلاصة التي كانوا قد صنعوها فتجمد الدم للحال وصار قطعة واحدة وبعد ان كرروا هذه التجربة عدة مرات صبوا السم في قرع مجوف وتركوه فيهِ ليجمد

والهنود المذكورون يستحضرون سمًا اخف تأثيرًا من السم المتقدم يستعملونهُ في اصطياد الطرائد التي يريدون امساكها حية. وهم يصنعونهُ من نفس مواد السم الاعتيادي بعد ان يخففوا قوتهُ بعصير بعض النباتات

وفي الغد ودعت مضيفي واستأنفت السفر فوصلت بعد الظهر الى «رولدانيلو» (١) وهي مدينة صغيرة واقعة في جبال «كورديليـــير» توصف بجودة الهواء وطيب المقام ووفرة المنازه ولذلك يقصدها سكان النواحي المجاورة ترويحاً للنفوس في ايام الصيف

والان اسألك ان تأذن لي في انهـــاء هذه الرسالة التي طـــالت حتى اضجرتني وابرمتك وسأتبعها ان شاء الله برسالة اخرى اقصّ عليك فيها اموراً اهمّ

(١) Roldanillo



الرسالة الحادية والعشرون

مضى عليَّ يومان في رولدانيلو وانا من الصحة في اتمها وكنت اود ان اطيل الاقامة لولا ان قدم احد المسافرين واخبرني انهُ بعد ثلاثة ايام تمرّ على مدينة بوناونتورا باخرة تسافر منها الى «غواياكيل» في جمهورية خط الاستواء . فعند ذلك تهيأت للسفر وبعد نصف الليل بساعتين ركبت دابّة وسرت مسرعاً حتى انتهيت الى بوناونتورا في مساء اليوم الثالث

ولم ارَ في عودتي شيئاً يستحق الذكر سوى سرب من اشجار الكينا وهي نادرة الوجود هنا ومتى اراد التاجر الحصول على شي من قشورها في هذه الناحية يقاول احد الهنود على اجرة معلومة وبعد ان يسلفهُ قسماً منها يتخذ الهندي قوت اسبوع ويتوغل في الغابات مفتشاً باحثاً حتى يعثر اخيرًا على شجرة من شجر الكينا فيقطعها بفأسهِ ثم ينزع عنها قشرها وبعد ان ينشف يحتمله ويعود الى قريتهِ. ومن نحو خمس عشرة سنة كان التجار يدفعون للهنود في ناحية «بيتايو» ثلاثة او اربعة فرنكات على كل خمسة وعشرين ليبرة من الكينا الجيدة الجنس اما الان فيدفعون ١٦ الى ١٨ فرنكاً

هذا وان الاشجار التي يمكن ان تستخرج منها كمية وافرة من الكينا صارت الان قليلة الوجود للغاية في هذه الاقطار لان الهندي يقطع الاشجار الفتية مع فروع الجذوع القديمة ولو فرض انهُ ابقاها لأتى غيره وقطعها . ومن ثم أُخذ من مدة سنوات في استخراج اصول الشجر المذكور. نعم ان قشر هذه الاصول ليس بذي منظر حسن ولكن مواده القلوية وفيرة ولهذا يباع في اوربة اغلى من قشور السوق والاغصان. اما معرفة الكينا في اوربة فحصلت بواسطة اليسوعيين ولهذا سميت لمدة طويلة « مسحوق اليسوعيين »

وانا اعلم انك من المتحزبين للكينا وانهُ لم يخالجك قط ارتياب في فاعليتها. اما انا فاقل منك تصديقاً لتأثيرها. ولا يخفى عليك ان ڤولتير الذي لم يكن يترك فرصة

الا اغتنمها لبيان التناقض في افعال العناية الالهية يقول « ان الله جعل الحمى في اوربة والكينا في اميركة » لكنه لم يدرِ ان عناية الله بعيدة عن ان توجد داء دون ان توجد لهُ دواء ميسورًا وانهُ لا يقرب من الصدق ان تكون قد تركت البشر دون علاج للحمى الى ان تم كشف الكينا

وشاهد ذلك ان اجدادنا كانوا يعرفون لهذه الداء ادوية ناجعة للغاية فضلًا عن ان كل بلاد قد اوجد المولى فيها كثيرًا من الانبتة المضادة لهُ ولكنه لا يعزب عنك ان الناس دائمًا مولعون بالادوية الجديدة ولاسيما ما جاء منها من اماكن بعيدة

ومن ثم فاني بالاتفاق مع الخوري كنيب الشهير اقول ان الله اوجد الدواء بجانب الداء. وعلى كل سواء رضي الناس او ابوا سيأتي زمن يضطرون فيهِ الى الاستغناء عن الكينا لان اشجارها صارت الآن في غاية الندرة مع ازدياد مقطوعيتها

هذا ما اردت تبيانه لك بشان الكينا ومن ثم اعود الى ما كنت في صدده فاقول اني انشرحت صدرًا من البغّال الهندي الذي اركبني بغلتهُ لانهُ عاملني اثناء الطريق احسن معاملة. وقد رأيت معهُ قطعة من الخيزران يحملها بمزيد العناية فسألتهُ عنها فاراني في قعرها ضفدعة صغيرة ذات نكت حمراء على ظهرها. فقلت وما فائدتها قال اننا متى اردنا الصيد نعلقها في غصن اخضر فوق جمر النار فلا يمضي قليل حتى تغشيها اشنة ضاربة الى البياض مع زيت اصفر نستخرجهُ منها ببشر جلدها. وبعد ذلك نعيدها الى سجنها فان لبثت حية امكننا ان نستخرج منها مرَّة ثانية سائلًا سامًا

وحينئذٍ سألتهُ ان يختبر مفعول السم امامي وكنا اذ ذاك قد وقفنا على ضفة نهر لتناول الطعام فما جلسنا حتى سمعنا حركة بين الاشجار فالتفتنا فاذا بتيس جبلي متقدم الينا على مهل وهو يقتطم الاعشاب والحشائش. فادنى الهندي انبوبته الى فيهِ ونفخ بشدة فقذف منها نبلًا اصاب الحيوان فجرحه فقفز الى الغاب ولكن البغال لحق بهِ وبعد مضي عشر دقائق جاء بهِ وهو حي ولكن على آخر رمق

ومتى اصاب النبل المسموم حيوانًا كالتيس الجبلي في عضو تكون فيهِ حركة

الدم سريعة ولاسيا في الراس لا يقوى على الهرب اكثر من دقيقتين او ثلاث ويسقط بعدها مرتجفاً ثم تبطل الحركات الاختيارية ويتخبل الصدر وينقطع الهواء عن الرئتين وتكف حركة القلب

ومساء اليوم الثاني غابت عنا النور الشمس وكنا قد وصلنا الى مكان مقفر فأخذنا نجدّ في السير لعلنا نجد مأوى نبيت فيهِ ليلتنا حتى انتهينا الى كوخ حقير تأهلهُ امرأة هندية فقيرة وكنا وقتئذٍ نكاد نهلك جوعاً وقد فرغ جميع ما معنا من الزاد . فدخلنا وبعد ان جلسنا رأينا في وسط الكوخ ناراً تشتعل وفوق النار قدرٌ فنهضتُ ورفعت عنها الغطاء فرأيت فيها ماء يغلي مع دقيق الذرة الذي هو طعام الهنود سكان الجبال بهذه الديار

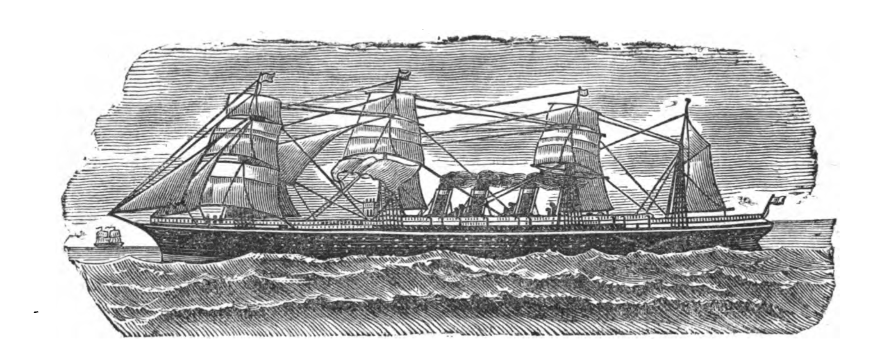
ولما رأى البغّال ان ذلك لا يكفي لاشباعنا مع ما نحن عليه من الجوع تناول ديكاً هناك وذبحهُ واخذ ينتف ريشه بينما كانت صاحبة الكوخ قد خرجت في حاجة لها فلما دخلت وابصرتهُ صاحت صيحةً عظيمة وقالت : يا لص يا سراق ترى اي شيء فعل هذا الديك حتى ذبحتهُ ثم اخذت تذرف الدموع . فاجابها اذ ذاك قائلاً اعلمي ان ما تطبخينهُ لا يلائم ذوق هذا الرجل المتجول وبما انهُ محتاج الى الاكل وجد الديك في غاية المناسبة وسيدفع لكِ ثمنهُ فاطمئني ولا تجزعي

وبما ان الهندية كسائر قبيلتها كانت متعودة ان لا ترى من سلالة الاسبانيين سوى الجور والحيف وهضم الحقوق وقفت مبهوتة ومتهللة ونشفت دموعها حالاً . ومع ذلك كان ظاهرها ينبئ بعدم تصديقها لقولنا ورغبة في ان اضع حداً لانزعاجها وقلقها تناولت من جيبي قطعة بقيمة اربعة فرنكات ونقدتها اياها وسألتها ان تعذر البغّال عما ابدى من الغلاظة . فاخذت مني القطعة الفضية باندهاش وطفقت تقلبها بطناً لظهر خوفاً من ان تكون زائفة وبعد ان تأكدت عدم زيفها تبسمت وخبأتها في جيب ثوبها ثم قالت وهي تمسح دموعها « ان هذه القطعة هي في الحقيقة احب اليَّ من الديك»

وحتى لا تظهر للبغال انها حاقدة عليهِ جلست بحذائهِ واخذت تنتف احد جانحي

الطير بينما كان هو ينتف الجانح الآخر. ونظرًا لما ابداه الاثنان من التنافس كمل نتف الديك وتجويفه وتشييطه بوقت سريع ثم وضع في اناء خزفي كانت المرأة قد بادرت لتهيئتــهِ بكل رضى مع قليل من الشحم والبصل اللذين اتت بهما من ثقب في جدار كوخها جعلتهُ بمنزلة خزانة للمأكولات فشكر لها البغّال حينئذٍ صنيعها وشاركتهُ في شكرها انا ايضاً حتى اخذ منها السرور كل مأخذه

ولما انبثق صباح اليوم الثاني الذي كان آخر ايام سفرنا سرنا في بلاد اوفر عمرانًا فاشترينــا ما نحتاج اليه من الزاد واخذنا نجدّ خوفًا ان نتأخر عن ميعاد سفر البــاخرة فوصلت الى بوناونتورا مساء النهار كما اسلفت لك الخبر وذهبت توًّا الى وكالة البواخر فقطعت تذكرة ونزلت الى الباخرة التي كانت انكليزية كاغلب البواخر في هذه الجهات



الرسالة الثانية والعشرون

لما ان وصلت الى ظهر الباخرة توهمت انها ترفع مرساتها في الحال وتخر في المياه غير اني علمت بعدئذٍ انها تتأخر الى ثاني يوم لان ربانها كان قد خطب في النهار نفسه ابنة احد اعيان التجار في بوناونتورا واولم في سفينته وليمة فاخرة لوجوه الثغر مع بعض معتبري الركاب

وحال وصولي رأيت المدعوين مجتمعين على ظهر السفينة وبما انهم الحوا عليّ كل الالحاح ان اشاركهم في الفرح لم اشأ ان ارد طلبهم . وبينما كان الجميع يتوقعون الطعام الذي تأخر عن ميقاتهِ وقد استطالوا مدة الانتظار خرج الطاهي حاملًا بيديه صحفة فيها فخذ مسلوق موضوع على مفرش من البقول العديدة الاصناف فما وقعت ابصار المدعوين عليه حتى جروا وراءه الى المائدة وبعد عشر دقائق لم تعد تسمع سوى جلبة وضجة متقطعة بقرقعة الملاعق والشوكات لان الجميع اقبلوا بنهم على اسكات البطون التي كانت تصيح من الجوع

اما المأدبة فانها ما عدا الفخذ الذي هو طعام عام في جميع المطابخ وعند كل الشعوب فكانت على الطريقة الانكليزية المحضة لانها اشتملت على لحوم الثيران والاسماك المدخنة وانواع « البودنغ » المختلفة والقطائف المتنوعة والروند مع جميع اجناس التوابل الغريبة وعلاوةً على ذلك قد رُشّت تلك الاطعمة المحرقة بالخمر القوية مع الجعة . وبعد ان انتهينا من الاكل جيء لنا بالقهوة في قداح كبيرة بدلاً من الفناجين

ولما ان اخذ بخار الاكل يتصاعد من المعد الى ادمغة المدعوين الذين اعرب احمرار وجوههم عن الغبطة الخاصة التي يتنعم بها من امتلأت بطونهم وتجردت عقولهم عن كل هم وفكر نهض الربان واسترعى الاسماع وتكلم بالاسبانية الممزوجة بالانكليزية قائلًا :

«سنيورس» (١) اي ايها الخواجات ان هذه المأدبة هي آخر مأدبة قبل زواجي وغداً ارفع المرساة وادور بسفينتي حول اميركة الجنوبية . وبعد ان اتزوج استقيل من وظيفتي واسكن فيما بينكم. غير ان اخص شيء ارغب استلفاتكم اليه انما هو المخاطرة (المراهنة) التي اهتم لها كثيرًا بصفة كوني ربانًا. عرفتم ان الخواجا «پابلو» صديقنا مقدم على مباشرة السفر الذي في نيتي مباشرته وقد راهن انهُ يقطع وهو راكب على البغال هذا البر الذي ادور حولهُ بسفينتي ويصل قبلي الى مصب «اورنوك». اما انا فرضيت بالمراهنة دون ان اعيّن قيمتها. فاي مبلغ نعينهُ جائزة للفائز بهذا السباق ايها الخواجات الحاضرون»

وقد ذهلت ان اخبرك ان الخواجا پابلو المذكور هو من الطبائعيين الفرنسيين قصد ان يجتاز على خط مستقيم جميع اراضي كولومبية وڤنيزويلة فيبتدئ بالسفر من بوناونتورا على البحر الباسيفكي حتى ينتهي الى مصب نهر اورنوك العظيم على البحر الاتلنتيكي

وعند هذا السؤال سكت الحاضرون عن الجواب فكرر الربان مقاله فاجاب احد التجار الكولومبيين الذي كان قد خسر ثروته ويأمل ان يجددها باي وسيلة كانت قائلًا : مئة اوقية ذهبًا

— فقال الربان : رضيتُ بذلك

— فقال الفرنسي: عندما عرضت مسألة المراهنة نويتُ ان اجعل المبلغ المتراهن عليهِ على مناسبة ثروتي . ولكن حيث المراد جعلهُ مئة اوقية ذهبًا اي ٨٤٦٤٠ فرنكًا فانا اعدل عمَّا قلت اذ ليس عندي من الاموال ما اقلبه بالرفش كهذا الناصح العزيز

— واي مبلغ تريد المراهنة عليهِ اذًا

— خمسة فرنكات

فضج حينئذٍ جميع المدعوين قائلين انما هذا مزاح فظيع

فقال الفرنسي: لا ارى فيما ذكرت لا مزاحًا ولا فظاعة . فاذا كان هذا المبلغ

(١) Senores

يظهر لكم ولوصيفي المكرم قليلًا يمكنني ان ازيد عليهِ جوزة سيكارات

اجابهُ الربان قائلًا : لا تزد عليهِ شيئًا ايها الصديق فاحفظ فرنكاتك الخمسة ودخن سيكاراتك وهلم نبعد من الوسط كل قصد ربح ولنكتفِ بالشرف . اما قلتَ انك تواصل السفر بدون انقطاع . . .

— لم اقل شيئًا يا حضرة الربان بل افتكرت انه في مثل هذه الحال تحسن المناظرة اكثر من المراهنة ولا شك ان رجلًا مثلك من اعيان انكلترة وظرفائها لا يبالي بربح يسير . اما انا المسكين فنظرًا لقلة ذات يدي لا يمكنني ان اخاطر بالمبلغ الذي افتقر اليهِ لاجل هذا السفر. بناء عليهِ ارجو قطع الكلام عن الدراهم ولنقتصر في هذا السباق كما تقدم منك القول على الشرف وحده

— فقال احد الحضور : من حيث انكما قد عدلتما عن المراهنة فلنعد الى الشراب

وحينئذٍ اشار الربان الى الخدم فرفعوا الصحاف الفارغة واتوا بقناني ملآنة واقبل الجميع على الشراب . ولا استطيع ان اصف لكَ مقدار ما شربوا لانهُ امر لا يكاد يُصدق بل اجتزئ بالقول انهُ بعد ساعتين او ثلاثة كانت المائدة اشبه بساحة الوغى بعد معركة هائلة لان الربان كان قد تمدد تحت الخوان ووقع جميع المدعوين من على كراسيهم غير واعين لشيء من شدة السكر . اما القناني فكانت كلها قد تكسرت . وحينئذٍ جاء الطاهي وبعض الخدم والحدوا اجابةً لسؤالي كلًّا من هذه الجثث في غرف السفينة على انتظار قيامتها بعد حين

وعقيب هذا بادرت الى تبديل ثيابي التي تبللت كل التبلل كما لو كنت خارجًا بها من حمَّام وذلك لان المشاريب التي قدّمت لي كنت افرغها في كمي بدلًا من افراغها في جوفي. وهي حيلة تعلمتها من احد الاطباء الذي لما لم يكن قادرًا على تناول شيء من الاشربة اخترع الطريقة المذكورة حتى صار قادرًا ان يباري بها اعظم الشرّابين في جهتي اميركة

وعند الصباح نهضتُ مسائلًا عن اصحابنا الذين حضروا الوليمة فوجدتهم جميعًا

فرحين غير ذاكرين مما عرض لهم في امسهم سوى شيء دون اليسير وحينئذٍ قُدّمت اقداح الشاي ثم تناول الربان كاس خمر وشربها داعياً بسلامة سفر الركاب . وبعد ان تبودلت المصافحة عاد اهالي بوناونتورا الى البرّ واقلعت بنا السفينة تشق مياه البحر الباسيفيكي . وقبل السفر رأيت وكيل المصروف في السفينة قد اشترى في مدينة بوناونتورا كمية وافرة من الموز لمؤنة الطريق . وفي اليوم الثاني عند الظهر قدّمت لنا منه الوان عديدة

ولا يخفى عليك ان الموز هو طعام الاميركيين المفضل كالبطاطا عند الانكليز وهم يقطعونهُ عادةً قطعاً طويلة ويطبخونهُ مع اللحم . اما انا فكنت في بادئ الامر انفر من اكله على هذه الطريقة غير اني ما لبثت ان اعتدته وعرفت انهُ طعام مغذٍّ للغاية واتمنى من كل قلبي ان يفهم اهالي بلادنا فوائده الكثيرة . وها انا ذاكرها لك فعِ ما اقول

ان اثمار الموز في مختلف اعمارها تشتمل على خصائص ثمينة من شانها ان تجعل منها دائماً طعاماً جديداً ومتى كانت قشرتها خضراء وشويت في الرماد السخن جاءت بمنزلة خبز جديد ويمكن حينئذٍ تقطيعها وتنشيفها في الافران وحفظها للاسفار . ومتى قاربت النضج تكتسب طعماً شهياً كطعم الكستنا ويتحوّل جزء من نشاها الى سكر . اخيرًا متى علا قشرتها الاصفرار يزول كل ما فيها من النشا ويكثر السكر ويذوب اللب بحيث يمكن اكلها وقتئذٍ نية ومطبوخة مع الحساء (الشوربة) او جعلها مربى

وقصارى القول ان اثمار الموز مغذية للغاية ويمكن ان يقتصر عليها في البلدان التي لا يحترف اهاليها اشغالاً شاقة . وبناءً عليهِ لا اعلم ماذا يعوق السوريين عن توجيه العناية الى زراعة الموز لان اثماره فضلًا عن كونها في غاية الملاءمة للصحة هي منبع تجارة مهمة تتدفق بالملايين على جميع نواحي اميركة

هذا ما كان يجول في ذهني من الافكار بينما كانت باخرتنا سائرة بغاية السرعة لتغادر مياه كولومبية وتتوجه الى جمهورية خط الاستواء

ومنذ ترولي في كولون اقمت بكولومبية نحوًا من اسبوعين جمعت في اثنائهما معلومات مفيدة جدًّا عن البلاد وليقيني انك تسرّ بها ابادر لاخبارك عنها فاقول :

ان هذه الجمهورية متنعمة بالسكينة والهدوء وآخذة في توسيع دائرة الثروة التي نالتها من فضل المولى . وقد عرفت حكومتها اجحاف التعليم الالزامي فقضت بابطاله فلم يحل ذلك دون الاهالي عن ان يضارعوا سائر نواحي اميركا في المعارف بل انهم فاقوا من سواهم في احسان التكلم بالاسبانية واحكام اللهجة

اما مجالس النواب فلا تجتمع الا كل سنتين وهذا في الحقيقة ترتيب حسن اقل ما فيه اقتصاد وقت ثمين تصرفه سائر المجالس في التباحث والتجادل على غير طائل . وكانت كولومبية كاكثر الجمهوريات الاميركية قد اتخذت قوانين الولايات المتحدة دستورًا لاعمالها غير انها ما لبثت ان ادركت ان ذلك هو بمثابة تكليف الطفل الصغير ان يرتدي برداء الرجل الكبير ومن ثم بدّلتها واتخذت نظامًا موافقًا لها

ثم ان الضرائب في كولومبية زهيدة وميزانيتها ليست شيئًا مذكورًا بالنسبة الى سائر الجهات . على انه اذا لم تكن ماليتها قد وصلت الى حالة مرضية فما ذلك الّا لان الحكومة الحاضرة لم يمكنها الوقت حتى الان من اصلاح جميع ما كان فاسدًا من قبل

وليس في كولومبية من اثر للفقر الحقيقي كما انهُ ليس فيها لصوص ولا قطاع طرق كما في المكسيك ومع ذلك فسكانها اقل كثيرًا من سكان المكسيك ومن خصائص كولومبية انها تستطيع الاستغناء عن كل البلاد الاجنبية لانها تجد لديها كل ما تفتقر اليهِ من المعادن الوفيرة الثمن كالذهب الى الانسجة اللازمة للملابس . وقصارى القول انها مستجمعة لجميع اسباب الرفاهية والسعادة

ففيها سواحل واسعة المسافات على كل من الاوقيانوسين وانهار كبيرة صالحة لمرور السفن مع كثير من الانهار الصغيرة . اما هواؤُها فبالاجمال ملائم للصحة وتربتها ذات خصب عجيب تنبت فيها جميع اصناف الانبتة مثل شجر اللوز الهندي والعظلم والقطن

والقانيلية على الحالة البرية . وفي سواحلها تصطاد اصداف اللولوء والدر وفلوس الاسماك وفي جبالها جميع انواع المعادن كالذهب والبلاتين والفضة والرصاص والحديد والنحاس والحجر السماقي والرخام الابيض وحجارة السن وفحم الحجر والملح والماس وغيره من الحجارة الكريمة

وزد على ذلك انها بواسطة موقعها الجغرافي وثروتها الطبيعية المتوافرة ونظامها واخلاق أهاليها تستطيع ان تصير اسعد النواحي الاميركية واعظمها . فعسى ان يتم لها ذلك عما قليل لتتحقق الامنية التي اتمناها لهذه الارض الممتازة التي تركتُ فيها اصدقاء لا انسى ذكرهم .



جمهورية خط الاستواء

الرسالة الثالثة والعشرون

في

جمهورية خط الاستواء

امثلك من بعد تقرأ رسائلي على بعض الاصدقاء الذين يقاطعونك القراءة مرة بعد اخرى ليقولوا باني صرت شاعرًا متفننًا واني احسن وصف النواحي الاميركية تحسينًا زائدًا . ولعلك تظن في رسالاتي الاخيرة خاصةً اني اطنبت في محاسن البلاد . ولكن ينبغي ان تذكر ان لكل شيء معايب تقوم في جنب محاسنه. ولا تظن اني اعني بهذا رداءة الهواء او الحيات او سائر الهوام والحيوانات بل الحشرات الكثيرة الاصناف التي قد تفضي الى احداث الجنون في بعض الاوقات لان من يخرج للتجول في البساتين لا يأمن ان تسطو عليهِ حشرة صغيرة قرمزية اللون فتسبب لهُ أُكالاً في الجسم لا يطاق ولا سبيل لهُ ان يخلص من نشوبها على بشرته الا اذا ادَّهن بالزيت والكحول

ومن يدنو من ضفاف الانهار يستقبله صنف مريع من البرغش ويوسعه لسعاً وقرصاً حتى من فوق الثياب وفي الحال يرم الوجه والايدي من قوة لسعاته المؤذية . وهب انك دخلت الى الاكواخ لتتقي شرَّ هذه الحشرات تجد هناك نوعاً آخر ليس اقل ايذاء. وقد تعذبتُ كثيرًا من حشرة تسمى «مسكيتو» ولكني اخيرًا توصلت الى اتخاذ الاسباب الواقية من افراط ترددها عليَّ وذلك اني كنت ابلل حذائي كل مساء بروح التربنتينا ثم افرك رجلي بهِ ايضاً

وقد حُسب ان الحشرات في البلاد الحارَّة اهلكت من الاسبانيين وقت الافتتاح فوق ما قتلت منهم جميع نبال الهنود المسمومة. لان المفتتحين المذكورين ما كانوا يعرفون دواء واقياً من هذه الحشرات. وفي بعض الاحيان كانوا متى ضاقوا ذرعاً عن احتمال لسعات البرغش يحتفرون الحفائر ويهيلون الرمل على اجسادهم

واقوى ما عذبهم في بعض نواحي اميركة انما هو ذبابة بلون متموّج بين الزرقة

والاحمرار ذات راس اصفر وجناحين شفافين تسمى هنا «لوسيلية مفترسة البشر» (١).

وعرفتُ ان بعض الاهالي رقدوا مرة في الغاب فوقع الذباب من هذا الجنس على روؤسهم وثقب جلود الجماجم بمثقبه النفاذ واودع فيها بيضه الذي تولد عنه ديدان كانت تحدث المًا شديدًا. نعم انهُ ليس من احد هنا يمكنهُ ان ينجو من مثل هذا الامر ولكن يستطاع دفع نتائجه الوخيمة وذلك انهُ حالما ينبه الالم الى وجود الديدان تنبغي المبادرة الى شق الموضع وان يفرغ فيهِ عصير التبغ او مسحوق «سيفاديل» واذ ذاك تخرج الديدان من ذات نفسها او تموت فيكون استخراجها سهلًا

فقد تبين لك مما مرَّ انهُ ليس كل شيء حسنًا هنا وان الغريب على الخصوص لا بد ان يقاسي محنًا عظيمة. والان لاعتقادي انك تبرئني من تهمة الشعر استأذنك لاعود الى قصص سفري فاقول:

وصلت الباخرة صباحًا الى مصب نهر غوياكيل والقت المرساة امام بُليدة في منتهى الظرف وكان اول ما سمعنا فيها قرع جرس الكنيسة يدعو الى تلاوة التبشير الملائكي وينبه بعد ذلك الى اقامة القداس الامر الذي دلَّ على اننا قد وصلنا الى بلاد كاثوليكية حقة

وبما انهُ كان قد شاع وقوع بعض اصابات بالحمى الصفراء في برزخ بناما اضطرت السفينة ان تنتظر صدور الاذن لها لتتقدم في النهر وفي هذه الفرصة اخبرنا احد الضباط انهُ من الموضع الذي نحن فيهِ نزل الاسبانيون الاولون الذين افتتحوا البلاد. وكان معهم زنجي اورث الهنود كل العجب لانهم لم يكونوا قد رأوا مثيلًا لـهُ ولم يصدقوا ان لونهُ طبيعي الا بعد ان جرَّبوا تبييضه بقوة الفرك مرارًا عديدة

وبعد قليل انتظار سُمح للسفينة بالتقدم فجزت النهر مارة بين عدد عديد من الزوارق التجارية والمراكب الشراعية والتقت في الوقت نفسه بدفعية ظريفة مختصة بحكومة جمهورية خط الاستواء. واخيرًا انتهت الى غوياكيل وهي مدينة كبيرة تبلغ

(١) Lucilie hominivore.

مساحتها ثلاثة كيلومترات او ازيد على عدوتي النهر ولبعض منازلها قباب عالية تبين للناظر من بعيد وجوادّها عريضة نظيفة مدت في اكثرها خطوط للترامو ي. اما مرفأها فهو اعظم المرافئ التجارية التي رأيتها في جنوب اميركا بعد مرفا هاڤانا

ومساء يوم وصولي احببت ان اتمشى هنيهة على الرصيف فبينما انا سائر سمعت غلاماً هندياً يصيح قائلاً «على الكوكويوس الجميل يا سيدات» فدنوت منهُ فلم ارَ غير اربع او خمس قطع من قصب السكر فقلت «اين الكوكويوس» فنظر الغلام اليَّ نظر متعجب وتوهماً منهُ اني انكليزي — لان كل غريب هنا يعده السكان انكليزيّا — وطمعاً ان اشتري من بضاعته تناول قطعة من القطع المبسوطة امامه واراني انها مجوَّفة ثم اخرج بكل احتراز زوجاً من حشرات غريبة فاشتريته منه شاكرًا اياه على تلطفه

واعلم ان الكوكويو ويسمى بلغة العلماء كوكويو لمپيريس (١) اي اللامع هو حشرة من طائفة السوس يبلغ طولها نحو ثلاثة سنتيمترات لها عينان ناتئتان بعض النتوء وواسعتان غاية الاتساع ترسلان في الظلمة نورًا ساطعاً متألقاً. ولهذا يتخذها النساء لزينة شعورهن بعد ان يحبسنها في نسيج رقيق ومن رآهنَّ مارات ليلاً في البساتين يتعجب مما ينبعث عن تيجانهن من الانوار ويتخيل ان في ذلك لسحرًا

وقد طالما سمعت ان ثلاثاً او اربعاً من هذه الحشرات اذا وضعت في قنينة اعطت من النور ما يكفي للقراءة والخياطة الاَّ ان ذلك مغالاة مفرطة لان غاية ما يصدر عنها من الضياء يساوي نور قنديل ضعيف. وبغية حفظ هذه الحشرات حية تودع مدة النهار في انابيب مجوَّفة من قصب السكر

وكثيرًا ما رأيت النساء ايام اقامتي في كوبا يتزيَّنَّ في الليل بالاكاليل اللامعة ويتخطرن في الشوارع والبساتين معجباتٍ غير اني لم احصل على حشرات الكوكويو الا

(١) Lampyris cocuyo.

في غوياكيل . وبذلت غاية الجهد بغية ابقائها حية لارسلها اليك ولكني بعد ايام قليلة وجدتها قد ماتت

ثم اني صباح اليوم التالي وكان يوم احد خرجت الى البرّ لاسمع القداس الالهي فوقع بصري على كنائس عديدة جميعها مزدحمة بالناس . ورأيت للقوم هنا عادة كنت قد راقبتها في بناما وسائر نواحي كولومبية وهي ان النساء نظرًا لعدم استعمال المقاعد الخشبية في الكنائس كما في اسبانية تتبعهنّ على مسافة وصائف فتيات حاملات للطنافس . على ان غاية ما يبغينه ان يكون حامل الطنفسة غلاماً هندياً وبعض المتدللات يتخذن غلامين لهذه الغاية بدلاً من واحد ويحسبن ذلك فخرًا . ولهذا كانت هبة غلام هندي بسن الرابعة او الخامسة احسن ما يمكن ان يقدّمه رجل لامرأة

ومتى درت سيدة بعزم رجل على السفر الى داخلية البلاد فاقصى ما توصيه بهِ ان يرسل اليها غلاماً من الهنود قائلة « بحياتي الا ما تنسى ان ترسل اليَّ غلاماً هندياً » (١) وتجعل هذه العبارة آخر جواب على وداعه

فمتى وصل المسافر الى قرى الهنود يختار من بعض العائلات ولدًا او اثنين صغيرين يشتريهما من الاب ببضعة قروش مع قليل من الكوكا والعرَق . ثم يتربَّص سفر القافلة ويرسلهما بصفة حمل الى السيدة التي اوصته بمشتراهما . فمتى وصل اليها تفرح بهما غاية الفرح واثر انزالهما عن البغال تأخذ تنظر اليهما بتودد وابتسام والدموع تجول في عينيها من وفرة السرور ثم تأمر بنزع ثيابهما وغسلهما وقص شعورهما وغب ذلك تلبسهما ثوبًا قشيبًا يطيران به فرحًا . وبعد ان يحصل لهما على مدة قصيرة بعض سوء هضم اذ لا يمكن ان ينتقلا دون اذًى من القوت اليسير الذي تعوداه في بيت ابويهما الى الطعام الوافر الذي يأكلانه في بيت مولاتهما تتسع معدهما الاتساع المطلوب ويقومان احسن قيام بخدمتها

(١) بالاسبانية : « Vida mia, no se olvide U. Mandarme un Indiecito. »

غير انهُ لسوء الحظ ليس من شيء يثبت على هذه الدنيا الزائلة لان الغلام الهندي متى ادرك الثانية عشرة ورأتهُ مولاته قد كبر واصبح غير صالح لحمل الطنافس تخرجه من خدمتها الخاصة الى المطبخ حيث يصير مساوياً لسائر الخدام

هذا واني لم أقم في غوياكيل سوى يوم واحد . وبما اني كثيرًا ما وصفت لك المدن الاميركية اسألك الآن ان تعفيني من وصف هذه لاني ارغب في الوصول عاجلًا الى «كيتو» قاعدة الجمهورية

واعلم ان الطريق الموصلة الى كيتو طويلة ولا تخلو من المشقة. وقد حصل الشروع من زمان في مد سكة حديدية تؤدي اليها ولكنها بعيدة النجاز لان اصعب قسم وهو القسم الذي يمرّ في الجبال لم يُصنع منهُ للان شيء. وبناء عليهِ استأجرتُ بغلة وسرت على بركة الله وقد قاسيت بردًا شديدًا لاسيما عندما تجاوزت ارتفاع ٣٠٠٠ متر . وبعدئذٍ اخذت اشعر شيئاً فشيئاً بتشوّش عمومي في مزاجي

وبما اني كنت قد شعرت بمثل ذلك لدى تصعيدي في جبال المكسيك عرفت في الحال سببه وهو قلة الضغط الجوّي لان الهواء في مثل هذه الجبال الجزيلة الارتفاع يكون اقل من هواء السواحل كثيرًا فيسبب وجعاً اليماً في الرأس مع غثيان ودوار ويفضي بعض الاحيان الى الاغماء

اما انا فما وصلت الى هذا الحد لان البغال لما تنبه لِما اشعر بهِ من الآلام وشاهد اصفرار وجهي ناولني سن ثوم فحرّضني ان اقضمه كما لو كان من ملبس اللوز فاطعتــه ولكن باشمئزاز ونفور. وبما ان الدواء الذي كان يحسبه البغّال شافياً لم يؤثر فيَّ شيئاً اشار عليَّ ان الطم انفي بيدي لطمة قوية حتى يرعف بالدم زاعماً ان في ذلك برئي. غير اني استصعبت الامر وفضلت ان اتناول سناً ثانيةً من الثوم مع كراهتي لرائحتها وطعمها

وبعد مضي عشرين دقيقة شعرت بذهاب التشوّش عني ولا ادري أذلك كان من تأثير الدواء ام من كون رئتي قد تعودت الهواء الرقيق ومن حسن الحظ ابتدأنا

وقتئــذٍ في النزول من القمم العالية وبانت لنا مدينة كيتو التي وصلنا اليها بعد مغيب الشمس

ولا اتذكر في حياتي اني ذقت من لذة الرقاد مثل ما ذقته تلك الليلة التي طلع صبحها عليَّ ومضى من نهارها نحو اربع ساعات ولم استيقظ · وبعد ان تناولت طعام الظهر جلت في شوارع المدينة حتى المغيب . وبما انهـا من المدن العواصم اسألك ان تأذن لي في وصفها

اعلم ان كيتو تعلو سطح البحر ٣٠٠٠ متر فتكون بمساواة جبل الشيخ في لبنان الشرقي. والمقام فيها حلو شهي لانها دائماً في ربيع مستمر وهواؤها لا يكاد يعتريه تبدُّل فانهُ ما بين اوفر شهور السنة حرًّا واشدها بردًا يوشك ان لا يبلغ الفرق درجتين

والمدينة منقسمة الى عدة احياء بمسايل عميقة تجري فيهـا بسرعة الى البحر ميـاه الامطار والبواليع . وبالنظر لموقعها المتحدب ووفرة اقنيتها والمياه الصافية التي تصلها بغزارة من الجبال القريبة كان هواؤها دائماً في غاية الملاءمة للصحة

اما منازلها فمبنية على نظام هندسي لكنهـا جميعاً واطية واكثرها متصدع نظرًا لتواتر الزلازل الارضية التي تصيبها منها زلزال اتلف في القرن الماضي اربعين الف نسمة. وفيها كرسي رئيس اساقفة مع مدرسة جامعة شهيرة. اما كنائسها واديارها العديدة ففيها كثير من بدائع الرسوم لان صناعة التصوير معتبرة فيها غاية الاعتبار

واول ما يدخل اليها الزائر يستشعر حالاً انهُ يطأ ارضاً كاثوليكية محضة لان سكانها محبو المسالمة وفيرو البشاشة والمؤانسة كلفون بعمل الخير والصدقة كثيرو التردد الى الكنائس للصلاة. وبينما كنت مرة قد خرجت من الكنيسة الكاتدرية وطفقت التجوُّل في الساحة العمومية سمعت صوت جرس صغير وتلا الصوت اناشيد موقعة على آلات الموسيقى فعدت حينئذٍ ورأيت جمعاً غفيرًا خارجين من الكنيسة بايديهم الشموع المنيرة وبينهم عدة من كبار ضباط العسكرية وارباب المجالس والقضاء سائرين جميعاً بغـاية الاحترام امام القربان المقدس يحمله كاهن تحت مظلة جميلة للغاية ممسكة بايدي اربعة

من الكبراء في جملتهم نائب رئيس الجمهورية مع رئيس مجلس النواب . وبما ان ذلك النهار لم يكن عيدًا التفتُّ الى احد الاهالي مسائلًا اياه عن الغرض المقصود من هذه الدورة فاجابني ان هذه تصير كل شهر لاجل مناولة المرضى في بيوتهم . . .

. . . .

ومع كونه لم يمضِ عليَّ سوى خمسة ايام في جمهورية خط الاستواء سمعت الناس في كل مكان يتكلمون عن « غرثيا مورينو » الشهير (١) فتذكرت وقتئذٍ ترجمة حياته التي قرئت لنا في المدرسة وكنت اقضي العجب مع سائر رفقائي الطلبة من شجاعته وهمته الفريدة . ومنذ اخذت التجول في اميركا سمعت كثيرين يتكلمون عنه ولكن بوجه متخالف لان غير الكاثوليك كانوا يسبونهُ ويلعنون ذكره ولكن ذلك زادني اعتبارًا لهُ

هذا واني مذ وصلت الى هنا اخبرني معارفي عنهُ اخبارًا عجيبة حتى انذهلت كيف ان رجلًا بهذه الهمة الخارقة العادة امكن ان يولد في عصر انحطت فيهِ الطباع وهوت عن منزلتها . وقد تولى غرثيا مورينو رئاسة الجمهورية مرتين وفي مدة ولايتهِ صنع امورًا عجيبة لانهاض حالة بلاده واسعادها ولو ان اعداء المملكة والديانة لم يحملوا عليهِ فيقتلوه سنة ١٨٧٥ لكان نفع اوطانه نفعًا اعظم . . . .

. . . .

وسوف اتكلم لك بالتطويل مرة اخرى عن هذا الرجل العظيم . اما الآن فاني اهيئ معدات السفر وغدًا باكرًا اذهب الى التجول في داخلية البلاد لمدة طويلة فلا تنتظر اذًا رسائلي الى شهر في الاقل . وهذا ان عدت لان الاخطار كثيرة فاستودعك الله والسلام

---

(١) Don Gabriel Garcia Moreno.



فهرس

اهم مواد الكتاب

المقدمة

صفحة

الرسالة الاولى

الرسالة الثانية

الرسالة الخامسة

صفحة

الرسالة السادسة

الرسالة السابعة

صفحة

الرسالة الثامنة

الرسالة التاسعة

الرسالة العاشرة

صفحة

الرسالة الحادية عشرة

الرسالة الثانية عشرة

الرسالة الثالثة عشرة

الرسالة الرابعة عشرة

الرسالة الخامسة عشرة

الرسالة الحادية والعشرون

الرسالة الثانية والعشرون

الرسالة الثالثة والعشرون

فهرس

الالفاظ المشتقة من العربية

